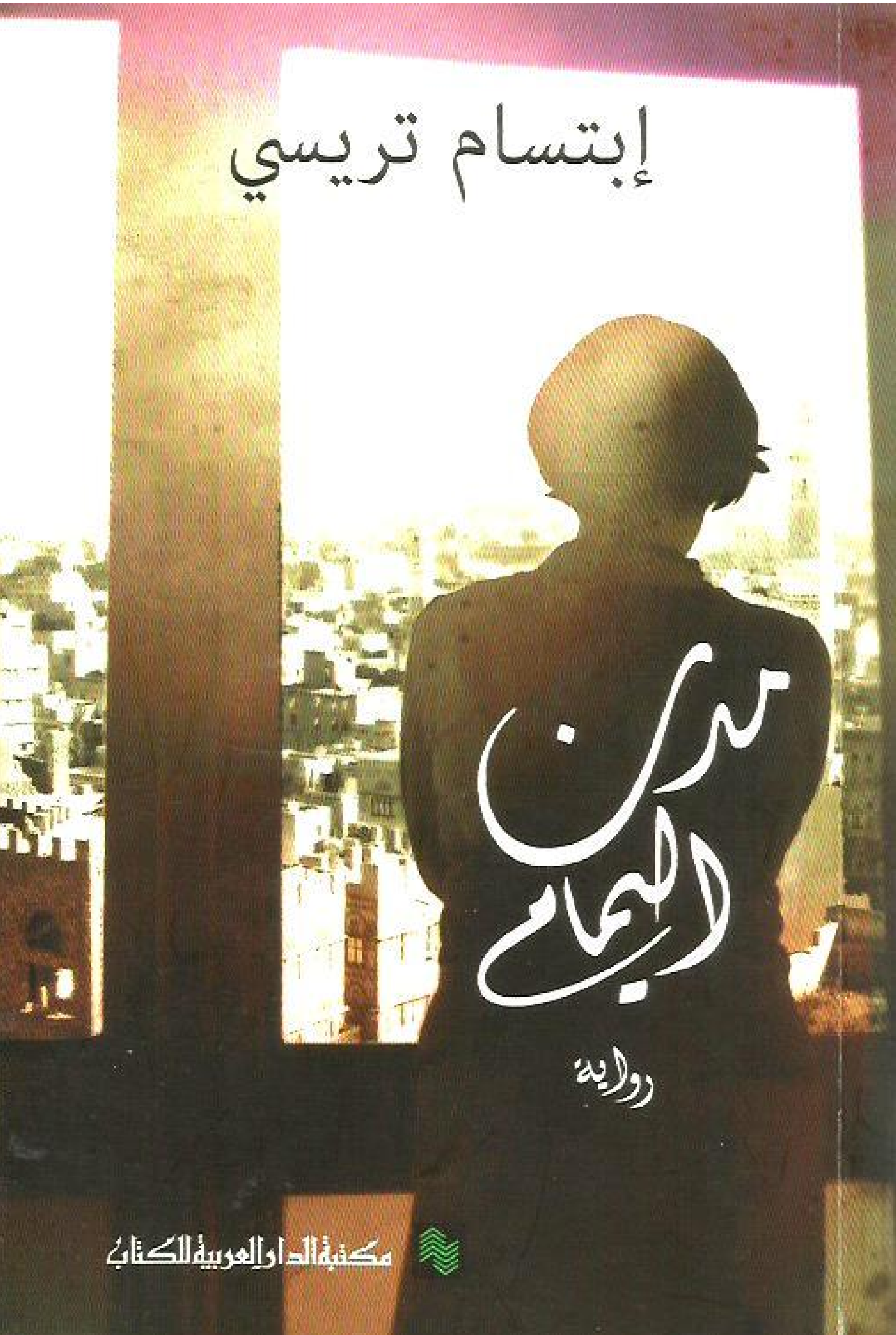
إبتسام تريسي
مدن اليمام
رواية
مكتبة الدار العربية للكتاب

مدن الأيام

رواية

تريسي، إبتسام إبراهيم.
مدن اليمام: رواية / إبتسام إبراهيم تريسي.- ط1.
القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، 2014.
344 ص؛ 20 سم.
تدمك: 0 - 711 - 293 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان 813
رقم الإيداع: 23932 /2013

©
مكتبة الدار العربية للكتاب
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى: ربيع أول 1435 هـ - يناير 2014م

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة الدار العربية للكتاب، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي
مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس
منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن
كتابي مسبق من الدار.

إبتسام تريسي

مدن اليمام

رواية

مكتبة الدار العربية للكتاب

نور حلاق وفراس فياض «هما اللذان رأيا كلّ شيء»..

ومعهما كانت قافلة من المعتقلين.. من الشهداء.. من الناس الذين راقبوا الدمار وعاشوه..

منهم هذه الرواية.

الإهـــداء

كان واحدًا،

وأصبح عددًا لا يحدّ..

كان نورًا لي فقط،

وصار نورًا لمئات الأصدقاء الأحرار..

كان ابني،

وأصبح ابن سوريا.. ابن الشمس..

يمتلكه السـوريون.. يستبدلون صورته بصورهم الشخصية على الفيس بوك.. يكتبون عنه.. يحبونه مثلي، وربّما أكثر..

يخاطبونه بحميمية تتجاوزني..

لكنّـي لم أفقد حبله السـري المربوط بجسـدي علـى الرغم من مفارقته لرحمي منذ أربعة وعشرين عامًا!

خبز النحل

ما الذي حدث في تلك اللحظة الفاصلة ما بين النّوم والاستيقاظ؟ أنا على يقين أنّ الوقت لم يتجاوز لحظات، سقطتُ أثناءها في هوة لا قرار لها. جذبتني بقوة، ورمت بي في دوار القلق والهواجس المرّة. احتجت لفنجان قهوة قبل أن تتضح لي الرؤيا، وأدرك أنّ خطرًا يحدق به، وأنّ التيّار سيجرفه بعيدًا. ما أنا على يقين منه أن قلبي لا يخطئ.. فقبل أن تلوح الكارثة في الأفق تنتابه تلك الحالة من الجزع والانقباض، وتتبدى على هيئة منام لا يلبث أن يتحقق! حدّ أنّي صرت أخشى من كلّ منام أراه وأتوجس من كلّ خفقة قلب!

«كنت أركض على الشاطئ الأزرق وأنا ألهث، وقدماي تغوصان في الرمل وتمنعانني من التقدّم.. بينما خطواته القصيرة تمسّ الرمل مسًّا خفيفًا، وترفعانه عن الأرض، فيبدو لعينيّ كنورس يحجب الشمس ببياض جناحيه! في منتصف الطريق إلى الصخرة العالية، توقف، واقترب من الماء.. انحنى قليلًا، وأشار لي بيده.. «انظري إليها كم هي جميلة!». كانت هناك تسبح بين صخرتين رماديتين،

سـمكة صغيـرة مبهـرة الألـوان! انحنـى أكثـر، ومـدّ يـده الصغيرة لالتقاطهـا.. وغـاب عن نظري! لم يفصل بين يدي وجسـده سـوى لحظة واحدة.. لحظة فاجأتني فيها موجة عالية غمرت جسـده، ولـم أعد أبصر سوى الزرقة اللانهائية للسماء والبحر!».

رؤيا غريبة انتزعتني من النّوم، فقمت فزعة وجسـدي يرتجف.. شربت كأس ماء.. خرجت إلى الشرفة لأتنفس بعمق.. ورحتُ أدور بقلق حول نفسـي، أقوم بأعمـال لا داعي لها، أفتـح التلفزيون على قناة المشـرق وأغلقه.. أذهب إلى المطبخ، أفتح البرّاد وآكل أشـياء لا أحبّهـا ولا رغبـة لي بها! أصنـع قهوة، ولا أشـربها.. أعود لأفتح ملفًّـا، ولا أكتب شـيئًا.. تلك الحالـة ترافقت بتوهـجٍ ذهنيٍّ، رحتُ خلالـه أضفر أحداث المنام، وأفردها علـى صفحة بيضاء بجانبي.. أضـع خطوطًا، وأقلب فنجان القهـوة، فتدلّني تعرجاته ودروبه على ما التبس عليّ من الرؤيا.

تلك الحالة لم تشغلني طويلًا، كانت أخبار الأحداث الدامية في درعا أقوى من تأثير منام مَهما كان مربكًا.

قبل أن أخلد للنوم في ذلك اليوم، اتصلت به لأطمئن عليه، لكنّ هاتفـه كان خـارج التغطية! أعـدت المحاولة في الصبـاح، وأخبرته أنّي سآتي إلى دمشق في أمر خاص.

لـم يكـن الطريـق إلى دمشـق يخلـو من مخاطـر، فقد انتشـرت الحواجز والتوتـر، وامتلأ الفضاء برائحة الترقـب والخوف، وصار الناس حذرين في أحاديثهم وإبداء قلقهم إزاء ما يجري بالقدر الذي يرغبون فيه بالحصول على حريتهم وإنهاء الأزمة على خير.

لـم أكن أفكّر فـي الإقامة عنـده، فبيته الواقع فـي مخيم اليرموك بارتفـاع أربعة طوابق، لا يحتوي على سـرير أسـتطيع النوم فيه.. لم يكـن هـذا وحده ما دفعني لأن أطلب منه أن يحجز لي في فندق، بل رغبتي بعدم الارتباط بأيّ شخص في تجوالي. فاجأني حين وصولي بأنّه لم يستطع الحجز لي مسبقًا، لأنّه يحتاج بطاقتي الشخصية.. لم أصدّقـه، مع هذا كان علـيّ الموافقة على اقتراحه بالمبيت عنده هذه الليلة، فقد حلّ المسـاء، وكانت الريح الباردة تنبئ بمطر فاجأنا قبل وصولنـا إلى الحـارة التي يسـكن فيها. لكن برزت مشـكلة أخرى، كنت أعرف أنّه يستضيف صديقين يقيمان معه أحدهما من الجسـر والثاني من حمص. قلت: «أين سيذهب صديقاك إن بقيتُ عندك؟». قـال: «فارس في البلد، وصالح لا يأتـي إلا في موعد الامتحان كما تعرفين، لا حجة لكِ!».

عنـد المنعطف، وقبل دخولنا الزقاق الضيّق، لفت انتباهي جدار واطئ لبيتٍ متداعٍ، جلس أمامه رجلٌ سبعيني على كرسي من القش، وأسند ظهره إلى الجدار. أثار الرجل فضولي ففي نظراته السـاهمة

يحتشـد حزن لا يمطـر دموعًا، لكنّه يختزن لمعانًا غريبًا لا يتناسـب واسـترخاءه المنبـئ عن ضعف جسـدي إلـى جانب ضآلة الجسـد ونحوله! حين سـألت ابني عنه، ردّ باختصار: «حكاية طويلة». لكنّ فضولـي لم يهدأ. بعد وصولنـا إلى البيت، والتقاط أنفاسـي أعدت السـؤال: «مـا حكايته؟». ردّ ابني ببسـاطة: «حكاية كلّ فلسـطيني». قلـت بإصرار: «لا، هناك حكاية، متأكـدة أنّها مختلفة. لماذا يجلس فـي هذا البرد أمام الجـدار، ولا يدخل إلى البيـت ليدفئ عظامه؟». قـال ابني بقليل من الاهتمام: «لقد تعوّد ذلك، ثمّ الدّنيا ربيع يا أمّي، أنت لم تريه من قبل، حتّى في عزّ كانون لا يفارق جلسته تلك». قلت باندفاع اسـتغربته من نفسـي: «أريد أن أزوره، هل أسـتطيع؟». تلكأ ابنـي قليلًا، ثمّ قال: «ماما.. لا أنصحـك بذلك، الرجل لا يتكلّم مع أحد منذ وفاة زوجته، يكتفي بالجلوس أمام البيت بانتظار عودتها». أبهرتنـي العبارة.. قلت: «تعود! من أيـن؟ هل يعود الأموات؟». ردّ ابنـي باهتمـام: «يا أمّي.. هو أصلًا ليس مقتنعًـا أنّها ماتت، بل يعتقد أنّها ذهبت لشراء شيء ما من سوق الحميدية وستعود. حين صدمتها سيارة وعادوا بجثمانها كانت ذاهبة لزيارة المسجد الأموي، وشراء بعض الخرز والكلف. كانت تخيط عباءات ومناديل رأس فلسطينية، وتبيعهـا للتجـار هناك.. ومنـذ ذلك اليوم وهـو يعتقد أنّها سـتعود، ولا يحبّ أن تعود ولا تجده في انتظارها!». لم يكن ألمًا ما شـعرت به، تمدّد في جسدي شعورٌ بالحرقة، ضرب معدتي بقوة، فأحسست

بدوخة بسيطة، جلستُ على إثرها فوق الكرسي الوحيد في المنزل، وفكّرت بذلك الحبّ الذي يجعل الرجل غير مقتنع بوفاة زوجته! سحبتني أفكاري بعيدًا حدّ تخيّل شكل المرأة التي أحبّها، وقصة الحبّ منذ بدايتها. لا شكّ أنّ هناك شيئًا مختلفًا تمامًا عمّا مرّ بي من قصص! ألحّت عليّ تفاصيل كثيرة ومتناقضة، جعلتني أصرّ على لقاء الرجل.

قبل أن أصل إلى بيت ابني لآخذ أغراضي، لمحتُ الرجل جالسًا في المكان نفسه كما البارحة! تهيبت من فكرة الحديث معه، لكنّي لم أتمالك نفسي فألقيت التحيّة. حدّق فيّ طويلًا قبل أن يعدّل جلسته، ويردّ بهمهمة لا تكاد تسمع، لكنّي فهمت أنّه رحّب بي. اقتربتُ خطوتين حتّى صرت في مواجهته، قلت:

ـ هل أستطيع الجلوس معك قليلًا؟

تلفّت حوله، ونظر إليّ طويلًا وكأنّه لم يرني قبل لحظات.. تنحنح، وقال:

ـ أين؟

انتبهت أنّه لا يوجد كرسي آخر، ولا حجر يمكنني الاستناد عليه، رأيت ولدًا يلعب الكرة، قد أثار فضوله حديثي مع الرجل فاقترب منا.. وقال:

ـ خالة.. هل أحضر لك كرسيًّا؟

ابتسـمت لـه، الولد لـم ينتظر موافقتـي، فقد رمى الكرة بسـرعة لصديقـه، ودخـل أحـد البيـوت، وخـرج مسـرعًا ومعه كرسـي من البلاسـتيك. أخذت الكرسي من الولد شاكرة، ولمحت في اللحظة ذاتها امرأة أطلّت برأسها من البيت الذي جاء منه الولد. كادت تصرخ بابنهـا، وبلعـت صراخها حيـن رأتني. وقبل أن أنبـس بكلمة حطّت يـدٌ دافئـة على كتفي برفق، اسـتدرت لأجـد ابني يقـول: «ماما، هل تعتقدين أنّ جلوسك هنا مناسب؟». لـم أكن أهتم لتلك الشكليات، مـا كان يهمنـي في تلك اللحظة أن أشـبع فضولي. فوجئت بنهوض الرجل وهو يقول:

ـ تفضلي إلى البيت يا سيدتي.

المفاجأة تركت أثرها على وجه ابني وصديقه، والولد الذي أتى بالكرسـي وأمّه التي مـا زالت واقفة بالباب.. ربّما اسـتغربوا جميعًا تصرّفـه لأنّهـم يعرفونه من قبـل، ويعرفون أنّه لا يتحـدّث إلى أحد، فكيف سمح لامرأة غريبة أن تدخل بيته الذي لا يعرف سكّان الحي ما بداخله منذ توفيت زوجته؟!

البيـت كان مؤلفًـا من فسـحة صغيرة فيها عريشـة عنـب بدأ ماء الربيـع يفور في أغصانها الرفيعة، على الرغم من منظر اليباس الذي يشـملها! أحواض زهر رُصفت عليها أصص زرع فخارية خالية من

الـزرع، مـا عدا أصيصًـا برز من خـلال زرعه اليابس أعـواد نرجس فاحـت رائحتهـا الزكيـة. اندفعتُ بروحـي تجاهها، لمسـتها بيدي، وفتحـت صنبور ماء في الزاوية، وسـقيتها جميعًا، وهو يتفرّج عليّ، ويبتسم، ودمعة تجاهد للفرار من عينيه. قال بخجل:

ـ شـكرًا لك سـيدتي.. أتصدّقين أنّي عرفت أنّك ستقومين بهذا منذ دخولك البيت؟

لـم يخـب ظنّي، الرجل يمتلـك هو الآخر حدسًـا يجعله يقترب ممّـن تلامس أرواحهم روحه بتلك الشـفافية المطلقـة التي تملكها القلوب المرهفة. قلت وأنا أبتسم:

ـ نعم، أصدّق يا أبا...

قال بنبرة أشعرتني بالمرارة والحسرة والندم:

ـ كان اسمه سعيدًا.

لمستُ يده في حركة مواسية، وقلت:

ـ يعوّضك الله عنه بخير الآخرة.

عندها دمعت عيناه، وأطلق للنشيج كامل جسده، وابتعد عني داخلًا إحدى الغرفتين اللتين يتألف المنزل منهما مع مطبخ صغير يجاوره حمّام وبيتٌ للأدب!

عاد أبو سعيد بعد دقائق وقد أحضر معه كأسين من الشاي وكرسيًّا من خشب الزان منجّدًا بالإسفنج تحت قماش خمري اللون. وضعه قربي، وقال: «كرسيها.. تفضلي». أن يؤثرني بالجلوس على كرسيها، ذلك يعني أنّ الدخول إلى قلبه بات سهلًا بالنسبة لي، لكنّني محتارة كيف سأبدأ، أخشى أن أجرحه فيرفض التحدّث إليّ... أنقذ ابني الموقف بدخوله يحمل غداء، وقال بمرح:

ـ عمي «أبو سعيد» أنت وعدتني منذ زمن أن تسمح لي بأن أعزمك على غداء، وها هي أمّي تتيح لنا الفرصة.. سيكون جميلًا أن تحكي لها عن ذكرياتك في حيفا قبل أن تأتي إلى دمشق.. لكن حاذر منها، فهي لا تهمل تفصيلًا تسمعه إلّا وتستخدمه في كتاباتها.

زجرته بنظرة لاحظها أبو سعيد، فابتسم قائلًا:

ـ الله يحميه، منذ سكن عندنا في المخيم ونحن نعتبره فلسطينيًّا مثلنا، وهو بغلاوة سعيد والله.

انكمش قلبي لذلك الحنان المتدفق من نظرات أبي سعيد.. وأرجأت فكرة الحديث عن ماضيه، يكفي الرجل ما يعانيه، لا حاجة لنكء جراحه من جديد.

جرت الأمور بطريقة لم أتوقعها، فقد دعاني أبو سعيد بعد الانتهاء من الغداء للدخول إلى غرفة «المسافرين»؛ غرفة صغيرة تشعرك

بالدفء والحميمية، فيها سرير ضيق، ست كراسي من الخيزران، وكرسيان منجدان بالمخمل واسعان، ومكتبة صغيرة. بضع لوحات على الجدران، وحمّالة ملابس عُلِّق عليها عباءات فلسطينية بعضها لم يكتمل العمل فيها. عرفت أنّها كانت آخر ما خاطته المرحومة! لكنّي لم أجرؤ على التعليق. بقيت صامتة وأنا أتأمل مفرشًا مشغولًا بالإبرة، غطّى جهاز راديو قديم وضع في إحدى الزوايا، وكأنّه تحفة أثرية لا يمكن لأحد لمسها! سمعت صوته قادمًا من مكان بعيد، ربّما احتاج لقوة روحية كبيرة كي تخرج كلماته بوضوح:

ـ تستطيعين الاطلاع على ما تريدين، في مطلق الأحوال مكتبتي ليست غنية جدًّا، لكنّ الكتب قديمة، وفيها مخطوطات قيّمة. سأغادر هذه الدنيا قريبًا، وليس لي وريث.. إن أعجبك شيء تستطيعين أخذه.

كانت الكلمات تغور في عمق حنجرته فتبدو كأنّها تخرج من روحي! هل يعقل أن يتنازل لي عن ذكرياته بهذه البساطة؟ لم أستغرب فقط، بل ذهلت لتلك الثقة التي منحني إياها. لاحظ ذلك فقال:

ـ منذ تعرّفت على ابنك انتابني شعور أنّ السيّدة التي حملته لا بدّ أن تكون صافية القلب كقطرة مطر.

أخرجتُ مصنفًا كبيرًا حُشرت فيه أوراق بأحجام متفاوتة، وألوان متعـددة، تنبئ أنّها جمعت في أزمنة متباعدة، فارتعشـت يدي.. إنّها المـرّة الأولى التي أتعرّف فيها على رجـل غريب يمتلك قوة الروح التي تكشـف الآخرين من نظرة أو حتّى من خلال أحبائهم! يعرفني من معرفته لابني. توقفت عند العبارة طويلًا، لـم أستطع الردّ، بعض الكلام لا يحتاج منا سـوى تلقفه بروحنا، لأنّ أيّ تفسـير له أو تعليق عليه يخدش صفاءه، ويربكنا أكثر.

جلسـت على الكرسي الواسـع، وشغلت نفسـي بتقليب أوراق المصنف.. عقّب قائلًا وكأنّما عرف السؤال الذي سأطرحه:

ـ بعـض هـذه الأوراق كتبهـا والدي بعد وصولنا مـن حيفا، كان يظـنُّ أنّه سـيعود يومًـا، أرّخ لنزوحنا، للمصاعب التـي واجهتنا قبل أن نسـتقرّ هنـا فـي هـذا المخيّـم، وكتب عـن ذكرياته في بلـده الأم بـكلّ تفاصيلها.. كان يرجـو أن يطبع ما كتبه في كتاب ضخم.. لكنّه بعد سـنوات ملّ الانتظـار، ومزّق بعـض الأوراق، واحتفظ ببعضها الآخر، ونسـي فكرة الطباعة.. حتّى أنّه في أواخر أيامه لـم يعد يذكر فكرة العودة.. كان يتحسّـر فقط على عمره المهدور في الغربة. بعد وفاته لـم أشأ أن أرميها، ولـم أتمكّن من طباعتها.. الأمر يحتاج للمال وأنت تعرفين مشاكل الطباعة...

داخـل الأوراق كان هنـاك دفتـر بغـلاف بنـي ممـزق الأطراف، سحبته برفق، وقبل أن أفتحه، قال:

ـ هـذا الدفتر يخصّ أصدقائي.. سـتجدين فيه تواقيع وشـذرات من وحي جلساتنا.

سألته إن كان بإمكاني الاحتفاظ به لأطلع عليه فيما بعد، وأعيده لـه. وافق من دون تردد.. وألحّ أن أشـرب معه قهوة قبل مغادرتي.. وعدته أن أمرّ في الغد، فقد كنت مضطرة للذهاب إلى الفندق.

من نافذة غرفتي المطلّة على شـارع فرعـي رحت أحدّق بوجوه النـاس كأنّي لم أرَ بشـرًا من قبـل! لماذا تأخر؟ هـل يعقل أن يحرق أعصابـي بهذا الشـكل كلّما أردت رؤيته؟ مرّت سـاعة وكأنّها دهر! أخيرًا سمعت طرقات خفيفة على باب غرفتي.

اقتـرح عليّ أن نأخذ تاكسـي إلى باب توما، لكنّي فضلت السـير حتّى جسـر فيكتوريا. كنت أمتلك رغبة عارمة في المشي وأنا أتأبط ذراعه، وألتجـئ من الصقيع إلى قلبه. أيضًا انتابتني رغبة في ركوب الحافلـة، منـذ كنـت فـي الجامعة لـم أفعل هـذا! صعدنـا الحافلة، جلستُ، وبقي واقفًا قربي.

عبرنـا الأزقة الضيقة في باب توما حتّى وصلنا «دروب الهوى». بيتٌ عربي كغيره من البيوت التي حوّلها سكّان دمشق إلى مطاعم!

لم تكن الجلسة مريحة، ضجيج ودخان وأغانٍ من زمن لا أنتمي إليه، وأناس يعيشون خارج الحدث! شعرت بالفصل الحادّ بين ما أعيشه وما يجري أمامي الآن.. لم أستطع أن أجلس طويلًا بعد شرب قهوتي على الرغم من التقاطي لوجوه وأحاديث تثير فضولي. خرجنا نتجوّل في حارات «القيمرية»، ونحن نتبادل أحاديث مبتسرة، وعبارات مشوشة يعلو فوقها ضجيج العابرين.

حين عدت مساء إلى الفندق كنت محتشدة بمشاعر متناقضة، وأحاسيس تجلّت بدموع نفرت من عينيّ رغمًا عني. لم أستطع السيطرة على جسدي لساعات.. هل حقًّا هذي دمشق؟ الشام التي سكنت الخاطر والذاكرة الطفلة.. ذاكرتي التي تحتفظ بحنين لكلّ ما يتعلّق بأراجيح الطفولة الزرقاء.. ملامح الشوارع والأزقة، والأسواق، الجامع الأموي، قبر صلاح الدين!.. ربّما لم تتغيّر الأمكنة كثيرًا، لكنّ أحاسيسي اختلفت مع مرور الزمن، كما اختلف أسلوب العيش، وطريقة البناء، والناس.

استلقيت في سريري ألتمس النّوم.. استعصى عليّ كالعادة، لم أتمكّن من مداواته بقراءة ساعة أستحضر فيها النعاس، لأنّي لم أجد كتابًا قربي يقوم بالمهمة لهذه الليلة.. تذكّرت فجأة الملف، لقد نسيت أبا سعيد والملف وكلّ شيء في الوجود! نهضت مسرعة، فتحت حقيبتي، ولمستُ المغلّف بحنان من وجد صديقًا قديمًا!

علـى ورقة صفـراء قُصّت بعناية مـن دفتر صغيـر الحجم، كتب أحدهـم: «أُومـن أنّ جاينـوس إلـه الرومان قـد اسـتخلص الطبيعة البشـرية، حيـن جعل لنفسـه وجهين سـكّهما الرومان علـى العملة ليتذكّـروا دائمًـا أنّ الشـرّ فـي الإنسـان ليس مطلقًـا، كمـا أنّ الخير ليـس مطلقًـا.. فلمـاذا نطلب ممن نحبّهـم أن يكونـوا بوجه واحد؟ أن تحـبّ.. إذن عليـك أن تقبل الحبيب بوجهيـه، وإن امتلك وجهًا واحـدًا عليـك أن تبحث عن الآخـر.. لا يمكنك أن تكون بشـرًا إن احتفظـت بوجـهٍ واحد». بقيت الصفحـة في يدي دقائـق وأنا أتأمل العبارة، وأعيد قراءتها.. ثمّة أشـياء في الطبيعة البشـرية تخفى على البشـر، ولا يسـتطيعون تفسـيرها مهمـا تعمّقـوا فـي معرفـة النفس وعلومها. كاتب هذه السـطور عاش بالتأكيـد مواقف منافية للطبيعة البشـرية مـع أنـاس من المحتمـل أنّهم لم يكونوا بشـرًا فـي يوم من الأيـام.. كان واضحًـا أنّهـم يشـبهون هـؤلاء الذيـن يدافعـون عـن سـلطة بالغـت في تعنتهـا حدّ اعتقـال الأطفال وتعذيبهم.. السـؤال الوحيـد الذي طالمـا أرّقني «أيمكـن أن يكون هؤلاء بشـرًا؟!». إذا كان الإنسـان يحوي نقيضه، فكيف لـم يتحرّك إحساسـهم لعذابات هؤلاء؟ كان من الصعب حقًّا أن أتخيّل الموقف أو أعيشه.. حاولت كتابة بضعة أسـطر، لكنّ الألـم منعنـي.. فأيّ كلمات يمكنها أن تعبّر عن آلام هؤلاء الذين يقضون تحت التعذيب؟ شعرت بتفاهة وضآلة كلماتي، وانكمشت في السرير منكفئة على خيبتي وحزني.

وضعت الملف جانبًا.. أعدت تشغيل الكمبيوتر. أوّل ما لفت انتباهي في الصفحة الرئيسة ما كتبه نور: «مع اقتراب يوم الجمعة نجدد مطالبتنا للسيد الرئيس:

أولا: استباق أحداث الجمعة بالدعوة إلى مؤتمر حوار وطني شامل.

ثانيًا: إظهار الجدية في الحوار، وتوجيه دعوات لكلّ الأطراف وممثلي القوى الوطنية.

ثالثًا: سحب القوى الأمنية من كل البؤر المتوترة في البلاد.

رابعًا: إعلان الحداد الرسمي في البلاد، وتشكيل هيئة قضائية مستقلة للتحقيق في كلّ دم سوري أزهق خلال الأحداث.

خامسًا: التوقف عن الإدارة الاستفزازية للأزمة من قبل الإعلام السوري.

سادسًا: الإعلان عن عفو عام.

إن من شأن الأخذ بهذه الاقتراحات التي نناشدك بها سيادة الرئيس أن تجنب البلاد زهق الأرواح وسفك الدماء ودرء الفتنة وتجنب الشقاق.. علمًا أنّ الوقت ليس في مصلحة أحد، وعلمًا أنّنا من خلال متابعتنا للأوضاع نتوقع أن تشهد العاصمة مسيرات قد تخرج عن السيطرة في ظلّ غياب دعوة واضحة وجريئة لحوار وطني شامل عاشت سوريا حرّة آمنة».

تجمّع يوم الحوار السوري.

مشاعر ملتبسة انتابتني تراوحت بين الخوف والفخر والاستغراب.. لم يكن مفاجئًا لي أن يتجه ابني لمساندة الثورة منذ انطلاقة شرارتها الأولى.. لم يكن مفاجئًا لي أن أرى وجه أخي وأبي وإرثًا طويلًا من التمرد على كلّ أشكال القمع السلطوي في تصرفاته التي أخافتني من جنوحها نحو التهور وابتعادها عن الحكمة، على الرغم من التباس مفهوم الحكمة لديّ وانسجامه مع الخوف التاريخي الذي قبع في أرواحنا!

الهاجس الذي سيطر عليّ من جديد.. ماذا حدث اليوم؟

الخبر الأكثر إدهاشًا كان تصريح المستشارة السياسية للديكتاتور: «**إنّ السلطات السورية سترفع قانون الطوارئ المطبّق في البلاد، إلّا أنّها لم تحدّد جدولًا زمنيًّا!**».

*****

لم تفلح محاولاتي المتكرّرة في اقتناص إغفاءة قصيرة، فنهضت ثانية لأعدّ فنجان القهوة، وفتحت المغلف من جديد.

اصطدمت يدي بالفنجان، فاندلق على غطاء السرير، رميت الأوراق جانبًا، وحاولت تجفيف البقعة بمحارم ورقية، مسحت ما تناثر على يدي، ورحت أرتّب الأوراق التي تناثرت فوق السرير.

فوجئت بورقة مطوية سقطت على الأرض.. فتحتها بيد مرتعشة، كأنّي ألامس أصابعه في العتمة! نبضات قلبي ازدادت وأنا أحدّق في الخطّ الناعم الذي أعرفه جيدًا، في التعرجات الدقيقة لقلم فحم أسود خطّ على البياض روحه! كان اكتشافًا مذهلًا، فهذا الرسم لم أره يومًا بين رسومات ناجي العلي.. أعرف كلّ ما خطّه قلمه طيلة مشوار حياته.. كيف؟ ومتى؟ أسعفني هامش أسفل الصفحة يقول فيه: «إلى صديقي الفلسطيني السوري بامتياز، هذا الذي لن أعيش لأراه.. ستقرأ في خطوط هذه اللوحة ما استشفته روح حنظلة على تخوم المخيم، وستبقى ذكرى عبوري من دمشق إليها!». كنت أرتعش بكلّ جسدي وأنا أحاول أن أتذكّر متى عبر ناجي العلي دمشق إليها؟ أعرف أنّه مرَّ فيها في طريقه إلى بيروت، لكنّي لا أذكر متى..كم أنا محظوظة! لم يخطر ببالي أبدًا أنَّ أبا سعيد يمتلك كنزًا كهذا بين أوراقه.. ولم يخطر ببالي أن أحصل عليه بهذه السهولة!

في الصباح كنت حريصة على ترتيب عباراتي التي سأقولها لأبي سعيد كي يسمح لي بالاحتفاظ بهذه اللوحة.. كنت أتخيّل وأنا في طريقي إلى المخيّم أنّ أبا سعيد سيرفض، وأنّي سأضطر إلى تصوير اللوحة والاحتفاظ بها على كمبيوتري، بل سأضعها بدل صورتي الشخصية على صفحتي في الفيس بوك. فكّرتُ أنّه من المناسب

أيضًا أن أذكر أنّها لوحة خاصة لم ينشرها ناجي العلي، لأنّه خصّ بها صديقًا «شاميّ الرّوح والانتماء»...

حين وصلتْ السيارة دوّار البطيخة، انقبض قلبي لسبب لا أعرفه.. لم تكن البوصلة تشير إلى ابني الذي يخرج في المظاهرات، ويتركني قلقة طيلة الوقت.. بل شيء غامض أدركته فور وصولي الحارة الضيقة، فقد رأيت جدار بيت أبي سعيد المهدّم ينبئ عن كارثة حصلت.

لم أجد ابني في البيت، حين اتصلت به أخبرني أنّه في المستشفى عند أبي سعيد بصحبة أصدقائه، فقد انهار الجدار فوقه، وأسعفوه مباشرة، إلّا أنّ وضعه خطير، وقد لا ينجو من الحادث.

لم أحبس الدّمع في طريقي إلى كرّاج البولمان، لم أحبس النشيج، وأنا أضغط الملف إلى صدري برفق.

أوّل شيء فعلته عند وصولي إلى البيت، صوّرت اللوحة، وضغطتها، وأنزلتها في صفحتي. الغريب أنّ أحدًا لم ينتبه إلى أنّ اللوحة استثنائية، ولم تنشر من قبل!

كنت أتوقع أن تصلني رسائل من الأصدقاء والمهتمين بفن ناجي العلي يتساءلون فيها عن مصدر اللوحة، أو يسجّلون

إعجابهم بها على الأقل. هل أقول إنّي أصبت بخيبة؟ لم يستمر إحساسي بالخيبة كثيرًا فقد انشغلتُ بمتابعة الأخبار في صفحات الأصدقاء، وأذهلني الصمت المطبق المُخيّم على المثقفين شعراء وكتّابًا! إن كان دعاة التغيير والمطالبون بالحريّة قبل الثورة بهذا الجبن والخوف، هل أتوقع ممن كانوا حياديين تجاه ما يجري في سوريا أن يتّخذوا موقفًا إيجابيًّا؟ في الواقع لم يكن الأمر بهذا السوء بالنسبة للناشطين على الأرض، فقد تعرّض الكثيرون منهم للاعتقال، ومراجعة فروع الأمن كلّما تجرؤوا على كتابة «بوست» يناصرون فيه المتظاهرين الأحرار الذين رفعوا سقف مطالبهم، ولم تعد الحريّة وحدها ما يريدون، بل صاروا يهتفون لإسقاط النظام! البعض كانوا يعبّرون عن يأسهم من انتصار الثورة، أو جدواها، لاعتقادهم أنّ حُكمًا ديكتاتوريًّا بهذا الشكل من الصعب الإطاحة به بمظاهرات سلمية، يتعرّض فيها المتظاهرون لكلّ أشكال القمع، بدءًا من إطلاق الرصاص على صدورهم العارية، وقنص رؤوسهم بوحشية، وانتهاءً باعتقالهم، وخروجهم جثثًا هامدة من التعذيب! وتجلّى ذلك اليأس عند البعض بكتابات ترى أنّ الشعب السوري يبني الأحلام على الأحلام، فتكثر خيباته وانكساراته، وأنّ عليه الالتزام بالمثل الشعبي القائل: «على قدّ بساطك مدّ رجليك»، وإلا سيكون مصيره متعلقًا بسرير «بروكست».

كأنّ سموم الإحباط تنتشر كحبوب الطلع في الهواء، وتنتقل كفيروس قاتل بمجرد القراءة! هذا ما خلّفته في نفسي تلك القراءات، فلجأتُ لحبوب منوّمة كي أذهب في رحلة بعيدة عن الواقع، أنسى فيها كلّ ما يجري، ولو لليلة واحدة.

كان يومًا داميًا، تتالت فيه التصريحات المحبطة، بالإضافة لخطاب الديكتاتور. تحدّث.. ثمّ تحدّث، ثمّ.. لا شيء.. مجرد كلام! كلام سفسطائي، أصاب الشعب بالخيبة، وزاد من عدد أنصار الثورة! كالعادة، الحكّام الأغبياء يبدؤون بارتكاب الحماقات، وينتهون باقتراف الجرائم!

على صفحته في الفيسبوك كتب نور.

«سألني صديق لي: متى ستعود الحياة عادية؟

متى ستفهم يا أخي أنّ الحياة لم تكن عادية منذ خمسين عامًا؟

ابتسم صديقي وقال بارتباك:

يا أخي.. قالوا لي: إنّها مؤامرة، علينا ألا نثق بأمريكا لأنّ وراءها إسرائيل، والعرب جميعًا يتآمرون علينا.

لأجل صديقي الذي يقتنع بنظرية المؤامرة أقول:

يا أخي السوري.. لا تثق بإسرائيل لأنّها عدوة الوطن، لا تثق بأمريكا، ولا بحلف الناتو، ولا ببندر وخدام لأنّهم أعداء الوطن..

ولا تثق بالسلفيين والإخوان المسلمين ولا بالقرضاوي، أيضًا هم أعداء الوطن. وفي رواية أخرى، لا تثق بالسني ولا العلوي ولا الدرزي ولا الشيعي.. إياك ثمّ إياك، كلّهم أعداء الوطن، ولا تثق بابن مدينتك فقد يكون مندسًّا وفي رواية أخرى «عميلًا للمعارضة غير السلمية»، ولا تثق بابن عمك فقد يكون مخرّبًا «أو يكتب تقارير بالناس». لا تثق بأخيك فقد يخون الوطن في أيّ لحظة، ولا بأبيك لأنّه معارض رفيع المستوى، وقد يظنّ الساهرون على أمن الوطن أنّك تسير على نهجه! ولا تثق بأمّك فلا شكّ أنّها من أرضعتك الأفكار الثورية المغرضة عندما كنت طفلًا فكبرت مخربًا من دون أن تدري! لكنّ الساهرين على أمن الوطن يعرفون ذلك، وسيقتلونك، ويريحون الوطن من أمثالك.

احذر من المتآمرين على الوطن، واعمل على إسعاد الساهرين على أمنه إن أردت البقاء على قيد الحياة تأكل الخبز والفلافل الطازجة، وتشرب الشاي! أنت مستهدف «هنيئًا لك».. أهميتك لا يحلم بها مواطن من دولة «سبع نجوم».. لا تخرج بتشييع جنازة إذا قتل ابن مدينتك أو أحد أقاربك أو أمّك.. لأنّهم جميعًا مخربون ومتآمرون على الوطن، وإذا حدث وفكّرت أنّهم شهداء فاقرأ في الإنجيل إذا كنت مسيحيًّا لتكفّر عن ذنبك.. وفي القرآن إن كنت مسلمًا.. لكن حاذر أن تقرأ سور «الأحزاب، الأعراف،

البلد، التحريم، التغابن، الانشـقاق، الجمعة، الكافرون، المجادلة، المنافقـون، الفتـح، البينـة» كي لا تسـيء تفسـيرها وتصبح سـلفيًّا. لا بأس أن تقرأ «التوبة، الإخلاص»، والفاتحة على أرواح الشـهداء من الساهرين على أمن الوطن!

لا تخرج بمظاهرة لأنّ أعداء الوطن سيندسون فيها ليقتلوك.

أنت الآن في القبر، وستعرض عاجلًا أم آجلًا على الله الذي خلق كلّ هؤلاء المتآمرين.. فهل ستثق بالله الذي خلقهم.. أم ستصدق روايتهم بأنّ العالم بأسـره يتآمر عليك لأنّك ممانع وشـجاع، وتقف في وجه أمريكا وإسرائيل؟

فـي الإشـعارات وجـدت إشـعارًا يقـول: أضافك «أنـا حنظلة» إلـى مجموعـة «أنا وأنـت». دخلـت المجموعة لأجدهـا خالية من الأصدقاء.. مجموعة سرية لا يوجد فيها أحد سواي وحنظلة!

غلبني اليقين أنّ حنظلة لم يكن مجرد رسم في لوحة، وأنّ هناك شـخصًا ما قد أنشأ هذه الصفحة باسـمه، وأحبّ أن يمازحني، لكن مـن يكون؟ لا بدّ أنّه شـخص أعرفه أو على الأقـل هو يعرفني جيدًا كي يشركني في صفحة سرية وخاصة ومن دون استئذان!

في صبـاح الأربعـاء وصلتني رسـالة هاتفية من نور يقـول فيها: «مامـا.. اقرئـي الفاتحة لأبي سـعيد.. طلـب مني أن أخبـرك أنّ كلّ مـا يملك مـن كتب لكِ، وأنّ لوحـة ناجي العلي لي! أشـعر بالحقد يـا أمّي، صـدري يكاد ينفجـر.. احتاج لعمـل جراحـي.. نقلناه إلى المستشـفى الإيراني. رفضوا إدخاله غرفة الإسعاف قبل أن يقبضوا مئة ألف ليرة حساب العملية. بقينا أنا وأصدقائي ندور على معارفنا وأصحاب المحلات مدّة يومين، ولـم نسـتطع أن نجمع سـوى مبلغ 30 ألفًا! لم تكفِ حتى تكاليف الدفن!».

***

الفرقاطة

أربكنـي بياض اللوحة حدّ التباس الأمر عليّ، فكدت أظنّ أنّ ما حصل لي قبل استيقاظي هذا الصباح كان مجرد حلم تبدّد مع أوّل رشفة من فنجان القهوة. لكن عندما فتحت صفحتي على الفيس بوك كانت هناك مفاجأة بانتظاري! كتب حنظلة لي: أنا في «قلب العاصي، وسأكتب لك مساءً عن رحلتي». أيقنت حينها أنّ حنظلة ترجّل من الصورة، وغادر المنزل إلى حين!

لم أنتظر حنظلة طويلًا.. في المساء نفسه كتب لي في المجموعة عن رحلته إلى قلب العاصي...

(في اللحظة التي ارتفعت فيها وتيرة القصف، خبّأ رأسه جيدًا وراء أجمة كانت هناك، وفكّر للحظات أنّ بإمكانه أن يقصد البيت الملاصق للدغل. بيتٌ منعزل، ومتفرد في طريقة بنائه.. بديع التقاسيم كأنّه يمتلك ملامح الولد الذي بقي مرميًّا في السهل بين السنابل، ومنعه خوفه واستعجاله من دفنه.. فتركه مع كلبه وحيدًا.. «هل حملت الريح الشمالية القاسية إليه ما يغطيه في هذا البرد؟».

تساءل بحرقة، وكأنّ شخصًا آخر قام بقتله!

حدّث نفسه بأنّه إن نجا من الموت، سيكون هذا اليوم الاستثنائي أسطورة يرويها لأحفاده عندما يصبح عجوزًا، يجلس كما كان يفعل جده تحت أشجار التين في الكرم العالي الملاصق لزرقة السماء، يدخن سجائره، ويغبّ زجاجة عرق التين، ويتأمل المدى الواسع للبحر. ستتناسل الحكايات من شفتيه دونما عائق، فقد كان ماهرًا منذ صغره في حفظها وروايتها، وإضفاء التشويق عليها بإكسابها أحداثًا إضافية في كلّ مرّة يعيد فيها الحكاية. سيضحك أحفاده.. ويطالبونه بتكرار ما رواه، وسيهدي كلًّا منهم رصاصات فارغة تثبت أنّه لم يتخلّ عن سلاحه أبدًا، سلاحه الذي سيتصدّر العلّية حيث وضع جدّه السيف على الجدار، ووضع والده بندقية الصيد. هو أيضًا سيحتفظ بسلاحه، وسيكون شاهدًا على كلّ بطولاته.

أشعل آخر سيجارة كانت في حوزته، داعبها بحرص.. كم من الوقت سيمضي قبل أن يستطيع الحصول على غيرها؟ اللعنة.. قبل أن يهمّ بوضعها بين شفتيه.. نزل الرصاص كرشق المطر قريبًا من مكمنه.. لم يجرؤ على رفع رأسه.. حدّق في السماء، كان الوقت عصرًا كما خمّن من وضع الشمس المختفية وراء غيوم سوداء تنبئ بعاصفة وشيكة.. لم يكن يهتم لأحوال الطقس كثيرًا، فقد تعوّد منذ صغره أن يجوب الجبال حافيًا يخوض في الطين، ويتسلّق الأشجار، ويترك جسده عاريًا أمام وابل المطر باستثناء أيام الصقيع التي كانت

أمّه تحظر عليه الخروج فيها بعدما أصيب بنزلات برد حادّة أضعفت جسده، ولم يستطع الأطباء إيجاد حل حاسم لها.. لكن بعد تطوعه في الجيش كانت تلك العادة مُعينًا له في تحمّل التدريب القاسي.. فلم يكن يهتم للنهوض ليلًا والسير تحت المطر! لم يكن العقاب الذي يرهق رفاقه يؤثر في جسده.. بل كان يقتنص تلك المتعة خفية، وهو يبتسم لمنظر رفاقه المجهدين المتذمرين.

رفاقه! أيّ مصير رمى بهم إلى هذه المدينة القاتلة؟ لماذا كان حظهم أن يسيروا عكس اتّجاه النّهر؟ كانت جدته تقول له في صغره إنّ السير عكس اتّجاه الريح شؤم.. ربّما كانت تقصد وقتها أن تجعله ينتبه إلى أنّ المسايرة مطلوبة في أمور كثيرة، عليه أن يطيع من دون مناقشة حمقاء قد تجرّه إلى مصير مجهول.. ولعلّها يومها كانت لا تريد سوى توبيخه لأنّه عاد ممزق الثياب، ورقد في فراشه لمدّة أسبوع يعاني من الحمى؛ لأنّه أصرّ على صيد يمامة كانت تختبئ في قمة سنديانة أعلى الجبل! وكان عليه أن يواجه ريحًا عنيفة، لكنّه لم يأبه لها.. فقد كانت المرّة الأولى التي يرى فيها يمامة.. وعرف فيما بعد أن صيده الثمين ذاك كان يستحق المخاطرة، لأنّ اليمام الماسي يفضّل السهول الشاسعة المخضرّة، ومناطق الغابات الأكثر جفافًا وبعدًا عن المناطق الساحلية، فهل ضلّت اليمامة طريقها في رحلة بحثها عن ماء تشربه؟ لقد قطعت عدّة كيلومترات في الاتجاه

الخطأ. كان عليها أن تطير شرقًا لا غربًا.. فهل كان حتفها يناديها، أم هي الرّيح دفعتها بعيدًا عن النّهر؟ حين احتضن رأسها بين كفيه، أذهلته الزرقة الصافية المنسابة بهدوء حتّى الصدر الرمادي، كان عنقها دافئًا.. رمقته بنظرة فريدة.. وهمدت حركتها.

رفاقه هنا مازحوه: «ألن تصطاد اليمام؟ إنّك الآن في مدنه؟» لكنّه ابتسم لتلك الذكرى. من قال إنّه بحاجة للصيد؟ لو أنّهم يعلمون ما كانت تقوله جدته حين يعود في المساء من الجبال، وقد أخذ حصته من صيد رفاقه: «شاطر يا ولد، لم يخب ظنّي فيك، أنت أمهر من فرقاطة!».

لم يكن يشعر سوى برغبتين، أن يتبول، ويحصل على علبة دخان.. تركهم هناك على السطح الذي أصبح بعيدًا، ولم يعد يعرف في أيّ جهة هو! كانوا يغنون ويرقصون احتفالًا بنصرهم، ويلتقطون الصور، ويراقبون المدى البعيد، وهو يقف على الحافة.. يراقب سكّة القطار، الجبال اللانهائية، النّهر الشاحب.. وألوان السماء المتبدّلة. قال لهم فجأة: «سأعود بعد قليل».

نبّهه أحدهم إلى أنّه سيسير مسافة طويلة حتّى يجد محلًّا لبيع الدخان. لم يرد. نزل إلى الخلاء مسرعًا، ثمّ صعد الدّرب إلى الطريق العام، وسار إلى برّاكة(*) قريبة من محطة البنزين. يذكر أنّهم

(*) البراكة: محل مصنوع من الصفيح أو الخشب (كشك).

يـوم دخلوا المدينة، مرّوا من هنا.. فرأى عند صاحبها دخانًا. لسـوء حظـه لم يجد أحدًا، كانت البرّاكة خالية، خشـبها محطّم، ولـم يترك الجنود فيها شيئًا ذا نفع!

دخل محطة البنزين، سأل الرجل العجوز الجالس في الركن عن علبـة دخان. مدّ العجـوز يده إلى جيبه بصمت، ناوله علبة فيها بضع سـجائر. حاول أن يتودّد إلى الرجل بشـكره.. قال إنّه جاء ليشتري، لا ليسـتولي على دخانه. رمقه العجوز بعين نفرت دموعها بسـرعة، وبقيـت الأخـرى جامـدة تمامًـا. أدرك أنّـه لا قِبَل له بمناقشـة رجل مقهـور ومحطّـم، ولا يريـد أن يعرف السّـبب لأنّه يـدرك بطريقة ما أنّهم السّبب! تمتم بكلمات الشكر، وخرج بسرعة..

قبل أن يقفز عن الحاجز الـذي يحيط بالطريق، ليهبط المنحدر، سـمع صـوت رصـاص كثيـف مـن أسـلحة مختلفـة، كان مُفاجِئًا، وسكت بسرعة! ابتسـم لخاطر داعبه، بأنّ رفاقه قد اشتدَّ بهم السكر، فراحوا يتسلّون بإفراغ أمشاط الرصاص في الهواء!

حين وصل السّـهل المحيط بالبناء الـذي يقيمون نقطة مراقبتهم علـى سـطحه، اشـتمّ رائحة غريبـة في الأفـق جعلته يتأهب ويسـير بحذر رافعًا سـلاحه أمامه. لمح شـبحًا يتحرّك وراء أشـجار السـرو المحيطة بالبناء. لم يمهلـه.. كانت الرصاصة جاهزة للإطلاق، فقد أدرك مباشـرة أنّ رائحـة المـوت تفوح من هناك.. من سـطح البناء،

وأنّ رفاقه الآن في عالم آخر. لم يكن بحاجة لرؤية جثثهم كي يعرف.. فقد أُخْرِس صوت الغناء والصياح الهائج، ولم يعد يصله سوى صوت الريح! هل سيضطر إلى السير عكس اتّجاهها؟ وهل في سيره الآن عكس اتّجاه النّهر فأل سيئ؟ حاول التركيز في إجابة أخرى على سؤال أهم.. هل يصعد السطح ليتأكد من موتهم؟ أم يهرب بعيدًا صوب الجبال، وينتظر إمدادات الجيش التي كان من المزمع أن تصلهم مساء هذا اليوم؟ هاتفه النقّال لم يكن يعمل.. منذ الصباح لم يكن هناك تغطية، وعامل اللاسلكي هناك على السطح!

اقترب من البناء بحذر.. تعثّر بجثة ساخنة.. إنّه هو.. الشبح الذي أطلق عليه الرصاص منذ قليل. قلبَه على وجهه بقدمه اليسرى.. لم يكن بحاجة للتأكد من ملامحه.. ثيابه.. قامته.. خوذته.. عرف مباشرة أنّه قتل عامل اللاسلكي الذي عقد الأمل عليه قبل لحظات لمعرفة ما يجري!

صعد الدرجات وضربات قلبه تكاد تفجّر أذنيه. كانوا جميعًا هناك.. كلٌّ منهم متشبث بشيء ما.. ربّما حاولوا الهرب من الموت، وربّما امتلكوا الصحو للحظات قبل أن يحطم الرصاص جماجمهم أو يهتك قلوبهم. كم الموت سهل ومريح! بماذا شعروا يا ترى قبل اللحظة الأخيرة في حياتهم؟ اقترب منهم.. لفت انتباهه وضعية «أبو الزلف».. كان منكفئًا على نفسه كما لو أنّه حاول النهوض وعاجلته

رصاصـة ثانية. الغريب أنّ الرصاصة الأولى كانت في سـاقه، وكأنّ القاتـل كان يريـد إعاقته عـن الحركة لا قتله! لكنّه لاحـظ أنّ حذاءه كان مليئًا بالدم وحوافه ما زالت تسيل!

أبو الزلف كان يحكي له منذ سـاعة وبكثير من النشـوة عن وداع أمّه له قبل مغادرته القرية.. فقد دعت كلّ أقاربها ومعارفها وسـكّان قريتها، غصّت الحاكورة(*) بالكراسي والصبايا الجميلات، أخرجت كلّ الجرار والقناني من القبو، وزّعت عرق التين بسـخاء قلّ نظيره، كانـت تقول بفخـر: «اليوم عرس أبـو الزلف، اليوم سـيذهب لقتال الإرهابييـن، سيسـحقهم جميعًا، سـيعود منتصرًا، لـن أنتظر عودته لأرقـص. الآن.. هيا يا صبايا». نصبت الصبايـا الدبكة، وعلا الغناء فـي السّـاحة الملاصقـة، وفعل العـرق برأسـها ما فعله يـوم ذهبت خطيفة مع أبيه!

أوّل مـرّة يرى أمّه بهذه الخفة والفرح يقفز من عينيها، وهي تكاد تطيـر. توجس قليلًا من فرحهـا، وانقبض قلبه للحظـات، لكنّه كان على ثقة أنّ سـيدة الحكمـة التي علّمته منذ نعومة أظفـاره أنّ الحياة تؤخـذ بالقوة، وأنّ عليـه أن ينتزع الرزق من فم السـبع، وأن يمتلك قلبًـا ميتًـا، وألّا يتـرك لعواطفه المجـال لتحريكه قيـد أنملة.. كانت تدقّ رأسـه بقبضة يدها قائلة: «احسـبها بعقلك قبل أن تتصرّف، إن

(*) الحاكورة: مزرعة صغيرة ملحقة بالمنزل.

وجدتها مربحة فلا تتردد». تعلّم منها أن يحذر أقرب الناس إليه، وأن يخشى لسعة الأقارب لأنّها أشدّ من لسعة العقرب! كان ينظر إليها باحترام مصحوب بالفخر والخوف أحيانًا. لم تكن أمّه «داية» القرية فقط، بل حكيمتهم وطبيبتهم. فقد ورثت معرفة التداوي بالأعشاب عن جدها، ومارست عملها قبل أن تتجرّأ على توليد أوّل طفل في العائلة كانت ولادته متعسرة.. وطار صيتها لتصبح قابلة القرية والقرى المجاورة. أبو الزلف كان وحيدها.. فقد ذهب والده إلى حرب تشرين ولم يعد! كانت تعلّق صورته الكبيرة في صدر البيت، وتحيطها بشريط أخضر، متفائلة أنّ «أبو الزلف» سيأخذ يومًا بثأر أبيه، ويقتل قاتله. كانت تهمس في أذنه عندما يأويان للفراش: «ستكبر، وتدخل الجيش، عدني بأن تثأر لأبيك». ولا تتركه حتّى يؤكد لها أنّه سيفعل، حينها تتنهّد بارتياح، وتخلد لنوم عميق. تستيقظ في الصباح لتعتني بنباتاتها وزهورها التي تأخذ مساحة واسعة من الفسحة أمام البيت والحاكورة، وحين يعود من مدرسته ويرى الطعام الساخن فيهجم عليه ليسكت جوعه.. كانت تضربه على يده قائلة: «أقسم قبل الأكل ألا تنسى». فيقسم على مضض، ويلتهم طعامه باستياء.

كانت حريصة على زهورها بمقدار حرصها عليه وعلى ذكرى البطولات التي قام بها والده في الحرب. في كلّ مرّة تحكي قصة استشهاده تضيف إليها شيئًا جديدًا، حتّى ظنّ أنّ أباه كان قائد الحرب

بـلا منـازع، وأنّه هو الذي غرس العلم على قمة جبل الشـيخ، وصدَّ الدبابات الإسـرائيلية بصـدره العاري بعد نفـاد ذخيرته، ومنعها من دخول دمشق. دمشق! كانت المدينة الأسطورة التي تزيّن أمّه سيرتها بالقرنفل الحاد الرائحة، وتنثر الجوري والياسمين فوقها تاجًا لتغدو أميـرة. كانـت تصوّرها علـى أنّها امرأة فاتنة شـديدة الإغـراء، وأنّها لا تليق برجل غيره بعد أبيه!

فجأة وقعت عيناه عليها وهي تركع أمامه وسـط الراقصين الذين التفوا في حلقة حوله. انثنت، ومدّت يديها لتخلع بوطه العسكري.. وبكلّ هدوء نهضت، وسارت صوب أحواض الورد، انتزعت ورود الجـوري، ووضعتها في الحذاء، فأصبح مزهرية فاتنة. وضعته على رأسـها ببطء.. ونهضت وهي تسنده بيد، وتحرّك الأخرى على نغم بطـيء يتصاعـد من مسـجل فـي السـاحة! ضربـت الأرض بقدمها برفق، ورفعت رأسـها صوب الزرقة، وسارت بخطوات خفيفة على إيقـاع الدبكـة.. ثمّ دارت نصـف دورة.. فدورة كاملة.. وتوسـطت الراقصيـن، وبدأت تدور بحـركات كان يراها في صغره أيام الأعياد على شاشـة التلفزيون، أقرب إلى رقص «المولوية». الصبايا توقفن عـن الدبكة، وأحطن بهـا، وهنّ يصفقن بإيقـاع خافت وبطيء. علا الإيقاع مع اتّسـاع رقعة الدوران، واشـتداد حركة الجسد. هل كانت تسـتعيد جـزءًا من رقص طفولتهـا؟ أم أنّ الحلم طـار بها إلى درجة مـن الوجـد لم تنتبه خلالهـا أنّ أصابعهـا كانت تقطر دمًا من شـوك

الجوري الذي انتزعته من دون مقص! تشنّج جسدها فجأة، ولم تعد تدور بتلك الخفة التي يبعثها الحلم.. صارت تخبط بقدميها بقوة، تقلّصت شفتاها.. لم يعرف إن كان ذلك التعبير الذي ظهر على وجهها هو تعبير عن الألم أو شيء آخر، فقد كان وجهها يغيب عن ناظريه بسبب دورانها السريع، وأجساد الصبايا اللواتي صرن أقرب إليها، وهنّ يضيّقن الحلقة تدريجيًّا وأكفهنّ تمتدّ لتلامس الحذاء الذي رفعته بيد واحدة، وراحت الورود تتطاير منه، وتسقط تحت الأقدام. اهتاجت الصبايا، وتصايحن، ورحن يقلّدنها في الحركة، والورود تتساقط، والأقدام تدوسها، واللون الأحمر للورد المعجون بالأقدام الممتزج بالتراب الندي.. صار بحرًا من دم! عرك عينيه جيدًا.. كانت أمّه في تلك اللحظة قد فقدت توازنها.. وسقطت أرضًا.

ركض إليها، لكنّ الصبايا دفعنه، وحملنها إلى الداخل. مدّ يده إلى فردة حذائه.. كانت قطرات الدم التي سالت من أصابعها تصبغ الحذاء الذي التصقت به أوراق الورد القانية.. مسحه بسخط، وهمس لنفسه: «يا لها من امرأة مجنونة!». لكنّه اليوم وفي غمرة سكره وهو يسمع الأغنية التي رقصت على أنغامها أمّه.. كان يقول: «يا لها من امرأة حكيمة وعظيمة! النصر قادم.. نعم قادم.. ما أجمله من منظر يا خضر! ما أجمله من منظر!».

لمـاذا ابتعـد في ذلـك الوقت؟ مـا الحكمة مـن وجـوده وحيدًا بيـن إحدى عشـرة جثة واحـدة منها انتهت على يديـه؟ قبل أن يفكّر بالهـرب، فتّش جيوبهم جميعًا بحثًا عن ذكرى يحملها معه.. فوجئ أنّ أيًّا منهم لم يكن يحمل في جيبه شـيئًا! إذن من قتلهم كان يمتلك الوقت الكافي لسرقة كلّ شيء. بطاقاتهم وهواتفهم وأسلحتهم!

إنّ العدو لا يلاحق المحارب، بل سلاحه، لأنّه السبب والوسيلة التـي جعلتـه محاربًا.. من دونه سـيكون أعزلَ وحيـدًا، يقف برعب على حافة سـطح، ينتظـر أن تقنصه رصاصة عـدو يتربص في مكان غامـض، أو ربّما تكـون رصاصة أحد رفاقـه المتمركزين في أماكن أخرى!

انسـحب إلى الركن، خفض رأسه أسفل السور.. داخله اطمئنان مخـادع، شـعر معه أنّه أصبح بعيـدًا عن عيون القنّاصـة، وعن عيون أفـراد العصابـة... لم يدرِ للحظات وهو في غبطتـه الكبيرة بأمانه أنّ الرصاص يملك حساسـية تجاه الأماكن الآمنة، فينجذب إليها، كما تنجـذب طيور اليمام في فصلـي الخريف والربيع إلـى هذه الجبال الموحشة بخضرتها العميقة، وسط ربيع مختلف!

كان يظن نفسـه طيرًا عصيًّا على القنص بما يحمله من ثقة ويقين بأنّ تمائم جدته تشكّل حول جسده درعًا يحميه من الرصاص، وأنّ عينـي أمّـه اللتين كانتـا دائمًا ترمقانـه بريبة، فتكشـفان كذبه، وحيله

الصغيـرة.. قادرتـان على تقصي الدروب التي يسـير فيها، وتحذيره مـن كلّ خطـر يترصـده أثناء سـيره. كان مؤمنًـا أنّ قلـب أمّه بوصلة وعينيها رسولان من الله، فيهما خلاصة الحكمة والدهاء.

ليس صحيحًا أنّ المقاتل يمكنه أن يتخلّى عن سلاحه ويفرّ! أدرك لحظتها أنّ غواية القتل تمكّنت من جسده حتّى أولم ذلك الجسد لمحرقةٍ كلّما رموا إليها بأجسادٍ ناضجة قالت: «إليّ بالمزيد».

الفتنة القاتلة للمحارب تكمن في الشـعائر المقدسة، في التفاني والإخلاص لقدسـية العقيدة التـي تربّى عليها مـذ كان طفلًا وحتى اللحظة التي جاءه فيها الأمر بالقتال. طقوسه المقدسة تلك لا يمكن أن يمسّـها حتّـى بمجرد التفكير فـي ماهيتها.. فكيف بنقاشـها؟ هو مكرّس للقتال دفاعًا عن هيبة الرئيس ووجوده، مربوط بعشـق خفي لسـلاحه، لا يمكنه التخلّي عنه، لأنّ شجاعته كامنة فيه.. فهل يرمي سـلاحه ويفـرُّ عبر الجبـال إلى لا مـكان هاربًا من نفسـه التي بدأت تتسـاءل عـن أسـباب كلّ هـذا القتـل؟! لكنّهـم سيسـمونه بالجبن والخيانة! لا لن يتخلّى عن سـلاحه، سـيكون شـجاعًا حتّى يلقى حتفه!

فكـرة أخـرى باتت تزاحم يقينـه بحتمية الموت مـن أجل هدف سـامٍ.. المحافظة على حياة الرئيـس ليحكم عقودًا أخرى؛ من أجل أن ينعم بلده بالازدهار. توقـف قليلًا عن أفكاره تلك، وسـأل نفسـه

للمـرّة الأولـى: لماذا الموت؟ ألا يسـتحق الحيـاة لأجله هو وليس لأجل شخص آخر؟

عنّـف نفسـه لجرأتها فـي تناول الفكـرة.. شـتمها، وكال لها من الألفاظ النابية ما أشـبع رغبته في الإسـاءة إلى ذاته كي يسـتغفر عن ذنب لا يُغتفـر.. ثم عاد لإقناعها بأنّ التعلّق بالموت، هو أيضًا تعلّق بالحياة! فكيف بموت لأجل أعلى رمز من رموز الوطن؟

وصل أسـفل البنـاء.. اضطرّ للزحف مسـافة طويلة، رفع رأسـه لتأمل السـهل، جلس بين أعواد الذرة محاولًا استكشـاف المكان.. أشعل سيجارة.. دخّنها بنهم.. أطفأ عقبها بحذائه العسكري.. عيناه اللتـان تشـبهان عيني أمّـه بحـدّة ملاحظتهما، لمحتا حركـة مريبة.. خفيفـة.. سـرّبتها الرّيح مع رائحة لطيفـة بين أعواد الـذرة الغضة.. لـم تكن الحركة توحي بالعنف، مما أكد له أنّها تخص جسـدًا رقيقًا وصغيـرًا قد يكون لفتاة أو صبي.. تهيّج شـيء داخلـه، دفعه لتصور فكرة أن يكافئ نفسـه بحصوله على ما يشبع جوعه طيلة شهرين من الحصار للمدينة، لم يشـاهد خلالهمـا وجهًا رطبًا ناعمًا ولا مؤخرة مغرية!

تخلّـى عن حـذره، ونهض ليسـتطلع مـا حوله. كانت السـهول الخضـراء ممتدة إلى ما لا نهاية، تكتسـحها فـي أماكن عديدة زهور الأقحوان وشـقائق النعمان، فتبدو كلوحة جهنمية، موحشة بقدر ما

هي رائعة! أضحكه الخاطر العابر بأنّ للّوحة وجهين، عليه أن يقطف من أحدهما اللـذة، ويحترق بالآخر! لم يهتم لذلك الخاطر، فكثيرًا ما تسـتوقفه عبـارات تداهم ذهنه كإشـراقة صبح، ثـمّ ينطفئ لهبها، ويخلّف وراءه سـكونًا عميقًا، يجعله في وضع آمن من تلك الهبّات المزعجـة، التي اعتاد على تسـميتها بالإشـارات السـماوية! وعلى الرغـم من عدم توقفه عندها، إلّا أنّها كانـت تلاحقه كنبوءة، تتحقّق دائمًا بأقصى سرعة، وتتركه مذهولًا يفكّر في إمكانية أن يعمل عرّافًا في المستقبل بعد أن يكبر، ويترك الخدمة في الجيش.. وقتها سيبني عرزالا(*) في قمة الجبل، وسيتوحد مع أفكاره هناك، وسيستقبل من يقصـدون استشـارته. كيف بدأ الخضـر رحلته؟ هكـذا.. كما بدأها هـو، أمور تلمع في ذهنه فجأة فينكشـف الغيـب أمامه.. ضحك في سـره قائلًا: «لهذا سموك الخضر يا عبد السلام؟ اللعنة على جدتك كم كانت امرأة ذات حنكة ودهاء!».

تقدّم بسـرعة مفسـحًا الطريق بذراعيه، ومحطّمًـا بعض الأكواز الخضـراء. كانـت الرائحـة تجذبه بعنـف.. انبعثت أولًا من جسـده أبخرة رغبة، أوقدت جسده، فأزاح من طريقه كلّ ما يعيقه بقوة.. ثمّ توقـف، وأنصت لصوت أقدام مذعورة، بدأت تبتعد بسـرعة وسـط الحقـول الفسـيحة. أنصت بكلّ حواسـه.. مدّ يديـه، تلمّس الفضاء حولـه.. الندى المباغـت أنبأه أنّ المطر قريب.. عليه الإسـراع وإلا

(*) بيتًا خشبيًّا يصنع على الشجر.

سيفقد أثر طريدته حين يُخرس المطر أصوات الكون، فلا يبقي له منفذًا يتشمم منه طريدته، أو يحسّ بخطواتها.. عليه أن يعرف أولًا نوع الطريدة! لقد امتزجت برائحة أخرى.. رائحة أغنام، روث.. لكن بقيت رائحة الخزامى أقوى!

من أين تأتي رائحة الخزامى والسهل مليء بالأقحوان والدحنون؟ أغمض عينيه على الذكرى البعيدة.. هل تستحضر مخيلته رائحتها؟ لم يقصد في ذلك الحين أن يقتلها.. لم يقصد إيذاءها أبدًا، هي من تراجعت حتّى الحافة، وسقطت على صخرة صماء، مخلّفة وراءها بقعة من دمائها اللزجة، لم تزل تلاحقه في منامه، ولم يزل على الرغم من اغتساله الدائم، واستخدامه لكلّ أنواع المطهرات، يشمّ في هذا الوقت رائحةَ الخزامى تتبخر من جلده! اللعنة عليها.. لقد أتاحت الفرصة لأخيها كي يهرب منه، وضحّت بنفسها! تركته يحمل عقدة الذنب طيلة حياته.. ذنب موتها الذي لم يكن سببًا فيه.. هي التي هدّدته، هي التي امتلكت الجرأة على الوقوف فوق الحافة ليترك أخاها قبل أن يبلغ لذّته.. لقد فاجأته وهو يهصره بين يديه، ويعريه، صرخت فزعة.. لكنّ صراخها لم يصل أذنيه في الوقت المناسب، كان مهتاجًا وسَمْعُه محصور في لهاثه. صمت الكون نهائيًا ولم يعد يسمع شيئًا، حتّى فاجأه حجرٌ اقتحم كتفه بعنف، التفت فرآها تقف على حافة الجرف. ارتخى كلّ ما فيه فجأة.. شعر بألم في ساقيه، لم يكن سهلًا نهوضه، ولم يستطع إخراج صوته من حلقه اليابس

بسهولة. سيطرت عليه بجمال أخّاذ.. كانت أجمل من أخيها، لكنّه لـم يكن يحبّ النسـاء قـط، خاصة الفتيـات العجفـاوات الغبيات، اللواتي ينصبن شراكهن كي يوقعنه بالحبّ، ويبتززن عواطفه وجيبه. صوّبـت إلى قلبه نظرة اخترقتـه بعنف.. عندما وصـل إليها محاولًا منعها من الوقوع لم تسعفه يده بأكثر من لمسة لمعصمها، تركت أثر خزامى، كان يشمّه طويلًا وهو يحتلم فوق جسدها الهامد. تمنى لو أنّه رأى ذلك الجسد لمرّة واحدة وهو يتحرّك تحته.. لكن هيهات.. كان دائمًـا يقلّبـه ليرى وجهًا أزرق.. وعينين مهشـمتين، وبقعة دماء تفوح منها الخزامى.. فينهض من نومه مغسولًا بعاره!

كَمَـن بيـن أعـواد الـذرة منتظرًا هـدوء الريح. لم يشـأ أن يسـير عكسـها فيكـون ذلك فـألًا سـيئًا! الولد توقـف عن الركـض أيضًـا! أدرك مـن همهمـاتٍ حملتها الريح أنّ بصحبته كلبًـا، وأنّهما يبحثان عن خـروف تائه.. لـم تخطئ تقديراتـه يومًا.. كان يمتلك حاسـتي شـم وسـمع اسـتثنائيتين، تمكّنانه من تحديد الروائح، وسماع أدق الأصوات وأخفضها.. حصل ذلك بعد انحسار بصره إثر نوبة حمى اجتاحت جسـده وهو في العاشرة. منذ ذلك الحين درّب نفسه على تحديد مكان طريدته من صوتها ورائحتها، ولـم يعتمد على نظره في التصويب بالمقلاع، ولا حتّى ببندقية الصيد، وعندما أراد الانتساب للجيش لم يجد صعوبة في التماس واسطة من أبناء بلده في العاصمة ليحصل على تقريرٍ طبيٍّ بأنّه سـليم الحواس! وهذا شـيء لم يعتقد

يومًا أنّه يكذب فيه، لأنّه اعتمد على تكامل حواسه في التعامل مع الأشياء، فلم يكن أحد لينتبه أنّه يعاني نقصًا، مع أنّه كان يستخدم عدسات لاصقة! يخفيها في مكان آمن لا تصل تحريات رفاقه إليه.

سار بخفة حين حدّد الهدف جيدًا، محاذرًا أن يُصدر صوتًا يلفت انتباه الولد المختبئ في حقل السنابل الملاصق لحقل الذرة. لاحظ أنّ المكان الذي وصل إليه كان عاليًا، ارتقاه بسهولة وبأعصاب مشدودة وحواس تركز على الهدف. امتدت السهول المزروعة أمامه إلى ما لا نهاية.. كانت ترتطم بالأفق المحتقن بغيوم سوداء منخفضة، تكاد تلامس أطراف السهل المنفتح عند زاويته في الجنوب، والمتصل بجبال رمادية في قسمه الشمالي الشرقي.

أدرك أنّه ابتعد مسافة طويلة عن الجهة التي تمركز فيها رفاقه صباح هذا اليوم المشؤوم، وأنّه في سبيل رغبة تحفر في أحشائه ربّما سيفقد طريق العودة أيضًا! لم يهتم كثيرًا، تابع سيره وهو على ثقة أنّ المكان خالٍ من الناس. لم يعد مضطرًّا لخفض قامته بين المزروعات، ولم يعد يأبه للريح التي تنحني السنابل أمامها، فتلطم كفيه وساقيه في حركتها العنيفة. أخيرًا تمكّنت عيناه من رؤية الهدف! كان يسير ببطء وحذر، يتلفّت حوله كلّما سار عدّة خطوات. هل أضاع الطريق أيضًا؟ أم ما زال يبحث عن حيوان هرب منه؟ لم يجد الكلب برفقته! داخلته بهجة عارمة، جعلت ساقيه ترتعشان، وخطواته تتباطأ..

لـم يثنـه العتاد الثقيل عـن الحركة، فمنذ كان صغيـرًا عرفت عنه الجبـال خفته في تسـلّقها، والركـض في دروبها الوعـرة، مهما كان الحمـل الذي علـى ظهـره ثقيلًا.. صحيح أنّ الـدرع الواقي يضغط على صدره أحيانًا فيشـعره بالضيق، لكنّه لا يكبّل حركته كما فعلت رغبته الآن.. شـعر بقيدها يضغط أسفل بطنه، ويطوي ساقيه برعشة عنيفـة. في تلك اللحظة التفـت الفتى ليصبح في مواجهته. لا يدري مـا الذي جعله يصرخ فزعًا، ويطلق سـاقيه للريـح! لكنّه احتفظ بما التقطتـه حواسـه من نعومـة مفترضة لذلـك الوجه النورانـي ببياضه وشقرة شعره، والتفاف ردفيه! استطاع أن يرى ساقي غزال ملفوفتين تبـرز عضلاتهما أثناء الركض فتثير فيه شـهوة جامحـة للصيد، لكنّ حركته قُيّدت باحتقان مؤلم بين سـاقيه! توقـف تفكيره تمامًا.. رفع سـلاحه بهدوء.. وقبل أن يمرّ في ذهنه أيّ خاطر أو فكرة، وبمنتهى الدقـة، انطلقت الرصاصة لتسـتقرّ في رأس الفتـى المفزوع، وترديه صريعًا بين سنابل القمح.

تقدّم بسـرعة.. كان الجسد الفَتِيّ قد همد نهائيًّا حين وصل إليه. ارتمى فوقه قبل أن ينتهي من خلع بنطاله..مزّق ملابس الفتى بحربة سـلاحه.. خطّ في ظهره قناة عميقة، كادت تخترق عظامه.. لم يكن يرى شـيئًا سـوى مؤخرة الفتى الممتلئـة بلونها الأبيض الشـاحب، وسـاقيه المبللتيـن ببقايا بول، مـن الواضـح أنّه فعلها مـن الفزع قبل

أن تستقرّ الرصاصة في رأسه! تحسّس الجسد الدّافئ وهو يحترق بنار أحشائه.. لم يطل به الأمر.. انتهى خلال دقيقة، ولعن الزمن والعطش اللذين أفقداه مقدرته على اقتناص لذّته لمدّة أطول!

لم يكد يرفع سرواله، حتّى شعر بلهاث الكلب الذي انقض عليه فجأة. كان كلبًا أسود مخيفًا، عيناه تلمعان كأنّهما جمرتان. لم يكن أمامه خيار آخر، أطلق ساقيه للريح، ووجد نفسه فجأة مكان الصبي.. ليس الرصاص من يترصده، بل أنياب كلب هائج، خشي أن يصيبه بداء الكلب.. لمروره بتجربة مُرّة في صغره لم ينسَ آثارها بعد. لكن.. فجأة توقف الكلب عن اللحاق به، وعاد أدراجه حيث الفتى! نظر خلفه، كان الكلب يتشمم صاحبه، وينبح بصوت كئيب أقرب إلى النحيب! لم يرَ كلبًا قبل الآن يندب أو يبكي صاحبه، وإن عرف أنّ الكلاب أوفى الكائنات وأشدّها التصاقًا بأصحابها. أدرك تلك العلاقة الاستثنائية الخاصة بين الكلب وصاحبه.. ووعى أنّه لم يعد بإمكانه العودة إلى مكان جريمته لالتقاط سلاحه الذي فقده!

كيف تخلّى عن سلاحه؟ لم يعِ حتّى اللحظة أنّ الشهوة ستقوده إلى حتفه.. هاهو أعزل من السلاح، محتشد بالخوف وسط حقول لا تنتهي، ومطر بدأ ينهمر بغزارة غسل وجه السنابل، وفار طين الأرض حتّى كاد أن يبتلع حذاءه الثقيل. لكنّها لم تُبطئ قوة الريح، التي استخدمت حبّات المطر كسوط راح يجلد وجهه بقوة. وقتها انتبه إلى أنّه من دون خوذة أيضًا! ما الذي فعله بنفسه؟

لجأ إلى أجمة كانت قريبة من دغل، تصوّر أنّ أشجاره العالية الكثيفة ستحميه من المطر لو استطاع الوصول إليه في الوقت المناسب؛ لكنّ الرصاص الذي انهمر قربه فجأة نسف كلّ مخططاته لإيجاد ملجأ آمن!

بدا له أنّ ما يراه لا نهائي وقدري بطريقة غريبة، وأنّ عليه أن يستسلم لمصيره، مهما كان ذلك المصير قاتمًا ومأساويًّا. مع هذا حاول للحظات أن يزرع الأمل في قلبه، محدّثًا نفسه أنّ كلّ شيء سيكون آمنًا، واعتياديًّا فالبلد بخير!

لم تتعدَّ وسائل اتّصاله مع قدره الأشياء المحسوسة دائمًا، لكنّه اكتشف في هذه اللحظة أنّ كلّ مواجهاته السابقة كانت لعب أطفال لا أكثر، وأنّ الموقف الحقيقي هو ما يعيشه الآن، وعليه في هذه اللحظة أن يعرف معنى كلّ ما يجري، فهل تسعفه مقدرته التنبئية على استكشاف خطوته القادمة؟ كان ذهنه فارغًا من أيّ شيء.. حاول أن يحصره في فكرة ما.. سيطرت على مخيلته تلك البقعة الحمراء اللزجة التي رآها يومًا حول رأس «فتنة» وما زال يحسّ بسخونتها.. لم يفارقه منظر رأس الفتى المتكئ على ذراعه وكأنّه يغط في نوم عميق، لا يشوهه سوى تلك البقعة الحمراء التي لبّدت شعره عند الجبين وصبغته بلون الحناء!

استلقى على ظهره.. غاص في الطين البارد، اقشعرّ جلده، وفاجأه منظر المؤخرة المستديرة للفتى عارية.. بيضاء شاحبة! أحسّ كما لو أنّ نصل سكين اخترق فخذيه.. تشهّى أن يمتلكها مرّة ثانية.. بلا زمن يوقف اندفاعه وتوتره، وفي فضاء لا يضيق برغباته. تساءل بحرقة، لماذا عليه أن يدفع الثمن غاليًا والعالم من حوله لا يمنحه سوى الفتات؟ تنبّه لأوّل مرّة إلى أنّه بدأ يفكّر كمارق كافر تمرّد على عقيدته وإيمانه. هل يعقل أن يكون هو؟ وكيف سيواجه عقوبته حين يعرفون أنّه لم يعد يرى ما جاء من أجله مقدّسًا؟ وأنّه لم يعد يشعر بجدوى السجود لتلك الفكرة الغائمة التي لقّنوه ضرورة أن يؤمن بها من دون نقاش! فالجندي لا يحقُّ له أن يناقش، عليه أن ينفذ الأوامر العليا فقط.. هم يفكّرون، هم يعرفون مصلحة الوطن، هم يخطّطون، وعليه أن يمتلك الإيمان بعدالة ما يفعله فقط.. ويمضي لملاقاة حتفه راضيًا!

لكنّه يتشهّى الآن مؤخرة الصبي في عرزال يتصل بالسماء.. لا يمنعه عنه واجب ولا فكرة ولا إيمان. وجد نفسه يبصق بعنف «اللعنة على كلّ المقدسات». إذا كان للمقدسات وجود فلتدافع عن نفسها، ليس مضطرًّا لحماية أحد بعد الآن، ونهايته سيحسمها الرصاص المتناثر هنا وهناك عبر الفضاء الرحب.

مرّة أخرى تحامل على نفسه، ونهض. ما الذي يمكن أن يحدث له إن بقي هنا تحت رحمة المطر والطين والرصاص الطائش؟

قـرّر أن يتابع طريقـه إلى البيت المنعزل في الأعلـى علّه يجد مأوى وطعامًـا! حتّى ذلـك الوقت لم يكن قد فطن إلى أنّه لم يتناول شـيئًا هـذا اليـوم.. وتذكّر أمرًا غاب عن ذهنه.. رفاقه هناك فوق السـطح، كانوا خمسـة عشر.. أين البقية؟ أحدهم تطوّع بالذهاب إلى المدينة ليأتي بوجبة فول سـاخن.. أحدهم كان يراقب الطريق العام بانتظار سـيارة ستحمل إليهم الطعام.. القتلى على السطح كانوا أحد عشر! أيعقل أن.. هزّ رأسه بعنف.. مسح وجهه بيديه، ومدّهما ثانية للمطر «يا إله السـماء، هناك أحياء.. أهم من قاموا بهذا؟ أم قتلوا في مكان آخر؟».

شـعر بوخزة أسـفل بطنه.. لم يعِ مباشـرة ما حـدث.. فقط وجد نفسـه يتلـوى، ويقع أرضًا.. وجهه اسـتقبل الأرض، وركبتاه غاصتا في الطين، ثمّ استلقى بكامل جسده كأنّه ذاهب للنوم!

حيـن فتـح عينيـه بعـد زمـن لم يسـتطع تحديـده، وصل سـمعه أصـواتٌ غريبة متداخلة.. ريحٌ تهزُّ الأشـجار بعنف، بشـرٌ يتحدثون همسًـا.. ومدافـعُ تقصف في البعيـد. يكاد يحدّد أنواعهـا! لـم يفهم بالضبط أين هو، وماذا حدث، لكنّه شعر بالدّفء، وأيقن أنّه ينام في فراش مريح، ويسـمع صوت تلفزيون خافتًا.. وتصله رائحة خزامى خفيفة!

هـل ما مـرّ كان حلمًا؟ أكان نائمًـا طيلة ذلك الوقـت، ورأى في منامه أنّه كان... وأنّه قتـل؟

لم تكتمل فكرته، فقد سمع صوتًا يقول: «لقد أفاق». كان صوتًا نسائيًا ناعمًا موحيًا بعطر خزامى قاتل! لم يكن عطرًا خفيفًا، بل كأنّه مرج من الخزامى! فتح عينيه ببطء.. كانت باقة بنفسجية اللون قد مالت إلى الذبول تتكئ على حافة إناء خزفي موضوع في النافذة. الستارة تتحرّك ببطء على الرغم من أنّ الشبّاك مغلق بإحكام! من أين يتسرّب الهواء؟ وهذه الرّيح المجنونة في الخارج، أهي التي حملت إليه عبير الحقول البعيدة، أم أنّ امرأة في الداخل وضعت تلك الباقة عند النافذة؟

أطلّ وجه الفتاة فجأة من الباب الموارب.. ابتسمت ابتسامة إلهية، وقالت بصوت لا يكاد يسمع: «الحمد لله على سلامتك، لقد وجدناك قريبًا من البيت بين الموت والحياة». خرجت مسرعة، وخلّفت وراءها عبير حقل من الخزامى. إذن هي.. لم يعد لديه شكّ الآن.. لكن ما لفت انتباهه أنّ للفتاة ملامح مألوفة لديه، ليس لأنّها جميلة، وتملك ابتسامة ساحرة.. ليس لأنّ عينيها باتّساع سهول القمح وخضرتها.. بل هناك شيء آخر، وخزه في القلب.. شيء لا يستطيع تحديده.. لكنّه استنفر حواسه كلّها.

قبل أن يصل إلى إجابة تطمئنه، فُتح الباب، ودخل رجل متوسط القامة يرتدي ملابس خفيفة على الرغم من الجوّ البارد، ويلف عنقه بكوفية فلسطينية. قدّم نفسه على أنّه الطبيب الذي استخرج

الشظايا من جسده. شظايا؟! فتح فمه دهشة، ووعى وسط ذهوله أنّه لم يستطع تحريك حوضه حين حاول أن يعتدل في الفراش. نبّهه الطبيب: «ليس الآن، تحتاج إلى وقت طويل، حاول أن ترتاح».

لم يدرِ كم من الساعات أو الأيام مرّت وهو يعاني من الحمى؟ كان يمتلك نزعة فطرية للحركة والانطلاق دائمًا في الجبال والغابات، لا يحتاج للنوم سوى ساعات قليلة، قد لا تُشبع مَنْ هم في عمره، لكنّ جسده كان يكتفي بها، وكأنّه مربوط بمنبه، يجعله يقفز من السرير خارجًا خلال لحظات وبشكل كلي من حالة النوم من دون أن يتذكّر منامًا رآه، أو حلمًا، أو يتوقف عند طيف، بل نوم عميق لا قرار له، ينهض منه بصحو مفاجئ، لا يحتاج معه لغسل وجهه بالماء أو فنجان قهوة، أو حتّى النظر في الساعة! لا يذكر أنّ ارتداء ملابسه كان يأخذ منه وقتًا أكثر من دقيقتين، يكون بعدها قد أصبح خارج المنزل. لا يعنيه أن يتناول فطورًا، أو يلقي تحيّة الصباح على أحد، فقد كانت الجبال تجذبه بقوة تميمة عجيبة، لم يعرف يومًا أيّ شيطان علّقها في عنقه خفية، فوُشمت على جسده، ولم يعد يستطيع منها فكاكًا. شعر بقيد يحزُّ يديه، وسلاسل تثقل قدميه، وصخرة رُبطت إلى عنقه.. وهو يغوص عميقًا في ماء النّهر! لم تكن مياه النّهر عميقة كما رآها في زمن ما، لا يعرف متى.. مع هذا كان يغوص، ويغوص، ولا يصل القاع! كلّ ما يراه مياهًا تفيض فوق مياه، وتفور كبركان ساخن حاملة معها رمادًا كثيفًا يمنعه من رؤية الفقاعات التي تخلّفها أنفاسه، وهو ينحدر إلى الأعماق!

يصحو فجأة من هذيانه ليجد نفسه مربوطًا إلى السرير من أسفله، وقد قُيّدت قدماه، وربطتا إلى حجر كبير أسفل السرير! فسّر الطبيب ذلك بأنّ عظام الحوض قد تهتكت وأنّه كثير الحركة أثناء النوم، لهذا اضطر إلى حقنه بمسكنات ومنوّم، وربط ساقيه كي يبقى الجبس ثابتًا! أيّ عذاب سيذوق ريثما ينتهي هذا الوضع؟ شحب لونه والطبيب يؤكد أنّ الزمن سيطول، وأنّه ليس من السهل أن يشفى بسهولة، وأضاف: «نجوتَ من الموت بأعجوبة، عليك أن تشكر يمامة، كانت السبب في نجاتك». يمامة! وخزه شيء في جنبه.. لم يدرِ ما هو بالضبط، لكنّه مرتبط بسقوط فتنة، وموتها بتلك الطريقة التراجيدية المقيتة. شعر بأنّ هناك عينين ترصدان حركته من وراء النافذة. أدار رأسه بصعوبة، لم يرَ أحدًا! شعر أنّ النظرات تلسع عنقه مرّة أخرى من صوب الباب، استدار بسرعة.. واجهه الفراغ! كان الباب مواربًا تهزه الريح المتسلّلة عبر الممر الطويل الذي لا يعرف إلى أين يؤدي، لكنّه تصوّر أنّه موزع تستقرُّ الغرف على جانبيه، وينفتح على صالة، بابها الشمالي يفضي إلى الحديقة.. هكذا ارتسم الشكل في ذهنه مذ رأى البيت من الخارج وهو في طريقه إليه وسط العاصفة المطرية منذ... منذ متى؟

حاول أن يستحضر لحظاته الأخيرة قبل أن يخترق الرصاص حوضه، ويقع مغشيًّا عليه. تذكّر أنّه كان على بعد أمتار فقط من البيت، وأنّه لم يغب عن الوعي تمامًا حين التف حوله عددٌ من

الرجال، وحملوه! بعدها لا يذكر ماذا حدث. كيف عثرت عليه يمامة وهو لا يذكر أنّه رأى وجهها قبل أن تطل من باب الغرفة لتقول له: «حمدًا لله على سلامتك»؟ أيقن أنّه دخل غيبوبة لم تمكّنه من معرفة الحقيقة كاملة إلّا كما رواها له الطبيب. تساءل في سره: «أين سكّان البيت؟». لم يرَ أحدًا منهم. طبيب ويمامة.. لا صوت أطفال، لا رائحة نساء، ولا أب يصرخ في الصباحات طالبًا إعداد الفطور أو اللحاق به إلى العمل.. تمنى أن يجد إجابة شافية، لكنّ حذره تغلّب عليه، فاحتفظ بشكوكه وتساؤلاته، وقرّر أن يطلب منهم نقله إلى مستشفى المدينة، كي يستطيع العودة إلى أهله. الطبيب رفض بحزم: «لن نستطيع نقلك إلى المستشفى، الوضع غير آمن، الدبابات تحاصر المنطقة منذ أيام، ورجال الأمن يقومون بالتفتيش والقتل. قد لا يصبرون حتّى يعرفوا هويتك، لن يُعرّض أحدنا نفسه للقتل من أجل إيصالك إلى هناك».

إذن لقد جاؤوا؟ جاءت الإمدادات. ماذا يحصل في المدينة الآن؟ تراهم عرفوا ما حدث له؟ هل سيأتون إلى هنا؟ تمنى لو أنّ الأمر ينتهي خلال دقائق، لم يعد يحتمل هذا الجوّ الغامض المحيط به، وصار يخشى أن يكون قد وقع بيد العصابات المسلّحة. ماذا سيفعلون به؟ لكن لو كانوا كذلك لماذا أنقذوه؟ ألم يكن بإمكانهم تركه هناك غائصًا في الوحل، يجلده المطر، ويغرقه، حتى تفارق روحه هذا الجسد العاجز المقيّد إلى ساق السرير؟ هل حقًّا يحتاج

إلـى القيـد؟ أم أنّهم يخافـون منه؟ لكن لـمَ يخافون وهو لا يسـتطيع النهوض من السـرير إلا بمسـاعدتهم؟ كزّ على شـفته بأسـنانه حتّى أدماهـا، مُخرجًـا كلّ الحنق والألـم والغيظ من أحشـائه. أيّ ورطة وقع فيها؟ ومن هؤلاء الناس الذين أسعفوه واعتنوا بجراحه؟

برز وجهها من فتحة الباب مضيئًا عتمة المسـاء. سـألت بصوت خفيـض فيـه رنة حـزن: «هـل تحتـاج شـيئًا؟». تمتم بكلمـات غير مفهومـة كان يعنـي بهـا الشـكر، ومدّ يـده فـي حركة رجـاء: «ابقي قليلًا». فوجئت بكلماته، لكنّها توقفت مكانها، وبقي رأسـها منكّسًا كأنّها تنتظر أوامر يصدرها كي تمضي إلى تنفيذها. سـألها بتوسـل: «أيـن أنـا؟». قالت بحياد: «فـي أيدٍ أمينـة». إجابتها الغائمـة أقلقته. إذن لا يريدونه أن يعرف شـيئًا عنهم! أضافـت بصوت مبحوح كأنّه لـم يتوقـف عن النحيـب منذ شـهور: «المهم أنّك هنا فـي أمان، لن يؤذيـك أحد، ولا يهمنا أن نعـرف من أنت ومن أين جئت، الواجب يفـرض علينـا أن نعتنـي بك حتّى تشـفى وتسـتطيع الاعتمـاد على نفسـك». توقفـت قليلًا عن الـكلام، ثـمّ تابعت بلهجة قلقـة: «هذا إن بقينـا هنا، أو اسـتطعنا أن نحميك حتّى تشـفى». لهجتها المرتابة أقلقته. ماذا تعني؟ اسـتوضح، فقالت: «لا معلومات لديّ، ما أعرفه أنّ الأمن يفتشـون المنازل، ويعتقلون النـاس، ويقتلونهـم، والمدينة أصبحت خرابًا، ومعظـم سـكّانها نزحوا إلـى تركيا، أرجو ألا نضطر

لذلك». أدارت ظهرها، وخرجت. صرخ: «أرجوك، توقفي قليلًا». لـم تلتفت إليـه. وقفت مكانهـا، وقالت: «مـاذا تريد؟». سـألها من دون أن يقصـد السـؤال، فقـط أراد أن يتكلم ليستبقيها مـدة أطول: «ما اسـمك؟». قالت بصـوت زلزلت رنته أرجاء جسـده: «يمامة». سـأل مـن دون هـدف: «أهـو اسـمك أم لقـب أطلقـوه عليـك؟». اسـتدارت ببطء، نظرت إليه مشـفقة من سـماجته: «بل اسـمي». ثمّ خرجت لا تلوي على شـيء. وبّخ نفسه.. ماذا فعل؟ ما هذه الأسئلة الغبية؟ ما الذي يحيط بيمامة؟!

استنفرت حواسه كلّها حين فتحت درفة النافذة بقوة، وارتطمت بالجـدار.. الصـوت المفاجئ للارتطام جعل قلبـه يرتطم هو الآخر بضلوعـه، ممـا دفعه لتحريـك جذعه من دون وعي، فاخترقه سـهمٌ مـن ألم، جعل جسـده يرتجّ بنشـيج لـم يعرفـه منذ طفولتـه البعيدة. أغمض عينيه، وكزّ بأسـنانه على شفته. سمع حفيف ثوبها في الممر الطويل، وأدرك بسـمعه نغمة الخطوة الموزونة، وشـمّ بعمق رائحة خزامـى خفيفة فاحت في أرجاء الغرفة مع دخولها. أغلقت النافذة، ووضعت شـيئًا بقربه على طاولة منخفضة، عرف أنّه طعام سـاخن، فقـد تسـرّب بخاره الدافـئ إلى أنفـه، وجعل معدته تتقلّص بشـكل رهيـب. لا، ليـس هـذا، لا يمكنه تناولـه، لا يحبّه.. همسـت برفق: «عليـك تناول الطعام. هل أسـاعدك؟ لا أظنّك نائمًـا!». فتح عينيه، لـم يعد يهتم بالحسـاء حتّى لو وضعت فيه سـمًّا ما دامت ستسـاعده

فـي تناولـه! اقتربـت أكثـر وهي تحمـل فوطـة نظيفـة، وضعتها في حجره.. ابتسم في داخله شيطانٌ يرقب حركاتها «فوطة! ياللعز! منذ متـى تأكل وأنت تضع فوطة؟». كاد الضحـك يتغلّب عليه، لولا أنّه كبح اندفاع شـيطانه، وابتسـم لها شـاكرًا. نظر في عينيها وهي تقدّم له صحن الحسـاء.. توقف قلبه للحظة! كانت عيناها تحملان نظرة زجاجيـة جامدة، يلمع فيهما ضوءٌ منعكس من شـمس تسـربت من النافـذة، فبدتـا كعينـي جنية تقدحان شـررًا. لم يخف فـي حياته من شـيء قـدر خوفه هـذه اللحظة. أيعقـل أنّه ما زال قيد منـام لم يصحُ منـه بعد؟ لكنّها حرّكت يدهـا بالملعقة، وطلبت منه أن يأكل! ازدرد لقيمـات، وتوقف عند خاطـر لم يكن مفاجئًا.. فهـي تحمل ملامح مألوفـة لديه حدّ التصاقها بجسـده.. هل رآها قبـل الآن في مكان ما وخانتـه ذاكرته في معرفتـه؟ كان أمرًا مربكًا أن يسـألها، فهي توحي بحيـاد مزعـج، يمكـن لأيّ شـخص معـه أن يفهـم أنّهـا لم تـره في حياتها! لكنّه غامر بسؤالها: «ألم نلتقِ قبل الآن؟ لا أعرف لمَ أمتلك شـعورًا خفيًّا بأنّنا نعرف بعضنا؟». نظرت إليه باستخفاف من يقول: «أنا لا أعـرف أمثالك!»، وبقيـت صامتة. أحسّ بالحـرج.. بالتأكيد لا تعرفه، ولم يلتقيا قبل الآن. تركته وسط أوهام وتخيلات عاصفة، وخرجت حاملةً بقايا الطعام.

كاد قلبـه يتوقـف مـرّة أخـرى حيـن ومـض فـي ذهنه خاطـرٌ لم يكـن عابرًا هـذه المرّة، بـل خرج من عمـق ذاكرته.. الفتـى الملقى

وسـط السـنابل، ينظر إليه بعينين زجاجيتين، بهـت لونهما الأزرق، وانعكسـت شـمس مـا فيهما، فغدتا كعينـي جنية طلعت لـه في ليلة مظلمـة، فأقلقـت نومه! هـو.. هي... كتـم صرخة فزعة فـي حلقه، وجحظت عيناه، ماذا يفعل لو أنّهم هم؟ أنصت بحواسـه كلّها. كان كلُّ شـيء فيـه يلتقط تقلّبـات الكون وتبدّلاته مـن حوله. الأصوات والروائـح، والذبذبـات الخفيـة المكهربة بالحقـد والترقب. تراهم يعرفون؟ طمأنه إحسـاسٌ غامض أكّدته قناعـة عميقة بأنّهم لو كانوا يعرفون لقتلوه على الفور، ولم يسعفوه.

سـرقته إغفـاءة قصيرة من أفـكاره المـرّة، لم يدخل عمـق النوم كعادتـه، ولم ينفصل كليًّا عن العالم الخارجي حوله. منذ فتح عينيه على مصيره المقيّد إلى ساق السرير، أصبح القلق رفيقه، وصار ينام وروحه مسـتيقظة تحصي أنفاس الرّيـح، وذبذبات الأصوات الآتية من عمق البيت الغريب، الذي لم يرَ من سـكّانه سـوى فتاة ملامحها الجميلة مشـوبة بحزن خفي، وشـر ينبثق من عينيها كسـاقية من نار الجحيـم! وحدها رائحـة الخزامى المنبعثة منها تؤكـد أنّ هناك فتاة لطيفـة متواريـة وراء الثـوب الطويل المشـدود بعنايـة عند خصرها النحيـل.. ذكّرتـه ببطلة فيلم أجنبي كان قـد رآه في مراهقته حين زار المدينـة لأوّل مـرّة، ودفعه فضولـه لقطع تذكرة لرؤيـة تلك الممثلة التي تنضح عيناها بغواية شـيطانية.. لكن ما رآه في الفيلم لم يشـبع

رغباته، فعلى عكس ما توقع كان الفيلم رومانسيًّا قديمًا يحكي قصة حبّ ملتهبة، حظي فيها البطل بقبلة واحدة خُتم بها المشهد الأخير.. استسخف الفكرة يومها، قبلة واحدة بعد صراع ساعات! ياللسخافة.. هو قادر على الانتهاء من فتاته بدقائق سواء اقتنعت أم لا، لكن صورة تلك الممثلة لم تفارق مخيلته لزمن طويل، حتّى أنّه اشترى لها صورة، علّقها على جدار غرفته، وصار يحلم أنّه يأتيها من الخلف مرارًا كلّ ليلة، حتّى أيقن أنّه ما إنْ يراها حقيقة حتّى تعرفه! استعبدته فكرة الهجرة زمنًا للقائها، لكنّ الضائقة المالية التي مرَّ بها والده لم تترك له خيارًا سوى الانتساب للجيش، خاصة وأنّه لم يستطع نيل شهادة الثانوية العامة بعد أن تقدّم لامتحانها لمرّات عديدة.

أسعفته مخيلته في مزج صورة تلك الممثلة مع التفاصيل النحيلة لجسد يمامة، فرآها بعين مغمضة الجفن تبدو كإحدى الأميرات في القصص الشعبية. توقف قليلًا عند زيها الذي ترتديه. لم تكن كفلاحات هذه المنطقة تحبس شعرها بمنديل، ولم يرها ترتدي ثوبًا قصيرًا! كانت ملابسها توحي بجوّ مختلف لسيّدة من العصور القديمة.. وكأنّها ترتدي ثوب أمّها مثلًا! أضحكته الفكرة حتّى انتشلته من نوم محقق، لكنّه أبقى عينيه مغمضتين التماسًا لإغفاءة جديدة.

انتبه من سكرات نومه على خطوات تجاوزت الباب المفتوح، ودارت حول السرير. خفق قلبه بشدّة.. أدرك من الرائحة أنّ القادم لم يكن أحد الأشخاص الذين يعودونه، بل...

ارتبك، وتقلّصت معدته.. شعر بالغثيان.. قاوم إفراغ أمعائه، لكنّه لم يستطع. شدّ جسده، وأفرغها قرب السرير، رفع رأسه ببطء، فالتقت نظراتهما، كان يحدّق فيه والشرر يتطاير من عينيه، واللون الأسود لجسده يملأ مساحة الفضاء بأكمله، لم يكن للجسد حدود، كما لم يكن لذلك الخوف الذي ألحقته النظرة الشرسة به حدود. حاول أن يصرخ، ينادي أصحاب البيت. همس: «يمامة».. لكنّ صوته خرس تمامًا، ولم يستطع إصدار همهمة تفصح عن رعبه، أو استغاثته. تقدّم الكلب بخطوات ثابتة، وقفز فجأة فوق السرير.. تشمم الغطاء، ونبح بصوت أقرب لنعيب بومة! شكّ في أنّ الكلب سيمزقه إربًا. خبّأ وجهه بذراعيه، وصرخ بكلّ قوته.. حينها أضاء مصباحٌ يدوي فرجة الباب، ودخل رجل. صاح بالكلب آمرًا إياه بالنزول.

لا يعرف كيف انتهى ذلك الكابوس المزعج، لكنّه بات يخاف الآن أكثر. الشاهد الوحيد على جريمته كاد منذ دقائق ينتقم لصاحبه بتمزيقه.. أو ربّما بنقل عدوى الكَلب إليه. الرجل غادر الغرفة من دون أن يوجّه إليه كلمة واحدة.. لكنّه سمع همسًا في الممر

المؤدي إلى الصالة، فهم منه تساؤلًا عن سبب تصرّف الكلب بهذه الطريقة.. كان الجواب: «إنّه لا يحبُّ الغرباء!». هذا ما قالته يمامة.. هذا ما قالته بلسانها، لأنّها فتحت الباب فجأة، ووقفت قرب السرير، ورمقته بتلك النظرة الزجاجية، وقالت بنبرة باردة: «منذ أسبوع ونحن في حداد على ابن عمي الصغير لقد قتله أحد هؤلاء السفلة الذين يداهمون بيوتنا الآن، ويتركونها حطامًا، أو ينهبونها، ويغتصبون نساءنا. لكن بربّك ما الذي يجعلهم يقتلون فتى في الحادية عشرة، ويغتصبونه؟ أظنّك لا تعرف.. لكنّ الكلب يعرف.. إنّه يشمّ رائحة صاحبه!».

كانت تلك الكلمات الخنجر الذي مزّق أحشاءه. إذن هي تعرف.. أو على الأقل تدرك بحاستها السادسة أنّه مَن قتله، أو مرّ به على أقلّ تقدير، حتّى تشممه الكلب بتلك الطريقة! نعم تعرف.. ما الذي يستطيع فعله وهو مقيّد بالعجز إلى سرير ضحيته؟

لم يكن أمامه سوى الاستسلام لمصيره، فقد أدرك أن عليه تلقي العقاب عمّا اقترفه على الرغم من يقينه أنّه لم يتجاوز حدود إيمانه الراسخ بإزالة أيّ عقبة تواجه استقرار الحكم المزدهر لرئيس البلاد. تساءل باستغراب: «هل أخطأتُ بقتل الفتى؟ ألم يكن بإمكاني تركه حيًّا؟ لكنّهم قالوا لنا: لا ترحموا أحدًا.. لا تأخذكم بهم شفقة.. حتّى الجرحى. لا نريد أسرى.. نريدهم أمواتًا.. إن تركتموهم سيقتلونكم». هل ستتوقف الحياة المستقرّة على حياة طفل؟ حدّث

نفسه، واستغرب أنّه وجد في قاع روحه عاطفة شاذّة تراوده عن يقينه.

كيف يسمح لنفسه بالتّفكير عكس اتّجاه الرّيح؟ يبدو أنّه حفر قبره بيديه! منذ متى كان عقله يحاكم الأمور بعيدًا عن الثوابت التي تربّى عليها؟ أغمض عينيه في محاولة للهرب من الأسئلة العقيمة بالنوم.

لم يدرك مباشرة إن كان قد غرق في كابوس مزعج، أم أنّه لم ينم.. حين لامست ماسورة بندقية جبهته.. لا شكّ أنّه كان نائمًا، لأنّه لم يسمع أصوات أقدام في الممر، ولم يسمع ضجيجًا، فوجئ بالحديد البارد يخزه وصوت يقهقه شاتمًا إياه بأمّه وطائفته! إذن سيقتلونه؟! كان يعرف أنّهم لن يتركوه بعد أن تأكدوا أنّه هو من قتل ابنهم.. لقد قالتها يمامة بوضوح: «الكلب يعرف!». نهره الصوت: «استيقظ يا ابن الق...   فتح عينيه ببطء.. رآهم.. كانوا سبعة رجال، ازدحمت بهم الغرفة.. وهو أعزل ومقيد و... لكن لمَ كلّ هؤلاء؟ واحد فقط بإمكانه أن يفرغ مشط رصاص في رأسه وينتهي الأمر!

حتّى تلك اللحظة لم ينتبه إلى ملابسهم السوداء، ولا إلى أحذيتهم، ولحاهم.. لم يدرك أنّهم قوات المداهمة حتّى لمح جنديًا منكّس الرأس يقف بالباب! وقبل أن يفتح فمه ليتكلّم أشار أحدهم

برأسـه، فأمسك آخر به ولوى يديه خلف ظهره، وقيّدها، وكمّم فمه بقطعة قماش مزّقها من الستارة!

وصله صوتها من الغرفة الثانية مستغيثًا.. كانت تندب، وتصرخ. كان واضحًـا أنّـه لا يوجد أحد في البيت غيرهـا! أومأ الواقف قرب سـريره لأحد رجالـه.. فخرج مسـرعًا. لم يسـمع أصواتهـم، كانوا يتفاهمـون بالإشـارة فقـط! أدخلها المسـلح المأمور، وهـو يجرّها مـن شـعرها، ورماها عنـد قدمي من أمـره. عرف أنّه رئيـس الفرقة، وخزه بماسورة البندقية في صدره، وأشار إليها.. أسرع الثاني بتقييد يديهـا.. كانـت ترفـس، وتعـض، وتصـرخ، وتحـاول الإفلات من أيديهم.. لكن كيف ليمامة أن تفرّ من أيدي سبعة صيادين؟ لم تفلح معهم نظراتها الزجاجية التي تصبّ حديدًا مصهورًا.. هو وحده كان يظنّ أنّها نظرات شيطانية من جحيم تصبّه، فتقتل من تراه، أو تحوله إلى مسخ! لم تفلح تمائم جدته التي راح يردّدها بينه وبين نفسه. لم يفلح أيّ شـيء في جعلهم يتركونها وشأنها. لأوّل مرّة يشعر بأنّه لم يعد فرقاطة(*).. بل مجرد دجاجة مقيدّة وعنقها تحت السكين!

عرّاهـا أحدهـم وغمـز بعينـه لقائـده.. دفعـه أمامه «ابـدأ أنت». وجذب كرسـيًّا.. جلس بهدوء.. أشـعل سـيجارة، ووضع سـلاحه

(*) طائر أسود اللون، ذيله متشعب، أجنحته طويلة، يطير على سطح الماء بسرعة فائقة، لكنّه لا يحبّ الغوص، ولا يجيد التّعامل مع الماء.. وهو مكروه من باقي الطيور لأنّه يخطف فرائسهم التي يصطادونها وهم في الجوّ لبراعته في القرصنة. يلّقب بـ «قرصان الهواء».

جانبًا. رماها الجندي أرضًا.. تقلّص جسدها النحيل، وتكوّر على عريه، مدّ القائد يده إلى حزامه، فكّه، ورماه للجندي الذي سارع بجلدها.. حتّى سالت الدماء من ساقيها، وساعديها اللذين جاهدت أن تحمي بهما وجهها.. لم تكن تريد النظر إلى قاتليها.. لم تشأ أن تكون وجوههم آخر ما يُطبع في حدقة عينها.. كانت تعرف أنّ الضحية تحافظ على صورة القاتل، وتحملها إلى العالم الآخر.. لكنّها أبقت عينيها مغمضتين! أدركت بوضوح أنّها النّهاية، فتمتمت تستعجلهم قتلها.. لكنّها سمعت قهقهاتهم وهم يجرّونها إلى وسط الغرفة، ويقيدون قدمها إلى طرف السرير.. هناك حيث كانت الحجر تستقرّ مثبتة ساق الجريح. شعرت بحذائه الثقيل يدفعها حتّى استقرّ رأسها بين قدمي رئيسه.. أدركت أنّ قدميه تحاصران كتفيها. كانت رائحة الحذاء القذر تكتم أنفاسها، على الرغم من الهواء المتسرب من النّافذة خلف كرسيّها المفضل الذي احتلّه قائد المجموعة بجسده الضخم. شمّت رائحة دخانه الكريه في اللحظة التي أشار فيها للجندي الواقف بالباب كي يعتليها.

بقي المجند مسمّرًا مكانه.. لم يكن الخوف ما أوقفه هناك كصنم.. راعه ما رآه من وحشيتهم، وكاد قلبه يتوقف حين تخيّل أنّ الفتاة إحدى أخواته هناك في بلده البعيد حيث يمرّ النّهر هادئًا وادعًا. لم ينسَ يومًا حكايات أمّه عن الديكتاتور الأب.. لم ينسَ ما روته له عن المجزرة التي حدثت في حماة، عن مياه النّهر، عن

أنيـن النواعيـر لليالٍ امتدت شـهورًا وسـنوات، وحملـت معها كلّ الأصوات المسـتغيثة منذ بـدء الدهر وحتّى السـاعة تطالب بالثأر.. لـم ينسَ أبدًا أنّهم يومًا ما فعلـوا ذلك بعمته التي جُنّت، وخالته التي قطّعوا أوصالها ورموها في النّهر.. لم ينسَ أنّ أمّه وحتّى يوم وفاتها كانـت تحمـل الزهـور إلى النّهـر.. ترميهـا برفق، وتوصي السـمك أن يكـون حنونًـا على عظام الميتيـن.. لم ينسَ.. لعنـة ذلك التاريخ تلاحقـه مـن خلال ما تركته أمّه من قصص لم يعشـها إلّا في مخيلته الصغيـرة مـذ كان طفلًا، وحتّـى اللحظـة التي أصبح فيهـا من حماة الديـار، وفرِض عليه أن يسـمع أكاذيب لـم تقنعه يومًـا، لكنّه لم يبح بشكوكه حتّى لنفسه! بقي مسمّرًا في مكانه، لم يجرؤ على العصيان، ولـم يجرؤ على التنفيذ. تصلّب جسـده كما لو أنّ ميدوزا نظرت إليه فتركته حجرًا أصم!

قهقه قائده، وكاد يُقلب على قفاه.. شتمه بأمّه، وقال: «لم أعرف أنّهـم أرسلوا لخدمتي خصيانًا!».

نكّـس رأسـه محاولًا أن يبعـد عينيه عن عريهـا.. وأن يصم أذنيه عن الشـتيمة التي طالـت فرج أمّه.. لكنّ الدم كان يفور في شـرايينه حدّ اندفاعه في موجات عنيفة. زادت ضربات قلبه، وصبغت وجهه بالحمـرة، ممـا زاد في متعة قائده الذي علّق على الأمر بأنّه يجب أن يعريـه بعد أن ينتهي من الفتاة فربّما يخفي تحت ثيابه أعضاء أنثوية! حاول أن يتماسـك، ويتلهّى بأيّ فكـرة بعيدة عمّا يجري في الغرفة،

لكـنّ ضحكاتهم وصوت أنينها أجبراه علـى البقاء داخل الجحيم.. سـؤال واحـد كان يعبّر عـن عجزه: «مـاذا بإمكانه أن يفعـل؟». نظر بطـرف عينه إلى رفيقه الذي أوكل القائد له المهمة. كان يلهث فوق جسدها ككلب أجرب، والدماء تتدفق بين فخذيها.. وللمرّة الأولى عـرف أنّ المخصـي هو قائده الـذي مدّ يده من فتحـة بنطاله، وراح يستمني بيديه فوق جسدها. حين نهض رفيقه من فوقها، بدت كجثة هامـدة، ملوثـة بالدماء والمني.. وبقايا السـجائر التـي أطفأها قائده فـي ذراعها! كاد قلبه ينخلع حين دفع القائد بجندي آخر فوقها.. لم يتصور أن يصل بهم التوحش لمضاجعة جثة!

لـم ينتبهـوا فـي غمـرة هيجانهـم لخطـوات تسـلّلت بخفـة في الممر.. أوّل ما خطر ببال الجندي أن يهرب.. حين وصل إلى الباب الخارجي، تشـنّجت أصابعه على أكرة الباب، لم يسـتطع المغادرة. لقد رآهم بإحساسه قبل عينيه.. ألقى سلاحه، وهمس: «اقتلوني فأنا عاجز عن الدفاع عنها». كمّم أحدهم فمه، وسحبه إلى ركن معتم.. رأى عينيـه مـن خلال اللثام.. وفهـم ما يريد.. هزّ رأسـه وكأنّه ينفي فكرة اشـتراكه بالجريمة. دفعه أمامه، وأمره بحمل سلاحه.. وأشار إلى رفيقه الذي تسـلّل خلف البيت من الجهة الشرقية، وكمن تحت النافذة.

لم يفكر طويلًا. لم يفكر أبدًا. امتلأ جسده برغبة واحدة. لم يعد مهمًّـا أن يقتلوه بعـد أن ينتقم لعمتـه، وخالته، وأقاربـه جميعًا. كان

رشاشـه جاهزًا.. فاجأهم وهم يتسـلّون بتعذيـب الجريح.. لم يترك لهـم فرصة ليلتقطـوا أسـلحتهم.. كانوا يشـعرون بالأمـان في بيت منعـزل فيـه فتاة وطعـام ورجل جريـح مقيّد إلى سـرير! جـوّ مثالي ليرتاحـوا من سـفر طويل، ومشـقة النوم فـي العراء فـوق دباباتهم، وبكامـل سـلاحهم. الثلاثة حـول السـرير وقعوا فـوق الجريح، ثمّ انطرحـوا أرضـا.. لا يعرف كيف قُتـل القائد لكنّه لمح تكشـيرة ألم على ملامحه، ورصاصة تستقرّ في صدغه.. ويده بين فخذيه! وجنديًّا تطوّح بجانب النافذة بصمت، وهو يتشـبث بالستارة، ويمزقها، قبل أن ترتطم جثته بالأرض.

صرخ الملثم الذي قفز من النافذة المحطّمة: «فكّ قيد الجريح»، وألقى معطفه فوق الفتاة...

قال بلهفة:

«هنـاك واحد مفقود، كنّـا... قبل أن يكمل جملته سـمع طلقًا ناريًّا في الخارج..

كان الجندي الأخير قد لقي حتفه وهو يحاول الهرب!).

***

الغيبة الثانية للخضر!

كان لا بدّ لي من السفر إلى بيت أهلي في جسر الشغور. كيف لحنظلة أن يعرف تلك التفاصيل؟ ولماذا اختار الجسر من بين المدن كلّها ليزورها؟ هل كتب لي الحقيقة كاملة؟ كنت أرجو أن يكون ما كتبه غير حقيقي؛ لكنّ رسالة ابنة أخي التي أخبرتني فيها أنهم نزحوا إلى تركيا، وتركوا البيت لنور وأصدقائه، أدخلت الخوف إلى قلبي. أقلقتني أسئلة مرة، خاصة أنّ مخيلتي ربطت ما حدث بما كتبه نور لي عن سبب إغلاق صفحته على الفيس بوك: «أمّي مضطر لإغلاق صفحتي، كلّ ما حولي تافه ولا يستحق المتابعة، تبدو لي تلك الصفحات كسيف دونكيشوت الخشبي.. وفرسانها مثله.. لن أعدم وسيلة للتواصل معك ومعرفة أخبارك، فقط لا ينشغل بالك عليّ.. سأكون بخير بفضل دعائك».

حدسي أخبرني أنّه كان هنا، أشياء كثيرة تخصه كانت حاضرة في غرفته الصغيرة المطلة على الحديقة الخلفية للمنزل. السرير لم يكن مرتبًا وكأنّه غادر على عجل، لم يكمل شرب كأس الشاي..

وبقايا سجائر في منفضة! لكنّ نور لا يدخن! شخصٌ ما إذن كان هنا. ربّما أحد أصدقائه.. ربّما...

فتحت النوافذ، وتركت للشمس والهواء مهمة تغيير جوّ الغرفة. انحنيت فوق السرير لأرتبه، سمعت صوته يقول: «اتركيه كما هو يا أمّ نور، تعلمين أنّي أحبّ أن تبقى غرفتي هكذا من دون ترتيب. هذه الفوضى الخلاقة تمنحني إحساسًا بأنّي خارج سلطتك. يكفيني أنّي عشت كلّ عمري منضبطًا حسب المقاييس التي فرضتها عليّ». تجمّدت يدي فوق غطاء السرير.. لم أضحك كما كنت أفعل عندما يُسمعني هذه الكلمات. لم يكن قريبًا لألكزه في كتفه، وأجبره على ترتيب غرفته وملابسه.. كان لكلماته إيقاع مختلف وخزني في القلب، وشعرت أنّه يبتعد.. لم يعد لي... قالها أحد أصدقائي عندما رأى تعلقي به وهو طفل: «أولادكم ليسوا لكم، أولادكم أبناء الحياة.. لا تتعلّقي به كثيرًا كي لا يوجعك فقده كثيرًا». نفضتُ تلك الأفكار الكئيبة من رأسي، وتابعت الترتيب. لمحت تحت السرير كومة ملابس وحقيبة مفتوحة.. سحبتها بلهفة.. بدلة عسكرية وحذاء وملابس داخلية ملطخة بالدم! خفق قلبي بشدّة لكنّي أدركت أنّها ليست له، لم يكن مقاسه ولم تكن رائحته! جمعتها في كيس أسود، ورميتها في الحاوية بعيدًا عن المنزل.

حيـن أنهيت أعمال التنظيف صنعت فنجان قهوة، وجلسـت في الشرفة الشرقية بعيدًا عن الشمس.

منذ سـنوات لم يمرّ حزيـران لطيفًا، وكأنّ مسـاءاته امتداد لربيعٍ لـم ينتهِ بعد. لكنّ الخواء المسـيطر على البيـت والجبال من حولي جعلنـي أحـسّ بحجم الفجيعة التـي تتكرّر بلا توقف. تمشـيت في الحديقة الذابلة الزهور. لمستُ بأصابع الحنين سورها. اقتربت من شجرة المشمش. تأملتُ شجرة التين العجوز، وحطّت نظراتي على أشجار الرمان...

نفضـت الغبـار عن أرجوحـة الطفولة التي لـم تبـارح مكانها منذ أربعيـن عامًا مضت. أكاد أرى الوجوه كلّها التي اتكأت على حبالها المتينـة.. ألمس الضحـكات بأصابعي.. الكلمات التـي احتفظ بها الأثيـر، وراحت تتحرّك حولـي كائنات تمتلك الحيـاة، كلّ الحياة! ولمحته يقترب، هـا أنا أدفع الأرجوحة بقوة أكبر.. أكبر.. أغمضت عينيّ.. سمعت ضحكته بنكهة طفولته التي لا تغادرني...

هـا هـي الأرجوحة تتحـرّك، وتلتـف حبالهـا حول نفسـها.. ثمّ تنفـكّ تدريجيًّـا لتهدأ تمامًـا وأنا أمضي إلـى البـاب! تأملتُ طلاءه المتآكل طويلًا، خربشـات منمنمة تركتها أقلام الصغار الذين كبروا ورحلـوا! رحـت أنبش تلـك العبـارات بحثًا عن خـطّ قديم أوضح

من كلّ الخطوط.. ترك رسمًا قديمًا صغيرًا في الزاوية العليا حيث لا ترى إلّا بمجهرٍ روحيٍّ يملك ذاكرة عتيقة، وإحساسًا باستمرارية الذكريات وحضورها.

لم أغفُ طويلًا. سمعت جلبة في الخارج، وصوت تكبيرات من الجامع البعيد تنادي على ميت لم أفهم اسمه.. خرجت لأستطلع الأمر.. رأيتهم في الشارع المقابل لبيتنا.. يحملون نعشًا فوق أكتافهم.. يكبّرون، ويصرخون: «الموت ولا المذلة». ارتديت عباءتي، وهبطت التلة مسرعة.. أوقفت أحد الأولاد لأسأله، روى لي بسرعة ما جرى، وركض يريد اللحاق بالمظاهرة قبل وصولها المقبرة! إذن هو محمود!

طيلة حياته امتلك إيمانًا عميقًا بأنّه لن يموت، فقد أخذ ميثاقًا من الله الذي يعبده البشر في مساجدهم عن طريق مؤذنٍ صالح ارتبط به بصداقة تبادلا فيها مواثيق الحماية، هو يحميه أثناء سيره من عثرات الطريق، فيجمع برضا كلّ الحجارة والأوساخ من الدّرب الذي سيسير فيه من بيته إلى الجامع، مقابل أن يحميه الرجل الصالح من الموت! وكان رجال البلدة يمازحونه بقولهم: «ستموت يا محمود». فيردّ بلا مبالاة: «محمود لا يموت». البراري الواسعة على طرف الطريق الشمالي كانت مراحًا لأحلامه، تضيق عن خطواته الواسعة، فيجد نفسه خلال وقت قصير عند «بشمارون»

يراقب القطارات الذاهبة إلى الله. هكذا كان يتصوّر أنّ هؤلاء البشر الحمقى يذهبون إلى مصيرهم الأسود. وحين يصفر القطار مبتعدًا في السهل الواسع، وحتّى دخوله الأنفاق المظلمة حيث تضيع أجساد البشر، ويختفي القطار نهائيًّا في طريقه إلى السماء، يقرأ محمود الفاتحة على أرواحهم ويدعو لهم بالرحمة محافظًا على صفاء روحه في جلسته المتأملة تلك.. ثمّ ينهض، وشعور غامر بالرضا عن النفس يملؤه بالبهجة.

يعرف سكّان البلدة مواعيد قدوم القطار ورحيله من مواعيد حضوره وغيابه! وقد استعاضوا بوجهه المليء بالبِشر عن الساعة، حين يهلّ من أعلى التلّ صافرًا لحنًا بسيطًا لأغنية شعبية، كانت أمّه تغنيها أثناء الطقوس الاحتفالية للخبز، وهي تقف وراء التنور في بيوت أغنياء البلدة.

لم يعد يذكر من ذلك الزمن سوى صور مشوشة لسيدة قيل إنّها زوجة مسؤول كبير، وهي تضرب رأسه بالجدار، حين تجرّأ وأخذ رغيف خبز ساخنًا، رمته أمّه في الطبق بجانبها، وهي تغني للحياة! بعد زمن فقد أمّه، وأسرته، وهام على وجهه في البراري. عندما يشعر بحاجته للنوم يفترش الأرض وينام! لم يكن يهتم بالمكان، يكفيه أنّ روحه لا تشعر بالبرد، ولا الحرّ، ولا بؤس الناس، ولا سعادتهم. عالمه يخصّه وحده، لا علاقة له بالكون من حوله إلّا من خلال

الشيخ أمين مؤذن الجامع، الذي أخذه معه إلى البيت في إحدى الليالي.. أطعمه، وألبسه ملابس جديدة، وطلب منه أن ينام في الجامع، وعندما رفض، قال له: «ستحرس بيت الله من اللصوص». أغوته فكرة حراسة بيت الله، لكنّه لم يوافق إلا عندما أخذ وعدًا من الشيخ أمين أن يحميه من الموت، فهو لا يريد أن يلفه أحدٌ بثوب أبيض، وينزله في حفرة! قال للشيخ أمين بلهفة: «أنت لن تموت يا شيخ أمين، وأنا مثلك، أنت ستحميني». ولأنّ الشيخ أمين يعرف أنّه رجل مبروك، لم يجادله، ولم يحاول شرح الحقيقة له، فرسّخ تصرفه ذاك اليقين في قلب محمود بأبدية حياته، وأنّه شاهد فقط على ما يجري في الدّنيا.. شاهد يملك كلّ الحريّة في شطب ما يريد من ذاكرته، واستبداله بما يريد، فيروي الحدث لا كما جرى، بل كما رآه هو بعين قلبه وروحه!

لأجل ذلك كثيرًا ما كان كبار السن يلجؤون إليه ليحدّثهم عن طفولته وما جرى هنا في الثمانينيات من القرن الماضي.. فيبدأ حديثًا ليقطعه فجأة بحديث مختلف لا علاقة له بالأوّل، فيضحك الرجال نافضين عنهم غبار القلق من مستقبل غامض، فلم يعد في العمر ما يستحق أن يتوقفوا عنده، والماضي الذي رموه وراء ظهورهم تحوّل فجأة إلى حكاية، لا يرويها حكواتي في مقهى، بل رجل مبروك، لا يكاد يميّز الزمن الذي يجري بعيدًا عنه، فلا يعرف

الأمس من اليوم! فيروي موت كبير المنطقة على أنّه حدث البارحة، وأنّ الجيش دخل البلدة، وحطّم، وقتل، وحرق، واجتاح الشوارع قبل دقائق!

كثيرًا ما كان يتوقف في الشارع الرئيس للبلدة، ويتأمل الحوانيت وأصحابها، ويتعجب مبتسمًا من سرعة أصحابها في إعادة بنائها، وملئها بالخضار والفواكه وأشياء أخرى لا يعرف استعمالاتها، فهو لا يدرك أنّ البشر يحتاجون لأشياء أخرى غير النوم والطعام، وتأمل البراري الواسعة والقطارات المسافرة إلى السماء! سكّان المدينة بأسرها كبارًا وصغارًا كانوا يعرفون محمود، فهو أشهر من رئيس البلدية وحتّى مدير المنطقة.. لا يحتاج لطرق الأبواب، فأبواب البيوت جميعها مفتوحة في وجهه. سيدات البلدة وفتياتها يعاملنه برفق، كما يتعاملن مع أطفالهن، وبعض النساء يعتبرن ظهوره في بيوتهن بشرى خير، فكثيرًا ما كان نبوءة لعودة غائب، أو شفاء مريض! تحوّل مع الأيام من رجل «مجنون» إلى صاحب كرامات، يُحضرنه أحيانًا ليلمس بيده المباركة جبين طفل يغلي من ارتفاع الحرارة، أو بطن حامل تعسرت ولادتها! أوّل من استخدمه في هذا الداية «مهيتاب». بدأ الأمر بمزحة حين فوجئت النساء بدخوله في يوم صيفي إلى صحن دار كانت فيه امرأة تعسرت ولادتها، فالمولود يصرّ أن ينزل برجله أولًا! نادته الداية قائلة: «يا محمود، ضع يدك

هنـا». اقترب مبتهجًا، ووضع يده على بطن الحامل، تمتم بشـيء، ثمّ أغمـض عينيه، وقـام بحركة غريبة بيديه فوق بطن الحامل، ووسـط ذهـول الموجوديـن صرخـت المـرأة بقـوة، وتلقفـت الدايـة رأس المولود!

لكـنّ محمود لم يسـتمر على تلـك الحال من البهجـة والتأمل، وتوديـع القطارات المسـافرة، فقد حدث ما من شـأنه أن يهزّ كيانه، وينسـف ثوابتـه كلّها، ويرمـي به في حضـن اكتئاب جعلـه ينفر من النّـاس، ويتخيّـل أنّهم أعـداؤه، منذ ذلـك اليوم الذي لـم يسـمع فيه صوت الشـيخ أمين يؤذن لصلاة الفجر، ورآهم عند الظهر يحملونه على أكتافهم، يصلّون عليه، ويتّجهون إلى المقبرة! فرَّ إلى البراري، فقـد أيقن أنه لم يعـد هناك من يحميه من الموت! وأنّه سـينزل يومًا في تلك الحفرة الموحشة، سيهيلون عليه التراب، ولن يجد من يقرأ الفاتحة على روحه، ويطعم الناس في عزائه! بقي هناك في البراري، يأكل من عشـب الأرض ومن فضلاتٍ يرميها المسـافرون من نوافذ القطارات العابرة. لم يعد يجرؤ على الجلوس، وتأمل المسافرين.. صـار يجلس بعيدًا عن القطار خشـية أن يدهسـه بأقدامه الحديدية، فيذهب إلى السماء الغامضة البعيدة التي تسكب ماءً يبلّله في البرد، وتشـويه شمسـها في الأيام الحارة. وكثيرًا مـا رآه العابرون ليلًا ينام تحـت كومة كراتين فارغة فـي الأزقة، وهو يتمتـم بالفاتحة التي لم

يكـن يحفـظ غيرها! وحين مازحه أحدهم سـائلًا عـن الميت الذي يقـرأ الفاتحـة على روحـه، ردّ بحزن: «محمـود مات». لكـنّ أحدًا لـم يأبـه يومًا لهذا الرجل المصاب في قلبه قبـل عقله، لم يفكّر أحد بمواساته، لأنّ الناس لم يدركوا حجم الكارثة التي يعيشها منذ موت الشـيخ أمين. بحثوا عنه في البداية ليقـرأ الفاتحة لأمواتهم، ويعطوه طعامًا، فلم يعثروا عليه!

كان محمود الشـاهد المغيّب عن الوعـي للمجزرة الأولى حين كان يراقب سـكّة القطار من مكمنـه البعيد... صحا فجأة على هدير الطائـرات المروحية. لـم يكن قبل الآن يعرف ما هذا الشـيء الذي يشـبه نحلة تطن في الأذن، وتقرص بقسوة.. لم تكن مجرد نحلات تلك الأشـياء المعدنية التي تطير قريبًا من الأرض، ويقفز منها جنودٌ مدججون بالسـلاح. لم يكن محمود يعرف العدّ، تخيّل أنّ الخمس والعشـرين طائرة - التي هبطت قرب محطة القطار، وانتشر الجنود منهـا في المكان، واتّجهوا صوب المدينة - عددٌ لا نهائي.. سـمّره الخوف في البداية، فبقي يراقب من مكانه حركة الجنود من دون أن يجرؤ حتّى على إظهار رأسـه من خلف شـجرة السنديان الضخمة. بـات ليلته في البرد والعراء والمطر يتسـرّب إلى عظامه.. لكنّه حين صحا في الصباح، سـار في طريقه إلى البلدة المحاصرة التي فُرض عليها حظر التجول، ناسيًا المخاوف التي راودته عصر الأمس. كان

يعرف المداخل والطرقات بما يسمح له بالابتعاد عن طريق الجنود، لكن ما لم يعرفه أنّ الظلم يطال حتّى البسطاء أمثاله الذين لا يمكنهم أن يفهموا دوافع بعض المخلوقات للقتل والتّعذيب.

لم يكن محمود يعرف قائد تلك القوات، ولا الهدف من انتشارها حول معمل السكّر، وعلى طريق «حمّام الشيخ عيسى»، وفي المدرسة الثانوية، وفي ساحة البريد! لكنّه استشعر بحواسه أنّ الأمر خطير ومخيف.. وأنّ هناك قوى خفية يمكنها أن ترعبه أكثر من القبر المعتم وقطعة القماش البيضاء.. وتساءل ببراءة عن تلك القوة التي تخيف أكثر من الموت! ولم يجد جوابًا. لكنّ فضوله دفعه للتسلّل إلى الشوارع التي يحتلّها الجنود.. في البداية كان ينظر إلى ملابسهم المبقعة، وتذهله الألوان والأحذية والخوذات والأسلحة! لكنّه حين رأى النّاس يتساقطون كالعصافير في الشوارع مضرّجين بدمائهم، والجنود يسحبون البشر الذين يحبّهم من البيوت والدّكاكين، ويجرّونهم بوحشية كأنّهم خراف تساق للذبح في العيد، ويحشرونهم في سيارات مغلقة مرعبة أكثر من فتحة القبر المعتمة.. فهم أنّ الأمر أخطر مما يتصور أو من مقدرته على الاستيعاب.

لم يحتمل محمود أفظع منظر يمكن لبشر أن يراه في حياته حين قام أحد الجنود بفصل جسد طفل إلى نصفين أمام أمّه التي وقعت ميتة خلال لحظات.. صرخ عاليًا، صرخ بصوته المشروخ «يا رب»

ولم يكمل.. فقد تلقّى عشرات اللكمات والركلات.. لم يستطع أن يعرف كيف تجمّع كلّ هؤلاء حوله، ولا من أين نبعوا فجأة، وراحوا يجرّونه على الأسفلت بعنف ودماؤه تسيل على وجهه. سمع أحد المعتقلين يقول له: «ما الذي أتى بك إلى هنا يا محمود؟ ليتك متّ بأيدي «كتيبة الذبح» فهي أخف وطأة من «كتيبة التعذيب»». كيف سيعرف محمود أنّ كتيبة الذبح هي التي رآها في اليوم الأوّل وهو قرب المحطة، والتي قامت بقتل خمسين مواطنًا من كلّ المذاهب فقط لأنّهم من جسر الشغور؟ أدرك في هذه اللحظة أنّ الحياة لا يوجد فيها إلّا الظلم والبشر المتوحشون الذين لا يعرفون معنى الإنسانية.. تذكّر بوضوح تلك السيدة التي أمسكت شعر رأسه بقبضتها الحديدية، وضربت رأسه بالجدار لمجرد أنّه تشهّى رغيفًا ساخنًا خبزته أمّه.. إلى الآن لم يفهم لماذا فعلت ذلك!

شدّه أحد الضباط بعنف، وربط يديه بأسلاك شائكة خلف ظهره، قيّد قدميه بأسلاك أخرى، ثمّ انهال عليه ضربًا بالعصا والكابل الحديدي وبحذائه العسكري حتّى ناله التعب، فسلّمه لجندي معه عصا راح يحاول إدخال العصا في بطنه حتّى ثقب الجلد.. استمروا في تعذيبه مع باقي المعتقلين حتّى الفجر.. حيث نقلوه إلى ساحة البريد. هناك رأى عددًا مخيفًا من جنود الوحدات الخاصة بلباسهم المبرقع ولهجتهم الغريبة! عندما شاهدوه، هجموا عليه كما تهجم الوحوش الجائعة على فريستها.. جرّوه من السيارة على سلّم

البريـد جرًّا، ولـم يتوقفوا عن لكمه وركله حتّى أغمي عليه لمدة يوم ونصف.. أفاق بعدها ليسمع أحدهم يقول له: «لقد كانوا يقولون إنّك فطســت! لم يعرفوا أنّ محمود لا يموت!». لـم يكن المعتقل الذي لفظ تلك العبارة مازحًا، فقد حملت عيناه نظرة حزينة ومتعاطفة مع آلام محمود التي بدأت الآن!

فـي يوم الأربعاء عرضوه على عدنان عاصي الذي سـأله سـؤالًا يتيمًا لـم يتغيّر: «أين وضعت الرشـاش؟». لم يكن محمود يعرف ما هو الرشــاش علـى الرغم مـن أنّ المعتقلين معه شـرحوا له أنّ أحد الجنود قال إنّه رمى إحدى الطائرات العمودية برشاش كان يحمله! وعلـى الرغـم مـن أنّ عدنـان عاصـي أخرج مـن جيبه طلقـات من الرصاص، وقرّبها من وجهه كدليل دامغ لا يقبل جدلًا على أنّه كان يحمل رشاشًـا، وأنّ الطلقات ما زالت فـي جيبه ولن يفيده الإنكار! لـم يعرف ما يجب عليه أن يقـول.. بقي صامتًا.. مما اسـتفز عدنان عاصي، فأتى بولاعة الغاز وحرق له لحيته.. صرخ محمود متوجعًا، فجاء الجنود على صراخه، وراحوا يضربونه حتّى تشكّل جسده من جديـد، فأصبح كثيابهم المبرقعة! صار لديه بدلة من لحمه! ضَحك الجنـود يقـرع أذنيه كطبـل «لقد صرتَ مـن الوحـدات الخاصة!». يهزؤون من جراحه ولون جسده المبقع، ولا يعرفون أيّ قلب يملك محمـود الذي لم يشـعر حتّى تلك اللحظة بكراهيـة تجاههم.. فقط

كان خائفًا ومرعوبًا.. فقط كان يحاول أن يستثير شفقتهم ليتركوه وشأنه! فصرخ: «أنا أطلقت النار.. أنا من اصطاد الطائرة.. الرشاش في المقبرة.. الرشاش مع الشيخ أمين».

رافقه بضعة جنود إلى المقبرة ليدلّهم أين دفن السلاح، لكن قبل أن يدخلوها، توقف قائدهم، وقال: «أنت ستأخذنا إلى هناك كي يقتلنا رفاقك!»، وعلى الرغم من إنكار محمود لمعرفته أحدًا، إلّا أنّ الجنود عادوا أدراجهم خائفين!

نقلوا محمود إلى إدلب.. هناك وضعوه في الدولاب(*) وبعد أربعين ضربة علا صراخه، وقرّر أن يعترف! بماذا سيعترف محمود؟ سألوه: «أنت منظّم مع الإخوان؟». قال: «نعم» - كما علّمه المعتقل صاحب النظرات الحزينة الشاردة، قال له: «قل نعم على أيّ شيء يطلبونه منك كي تنال حريتك» - سألوه: «هل دخلت مقر الحزب يوم المظاهرة، وأخذت سلاحًا، ورميت على الطائرة؟» قال: «نعم».

نقلوه إلى عدنان عاصي الذي تودّد إليه، وقال له: «سنفرج عنك إذا وعدتنا أن تتعاون معنا لمصلحة وطنك». قال محمود: «نعم». وهكذا أخلوا سبيله. لكنّ محمود بقي في البراري سنوات،

(*) دولاب السيارة، يستخدم في التعذيب.

لـم يجرؤ أثناءهـا على الاقتراب من المدينة.. ثـمّ دخلها عصر أحد الأيـام، وجـاب الدكاكين بحثًا عن هؤلاء الذيـن كانوا يحنون عليه، ويواسـونه، وعرف أنّهم جميعًا غابوا بعد نهب دكاكينهم وحرقها.. منهـم من غاب في فتحة القبـر الصغيرة المعتمة، ومنهم من كنسـته جرّافة ليدفن في مقبرة جماعية من دون كفن أو صلاة في اليوم الثاني من المجزرة، ومنهم من غاب في فتحة السجن الرهيبة العتمة!

ما لم يتوقعه أحدٌ من المتحلّقين حول الشكلّ الهلامي لشيء كان جسـدًا، أنّ هذا الذي يلمّون لحمه الملتصق بالأسفلت هو محمود، وقـد عـاد من غيبتـه الثانية! لكـنّ طفلًا محمومًـا كان يرتجف قرب والده، روى فيما بعد ما رآه.. كيف سـحله الجنود على الأسـفلت؟ كيف أطفأوا سجائرهم في عينيه؟ وكيف رموه أمام الدبابة، ومرّوا بها فوق جسـده ذهابًا وإيابًا حتّى لم يعد يبين منه شيء؟ لم يعد محمود يجلـس على مقعـد في محطة «بشـمارون» ينتظر القطـار القادم من حلب، الذاهب إلى السـماء.. لم تعد البراري تضيق بخطواته، لكنّ الناس جعلوا منه بطلًا!

فـي غيبتـه الأولى.. لم يجرؤ أحد على السـؤال عنـه، فقد كانت سياسـة القمـع تُدخل الرعب فـي نفوس الناس والشـكّ حدّ خوف الأخ مـن أخيه. لكـنّ محمود عاد فجأة، ظهر وكأنّه خارج من القبر، لم يسـأله أحد من أين أتى، وأين كان؟ فقط الشـيخ أمين ربّت كتفه،

وأعاده لحراسة المسجد من جديد! لم يكن يعرف أنّ المساجد بيوت الله لا تحتاج إلى حراسة. فرح بمهمته، ولم ينطق حرفًا واحدًا عن سرّ غيبته! لكنّ العذاب الذي تعرّض له ترك آثارًا واضحة على جسده، وأعصابه، فقد كانت التشنجات الرهيبة تفاجئه أثناء سيره في الشارع، فيقع أرضًا، ويخرج الزبد من فمه، وتجحظ عيناه، ويبقى هكذا زمنًا حتى يستيقظ من غيبوبته، ويتابع سيره، غير آبه بجروح جسده النازفة من أثر السقوط!

لم يكن محمود يدرك معنى «النظام» ولم يسعَ يومًا لإسقاطه، لأنّه لا يعرف عنه شيئًا، لكنّ فضوله الذي يدفعه للسير مع الجماعات في الجنائز، دفعه للسير في جنازة لم ينتبه أنّها لشهيد قتلته قوات الأمن، ولم يعرف لمَ كان الناس يصرخون بعبارات لم يفهمها بدل «آجر آجرك الله»، والدعاء للميت! مع هذا كان يصيح بين حين وآخر: «وحدوه» فيلتفت إليه المشيعون ويصرخون: «يا الله ما إلنا غيرك يا الله». ومع أنّ نغمة النداء كانت غريبة على سمعه، إلّا أنّه تحمّس كثيرًا، وصرخ مع الجموع «يا الله»، و«الشعب يريد» على الرغم من عدم وعيه معنى كلمة الشعب، لكنّ إحساسًا غامضًا راوده بأنها تعنيه، لهذا صرخ بكلّ قوته.. على الرغم من القبضة الحديدية التي أحاطت ذراعه، واللكمات التي تلقّاها وجهه، حتّى فاجأته نوبة الصرع، وراح يتخبط بين أرجلهم، لكنّ ذلك لم يمنعهم من سحبه إلى السيارة، وحشره بين أقدام المعتقلين الآخرين!

قارب المحقق أن يفقد عقله وهو يحاول أن يستنطق محمود عمّن حرّضه للخروج في المظاهرة، وكم قبض من المال، والجهات التي تمول المؤامرة على البلد والرئيس. تعرّض لكلّ أنواع التعذيب، ولم تضطره الكهرباء لقول أشياء لا يعرفها! في النهاية حين طلبوا منه أن يوقّع على ورقة كُتبت فيها التهم الموجهة إليه، والإقرار بأنّه كان ينتمي إلى عصابات مسلّحة هدّدت أمن البلد، وقتلت المتظاهرين، وقف مذهولًا لا يعرف ماذا يفعل. لم يكن محمود يعرف القراءة ولا الكتابة، ولم يمسك في حياته قلمًا، وإن تمنّى ذلك وهو طفل، حين كان يراقب التلاميذ من خلال الشبك الحديدي لنوافذ المدرسة، ويستمع بنشوة للأناشيد الجميلة في الحصص الأخيرة حيث يأتي راكضًا بكلّ قوته قبل موعد انصراف التلاميذ، راميًا عنه الفوطة المليئة بالطحين، فارًّا من نار الفرن حيث يعمل. لم يمهله المحقق طويلًا، شدّ كفّه بقسوة، وجعله يبصم على أقواله التي لم ينطق بحرف منها، وأمر بحبسه أيامًا أخرى حتّى يجد من يدفع له مبلغًا ليخرجه من السجن!

الشيخ أمين لم يعد موجودًا ليكفله، ويحميه، ومحمود لم يعد يهتم كثيرًا بأن يخرج من السجن المليء بالقذارة، وأعداد لا تحصى من البشر الذين لا يكادون يجدون مكانًا للوقوف فكيف بالنوم والتنفس؟

شـيء غير مفهوم بالنسـبة لـه حدث جعله خارج السـجن، وجد نفسـه فجأة في الشـارع، لم يعرف أين يذهب؟ ولا أين هو؟! مشـى أيامًـا على قدميه سـائلًا عن القطـار، وقبل أن يصـل المحطة، وقبل أن يعـرف أيـن هـو، فوجئ بدبابـات تتقـدّم نحوه، وجنـود يرفعون أسـلحتهم في وجهه، والرصاص يتطاير حوله. لم يفهم ما حدث.. وحتّـى اللحظـة التي وجـد فيها جسـده مرميًّا أمـام الدبابـة لـم يفقه شيئًا.

«مـات محمود.. الشـعب يريد.. يا اللـه..» كان يردد الفاتحة مع عبارتـه اليتيمـة «مـات محمود». كلمات تشـكّلت علـى هيئة كفن! استفزت قائد الدبابة الذي لم يفهم أنّه أمام رجل مختل عقليًّا.. فأمر بدهسه.

محمـود لـم يكن أوّل ولا آخـر الضحايا، لكنّه تميّـز عن كلّ من قضوا حتّى هذه اللحظة بأنّه لم يكن يعرف القضية التي مات لأجلها، مثله في ذلك مثل أطفال الجسر وتلاميذ الثانوية وطلاب الجامعة!

كانت آية في الثامنة من عمرها في ذلك الوقت، وكانت تعاني من أزمة ربو حادّة، حاولت أمّها أن تمنعها من الذهاب إلى المدرسة في ذلـك اليوم، لكنّها أصرّت وهي تبكي متعلّلة بأنّ لديها امتحانًا، وأنّ المعلمـة هدّدتها بوضـع علامة صفر لها في الشـفهي إن تغيّبت مرّة أخـرى! لم تبحث أمّها عن الحقيقة في الكذبة البريئة التي اخترعتها

آية في سبيل أن تذهب إلى المدرسة، فقد كانت الطفلة تعشق مدرستها، وتجد فيها المتنفس الوحيد الذي يبعدها عن جوّ البيت الصحي المفلتر بمقاييس طبية، فطعامها وشرابها وملابسها كلّ ذلك خاضع للتعقيم! كانت أمّها تغسل الخضر دائمًا بالبرمنجنات حتّى تفقد طعمها الأصلي، وتعقّم ملابسها، وغرفتها، وأشياءها.. وسواس لم تستطع جدتها أن تحدّ منه في البيت، فقد كانت أمّها ترى أنها ستطرد المرض، وتحافظ على صحة ابنتها العليلة. ما لم تستطع زوجة أخي إيقافه.. زحف العنف القاتل الذي جعل رصاصة حاقدة تستقرّ في قلب ابنتها، فتزهق روحها في لحظة. لم تستطع كلّ الإجراءات الصحية التي كانت تتخذها أن تقف في وجه الموت!

دفنّا آية في اليوم نفسه مع عشرات الأطفال، وعدنا من المقبرة في حال من الذهول، ونحن لا نصدق أنّنا فقدناها إلى الأبد، ولن نسمع ضحكتها بعد الآن ولا بكاءها ولا احتجاجها الصارخ على الطعم «الصائت» للطعام الذي تتناوله. أمّها لم تبدِ أيّ تصرف يدلُّ على أنّها فقدت ابنتها الوحيدة، بل تابعت عملها في اليوم التالي، استقبلت المرضى، وعالجتهم كالعادة، وعادت إلى البيت، وقامت بتعقيم ملابس آية، وطبخت الخضر المغسولة بمحلول طبي، وجلست إلى المائدة بصمت.. كان ذلك قبل اعتقال أخي بيوم!

عندما اقتحموا بيتنا في الحادي عشر من آذار 1980 وأفرغوه من الرجال، لم أكن أدرك أنّ حجم الفاجعة أكبر بكثير من حماسي

الذي جعل مخيلتي تخترع صورًا للبطولة على هيئة أبي وأخوتي، وأنّ الأمر يدعو للفخر، وعليّ أن أفرح لأجله لا أن أحزن.. ولهذا كنت أستقبل وفود النساء اللواتي جئن للمواساة والسؤال عمّا جرى بابتسامة، وربّما أضحك أيضًا حتّى أنّ عمتي قالت لي: «عيب، الناس ستتكلم عليكِ، أنت لا تهتمين لاعتقال والدك وأخوتك!». كلماتها أشعرتني بالمرارة، لكنّي سخرت منها في ذلك الحين.. بعد ذلك التاريخ بأقلّ من عشرين عامًا، ذكّرتني عمتي بقولها ذاك، كنّا وقتها نودّع أبي إلى مثواه الأخير.. وتحت زخات المطر التي تحمل ريح ثلج قادم.. وقفت عند قدميه في المقبرة لأقرأ له سورة يس أنا ومَنْ تبقى من نساء العائلة! مات أبي وهو يحمل حسرة في القلب لفقده أخي الذي لم يُعرف مصيره منذ نُقل إلى سجن تدمر عام 1985. قالت عمتي: «رحمه الله لم يترك وراءه من يشعر بحجم فجيعته وألمه!». على الرغم من الجرح العميق الذي تركته كلماتها في نفسي إلّا أنّني لم أردّ، كانت محقة من وجهة نظرها على الأقل.. فهي ترى تصرفاتي، ولا تدرك ما بالقلب! توفي والدي في التاسع والعشرين من كانون الأول عام 2000 بعد موت الديكتاتور الأب بأشهر، مع هذا لم ألمح الفرحة في عينيه عندما سمع نبأ وفاته، مع أنّه عاش عمره يتمنى أن يرى ذلك اليوم.. ربّما شعر باليأس ساعتها لأنّه يعرف ما ستؤول إليه الأمور من توريث للسلطة، وبقاء ابنه البكر في المعتقل إلى ما شاء الله.. هذا إن كان يعتقد أنّه على قيد الحياة!

بعد وفاته بأشـهر كانت الشـائعات تملأ البلدة عن مرسـوم سيصدر بالإفراج عن المعتقلين السياسـيين، وعن إصلاحات كبيرة سـيقوم بها الرئيس الجديد للبلاد!

كانـت يمامة عائدة من المدرسـة في أوائـل الخريف عام 2001 عندمـا اصطدمـت برجل غريب يقـف أمام المنزل يتأمـل الحديقة، ويلمـس بكفيـه الزهور المتناثـرة فيها! مـات أبي، وتـرك وراءه من يحمـل فـي قلبه حـبّ الطبيعة التـي زرعها بـكلّ جوارحـه أملًا في مستقبل أفضل...

الرجـل الغريـب كان يتكـئ علـى عصـا، ويجـرُّ إحـدى سـاقيه بصعوبـة. لـم تعتذر يمامة، ولم تسـأل الرجل عمّا يريـده، بقيت في وقفتها جامدة تتأمل ذهوله، ولحيته الكثيفة، وعينيه العميقتين اللتين تشـبهان عيني جدها حدّ التطابـق.. لم تدرك في تلك اللحظات أنّها تقـف أمام أبيها على الرغم من الإحسـاس الدافئ الذي غمر قلبها، وأنطقها أخيرًا:

ـ من تريد عمو؟

نظر إليها بدهشة، وقال ببطء:

ـ يمامة! لم تتغيري طيلة ذاك الزمن! يا للمرارة! كيف اسـتطعتِ أن تكوني...؟!

لم يكن أخي في تلك اللحظة يدرك أنّه يرى ابنته، التي لم يعرف أصلًا أنّها موجودة، فقد ولدت في غيابه، ولم نتمكن طيلة فترة سجنه من معرفة أخباره.. فقط تصلنا بعض أخبار متناقضة وغامضة ممن يخرجون أنّهم التقوا به يومًا، بعضهم يقول في فرع فلسطين، وآخرون في «عربين»، والبعض يؤكد أنّه لم يبرح سجن تدمر!

يمامـة طالبة الثانويـة العامة فهمت بسـرعة أنّ الرجل خلط بيني وبينها، ربّما لشدّة الشبه، وربّما لإحساس خاص به، تهيّأ لها أنّه أحد أصدقائي القدامى، فركضت إلى الداخل وهي تنادي:

ـ عمتي، هناك رجل يريدك.

لكزتها في كتفها وأنا أضحك، وقلت:

ـ هناك رجلٌ يسأل عني، تعلّمي أن تختاري ألفاظك.. لم تعودي صغيرة!

داعبتْ رأس ابني، وقالت:

ـ والله يا عمتي أنا أغبط نور، وأكاد لا أشعر أنّي أكبر منه.

ضحكتُ ثانية وأنا أخطو خارج الصالة. قلت:

ـ كلّها عشر سنوات بينكما، يعني ببساطة هو أكبر منك عقلًا.

ركضتْ إلى الأرجوحة، وضعته في حضنها، وصرخت:

ـ عمتي، ادفعينا قليلًا.

في تلك اللحظة ارتجّ جسدي، وسقطت أشياء من يدي، لا أعرف ماذا كنت أحمل! لا أدرك جيدًا ما الذي حدث.. دارت الدنيا بي، وكدت أقع أرضًا، أمسكت بالباب جيدًا.. لو أنّي أعرف كيف يخرج الأموات فجأة من قبورهم لقلت إنّ أخي بُعث في تلك اللحظة من قبره. كانت هيئته تفصح عن المكان الذي عاد منه.. لم يكن بحاجة ليقول شيئًا، ولم نكن نحتاج شيئًا سوى الدموع!

يمامة ونور اندفعا معًا لمعانقة الرجل، الذي احتضن ابني وقبّله، وشمّه بعمق، ومسح رأس يمامة وهو ينظر في وجهي متسائلًا!

مرّت شهور حتّى استطاع أخي أن يستوعب وجوده بيننا، لم يخرج فيها من البيت سوى إلى الحديقة، يشذب الزرع، ويعيد تشذيبه في اليوم التالي! ولا أحد منا يعلّق على تصرفه ذاك. كنت أجلس بجانبه لأحكي له عن الأيام كيف مرّت في غيابه.. كيف تزوجت وأنجبت؟ وكيف سافر زوجي ولم يعد؟ وكيف توفي أبي وأختنا الصغرى؟ وكيف هاجر بقية أخوتي إلى اليونان وبعدها إلى ألمانيا؟ وكيف.. وكيف! لكن لم أجرؤ مرّة أن أسأله كيف وأين قضى كلّ تلك السنوات؟

يبدو أن علاقته بزوجته لم تكن على ما يرام، فقد انتقل بعد شهر واحد إلى غرفة الجلوس، ومنعته أمّي من النوم فيها، ووضعت له سريرًا في غرفة أبي الخاصة، وكانت مقفلة منذ وفاته!

نوبـات ألـم فظيعـة كانت تفاجئه وتتركه طريـح الفراش أيامًا. لم يعـرف الأطباء السـبب في ألــم الـرأس القاتـل، وردّه البعض منهم «همسًـا» إلى وجبات التعذيب التي تعرّض لها في السـجن! وشـئنا أن نصـدّق أنّـه لا يوجد حل لذلك الألم سـوى الراحـة، والبعد عن الانفعـال والحبـوب المهدئـة! هـذا كلّ مـا يملكـه الأطبـاء عندنا! نصائح لا علاقة لها بالعلم سوى ما يخدم جهلهم!

ألم الرأس ذاك تطوّر إلى حالات غريبة من الغيبوبة، كانت الحمى أثناءهـا لا تفارقه.. يهـذي، ويطالبنا بأن نخرج من الغرفة جميعًا، ثمّ يناديني لأبقى، وأمسك يده، وأقرأ. يهمس من روح معذبة:

ـ كنـت تقرئيـن لـي في السـجن.. لـو تعلمين يـا يمامـة كم كان حضـورك يخفـف عني.. لا أريـدك أن تري آثار التعذيب الوحشـي الـذي تعرضت له.. لكنّي أودّ أن تعلمي أنّ حضورك هناك هو الذي سـاعدني علـى التخفف من الألـم، حتّى أنّـي فكّرت يومًـا أنّك لم تفارقيني أبدًا.

كنـت أعلم.. بروحي كنـت أعلم، وكنـت أرى.. رأيته والطبيب يكشـف عـن جسـده ليحقنـه بإبـرة مهدئـة.. رأيـت كيـف حفـرت السلاسل ساقيه.. رأيت الدمامل في جنبيه، رأيت..

ليتني لم أملك عينين في تلك الساعة! ليتني...

لـم يشـأ أخـي أن يبقـى بيننـا طويلًا، ربّما لـم تسـتطع روحه أن تحتمل الحياة أكثر من سـبع سـنوات بعد خروجه من السجن، وهو يعاني من آلامه بسـبب فشـل كلوي لم يكتشـفه الأطباء سـوى قبل وفاته بشهور!

لكـن خلال تلك السـنوات أصبحت علاقته متينـة بيمامة ونور، خصّهما بحكايات السجن، ومعرفته التي اكتسبها من خلال علاقاته ببشر مختلفين عن هؤلاء الذين يتمتعون بالعيش خارج القضبان!

أصـرّت أمّـي أن تدفنه فـي مقبـرة عائلتها قرب جده فـي أريحا، كانـت حجتها أنّها لا تريـد أن تفترق عنه حين تمـوت، فقد أوصت أن ندفنها أيضًا هناك، ولـم تشـأ أن يكون لها قبر منفرد، كانت تذكّرنا دائمًـا «أوصيكـم بأن تدفنوني في قبر أمّي.. أريـد أن أكون معها دنيا وآخرة».

أنظـر الآن حولي، فلا أرى للزهور أثرًا، ولا للبشـر! وحدي في البيت المقفر سـوى من الذكريات، بيتٌ تسـكنه أطياف من رحلوا، أحاديثهـم، ضحكاتهـم، اجتماعاتهـم.. أرى الآن الصالـة الكبيـرة الفارغـة.. هنـا كانت العائلـة الكبيرة تجتمع فـي أول أيام رمضان.. طقسٌ كان أبي يصرُّ علـى عدم التخلي عنه لأنّه كبيـر العائلة، الكلّ يجـب أن يفطروا فـي أوّل يوم على مائدته! هـو الكبير، الكلّ يجب

أن يكونوا في بيته أوّل أيام العيد بعد زيارة المقابر! من بيته يخرج أموات العائلة، وفي بيته يجب أن يكون مجلس العزاء!

هنا كان التلفزيون «الأبيض والأسود» يلم العائلة الكبيرة في السهرات الصيفية حول مسلسل «قيس ولبنى(*)».. وهنا كانت عمتي تجلس كلّ عصر لتتابع «فارس ونجود(**)».. يا إلهي كيف يمكن للجدران أن تحتمل كلّ هذا الحضور.. وكلّ هذا الفقد؟!

نهضتُ في الصباح الباكر ممتلئة بصورهم وأحاديثهم وحضورهم. أصوات القصف لم تمنعني من صنع فنجان قهوة، والجلوس في الحديقة وسط البرد والخواء! من «مذياع» صغير خرج من الماضي كنت أسمع صوت فيروز ينطلق معلنًا حضور الصباح «بقطف لك بس» في برنامج مرحبًا يا صباح!

كم مرّ من الزمن لم أسمع هذه النغمة المميزة لهذا البرنامج الصباحي الذي تبثه إذاعة دمشق في السابعة إلّا ربعًا صباحًا! ذلك الصوت الذي كان ينبّهني إلى أنّ أبي رحمه الله يتناول الآن كأس الشاي وهو يتأمل زهور الحديقة، بعد أن انتهى من رياضته الصباحية وحلاقة ذقنه، وسماع أخبار إذاعة لندن في السادسة والنصف.. وتناول فطوره. النغمة في نهاية البرنامج تعني أنّه الآن

(*) مسلسل لمحمد العربي وعفاف شعيب، عرض في أوائل السبعينيات.

(**) مسلسل لسميرة توفيق ومحمود سعيد، عرض في بداية السبعينيات.

أنهى ارتداء ملابسه، وخطا أولى خطواته خارج المنزل متجهًا إلى السوق ليحضر لوازم البيت قبل ذهابه إلى عمله!

تلك الدقة في المواعيد التي حرص أبي عليها، كانت سببًا من أسباب نجاحه في مهنته وحياته. دقةٌ تعلّمتها منه في بداية حياتي.. ثمّ استسلمت للكسل، بعد عودتي من الخليج وبقائي من دون عمل.. إذ ليس ثمّة عمل لمن لا ينتمون إلى حزب البعث، ولا يطبّلون للسلطة الحاكمة، ولا ينافقون لمن هم في مراكز تجعل بيدهم مصير الناس!

أيقظني من النوم رنين الهاتف المفاجئ، نظرتُ في الساعة، كانت الثالثة ليلًا.. من يتصل في هذا الوقت؟

على الطرف الآخر سألني صوتٌ لا أعرفه: «عفوًا خالتي على الإزعاج، هل نور هنا؟». قلت: «ليس هنا، من يريده؟». قال: «لا بأس يا خالتي لا شيء مهم». وأغلق الخطّ! لا شيء مهم؟ ويتصل بعد منتصف الليل.. ولا يقول من هو!

منعني القلق من العودة إلى الفراش. صنعت فنجان قهوة، وجلست على حافة السرير.. يدي ترتعش، ومخيلتي تنشط في نسج الأحداث الأكثر سوءًا.. ماذا حدث يا ترى؟ من هذا الشاب؟ ومتى جاء نور إلى الجسر؟ وماذا كان يفعل؟ أسئلة وضعت لها عدّة

إجابـات، كانت كلّها لا تدعو للارتياح. اتصلت على هاتفه النقّال.. «مغلـق أو خـارج نطاق التغطية». كـرّر المجيب الآلي هـذه العبارة مئات المرّات قبل أن تطلّ الشمس، وأخرج للمشي قرب النهر بحثًا عن صفاءٍ ذهنيٍّ يقرّب المسافة بيني وبين الحقيقة.

***

سمك ميّت

في صفحتي على الفيس بوك ترك لي «حنظلة» ملاحظة يقول فيها:

سافرت إلى الريحانية بصحبة شباب يحملون شحنة أدوية وغذاء للنازحين. هناك التقيت في مخيّم «خربة الجوز» أثناء عودتي طبيبًا يقوم بإسعاف الجرحى الذين يصلون من الجسر وعين البيضا ومناطق أخرى منكوبة. جلسنا على تلة عالية نراقب الأفق البعيد، ومنزلًا متفردًا بموقعه يطلُّ على أشجار دائمة الخضرة تمنحه شفافية لا تمتلكها القصور! ويشوّه هدوءه وجماله منظر قنّاصة يتربّصون على سطحه بالنازحين. المشهد كان لوحة للجمال والقبح، يندمجان فيشكّلان واقعًا لا يمكن تجاهله بكلّ تفاصيله المحيّرة.. إذ كيف لإنسان يمتلك قدرًا بسيطًا من الإحساس بإنسانيته أن يقبل بخلط الأوراق بهذا الشكل المهين؟! حدّثني عن فيلم أجنبي شاهده في الثمانينيات بعنوان «القيامة الآن!»، واليوم يعيشه واقعًا. قال:

ربّما لا تختلف الجسر عن غيرها من المناطق الساخنة في سوريا، لكنّها تملك خصوصية في كونها تعيش المجزرة مرّة ثانية

بالسيناريو نفسه والإخراج الرديء للجزارين والإعلاميين.. حتّى الأيدي التي قامت بتنفيذها هي وريثة المنفذين الأوائل في الحقد الطائفي والعقائدي. أعرف أنّك ستضع خطًّا أحمر تحت كلمة طائفي، كما يفعل معظم السوريين الذين يؤمنون بكون سوريا وطنًا لكلّ السوريين بغض النظر عن الدين والمذهب وحتّى القومية؛ لكنّي لا أستطيع أن أنظر للأمر من زاويتي فقط، وكأنّي أعيش في كوكب آخر، والسلطة تجيّش هذه الأحاسيس لدى الأقليات، وتسعى بكلّ وسائلها القمعية لجعل الثورة ذات صبغة طائفية. لماذا عليّ أن أكون نعامة أدفن رأسي في الرمال، ولا أرى إلّا أفكاري؟ أنا سوري بامتياز، وأعرف معنى المواطنة، لكنّي لا أستطيع التغاضي عن المرارة التي يغص بها حلقي، وتمنعني من التنفس بحريتي. أحيانًا تغمرني نوبة يأس تجعلني أكفر بالحريّة، وأتساءل هل تستحق كلّ هذا الثمن الذي ندفعه؟ قدوم المزيد من النازحين إلى المخيّم، وتساقط المزيد من الجرحى والشهداء يعيدني إلى صوابي، فأتابع عملي بتصميم على التماسك ومواصلة مهمتي الإنسانية التي تشعرني بقليل من الارتياح. لن يستطيع الرضا اختراق هذا الكم الهائل من الحزن والرعب والترقب والقلق من مستقبل غامض الملامح. نحن في الأصل لم يكن لدينا الفرصة الكافية للتفكير بالمستقبل، كنا مدفوعين بقوة خفية للمحافظة على حياتنا، ربّما هي غريزة البقاء، جعلتنا نهرب من الجحيم الذي

اصطلت به الجسر عقب الذكرى الرابعة والأربعين للنكسة. أعرف الخاطر المضحك الذي قد يراودك جراء هذا الربط، لكنّي أتذكر وأنا على أعتاب الشيخوخة الآن ما كان في ذلك الوقت.. كنت أظن أنّ نكسة حزيران ستكون آخر الخيبات! كنت في تلك الفترة في فورة شبابي واندفاعي، محتشدًا بالأفكار المثالية التي عبّأت القلب بمشاعر الثورة والانتصار.. إعلام كاذب، وأغانٍ تلهب حماسنا، والعدو يصلينا بنار طيرانه ومدافعه. المشهد كان جزءًا من الجحيم.. كنت أظنّ أنّه لن يتكرّر أبدًا.. لكنّ تاريخ الخيبات تكرّر في مهزلة حرب تشرين التحريرية! كنت وقتها في الجبهة أعالج الجرحى كما الآن، واعتقدت أنّنا استعدنا كرامتنا وانتصرنا! لكنّنا اكتشفنا فيما بعد حجم الخديعة التي عشناها.ما عشته في الحربين لا يقاس بأيّ شكل بالأيام الثلاثة التي عشناها وسط الجحيم قبل أن نهرب من الجسر!

اعتادت المرحومة جدّة يمامة على زيارة بلدتها كلّ يوم جمعة، وقد حاولنا منعها من الذهاب، لكنّها أصرّت، وقالت لا تريد لروح ابنها أن تشعر باليتم، لقد اعتادت أن تزور قبره وقبر أمّها وأبيها صباح كلّ يوم جمعة مهما كان الطقس سيئًا.. لكنّ الأمر هذه المرّة لم يرتبط بسوء الطقس بل باحتمال اقتحام البلدة بعد مظاهرات الاحتجاج التي نادت بسقوط الديكتاتور.. وكي تشعرنا بالأمان

قالت إنّها لن تسافر يوم الجمعة باكرًا كما تفعل عادة، بل ستسافر ظهر الخميس كي تصل قبل المغيب بأمان! رضخنا لرغبتها.. ودّعتنا، وأطالت عناق يمامة، وأوصتها خيرًا بالجريح الذي أسعفناه في منتصف أيار من موت محتم!

في الصباح الباكر أيقظتنا، وقالت إنّها اتّفقت مع سائق سيأتي ليأخذها إلى أريحا. استغربنا هذا التغيّر المفاجئ.. لكنّها قالت إنّها تستبشر بإشراقة الشمس، والسفر باكرًا، فقد بدأ الجوّ يصبح حارًّا! لم يكن كلامها مبرّرًا ولا صحيحًا فحزيران هذا العام كان لطيفًا! لم يمضِ على مغادرتها البيت نصف ساعة حتّى سمعنا صوت جنازير الدبابات والآليات العسكرية والرصاص...

من شرفة البيت رأيتهم وهم يتقدّمون. كيف أستطيع أن أصف لك شعوري في تلك اللحظة؟ ذلك أصعب بكثير من الحديث عن تقدّم الجيش الإسرائيلي في الجولان واحتلاله القنيطرة في حرب الأيام الستة. ربّما لحكمةٍ لا أدركها كنت شاهدًا على حربين مع العدو الإسرائيلي، ومجزرتين في جسر الشغور.. هذه التواريخ لن تبرح ذاكرتي ما حييت «67 / 73 / 80/ 2011»، هذا إن كُتب لي عمر، فالمقيم هنا في المخيّم يعدُّ أيامه بل ساعاته.. ليس هناك أمان ونحن نرى القنّاصة على مدِّ النظر يترصدون القادمين والمغادرين ليتسلّوا باصطيادهم! حاولت أن أستوعب مرارًا تلك الشهوة

الوحشـية للقتل، ولم أستطع.. أفكّر أحيانًا بإحساسي عندما أطلقتُ أوّل رصاصة على صدر جندي إسرائيلي.. كنت مضطربًا، ومذهولًا مـن كوني اعتديت على روح بشـر! لم يكن هيّنًـا عليّ التخلص من شعوري بالإثم، لأنّي كنت أملك يقينًا زرعته أمّي فيّ منذ الصغر بأنّ الرّوح ملك خالقها، ولا يحقُّ لبشر مهما كان أن يأخذها بدلًا عنه!

في الحرب الخاسرة الثانية، كنت قد تسلّحتُ بأفكار أخرى بعيدًا عـن المثاليات والنزعة الدينية التي تربيت عليها.. مع هذا كان القتل يشـكّل لي أكبر أزمة نفسـية تلاحقني في صحوي ومنامي، وتتشكّل كوابيـس لا تنتهـي. مهما حاولت إقناع نفسـي أنّ القتـل هنا واجب وطني.. فكيف أسـتطيع الآن أن أسـتوعب أنّ سوريًّا يمكنه أن يقتل سـوريًّا مثله؟ كيف؟ كثيرًا ما تسـاءلت «هل حقًّا هؤلاء بشـر وكانوا يعيشـون بيننـا كلّ هذا الزمن؟». أسـتغرب حقًّا أنّنا عشـنا حياتنا في خديعة المواطنة والممانعة والصمود والتصدي و... ما أحقر ذلك! وما أغبانا! كيف صمتنا كلّ ذلك الزمن؟!

قاطعته سائلًا:

ـ ماذا حدث لجدّة يمامة؟ ألم تعرفوا عنها شيئًا؟

تنهّد وهو يشعل سيجارة أخرى:

ـ بلـى.. لقد استشـهدت في مدخـل المقبرة صبـاح الجمعة في العاشـر من حزيران حين اقتحم الجيش أريحـا وحاصر المقبرة في

المدخل الشرقي بحجة وجود عصابات مسلحة هناك! ربّما كان الأموات يخطّطون يومها للخروج من قبورهم بعد أن تسلّحوا بمواد شيطانية لا يمكن للأحياء أن يدركوا ماهيتها.. فقد صليت المقبرة بنيران الدبابات، وانتشر الجيش حولها محاصرًا القبور لمدّة ساعتين قبل أن ينتشر في البلدة، ويحتلّ أحياءها، ويعتقل رجالها، ويعيث فسادًا في بيوتها. من عادة نساء البلدة أيام الأعياد والجمع أن يزرن قبور أحبائهن، يرششنها بالماء، ويزرعن الورد، وينظفن القبور، ولا مانع لديهن بعد قراءة ما تيسر من القرآن أن يتبادلن الحديث حول الدّنيا وما يجري فيها! أو يحاورن أرواح من رحلوا، ويخبرنهم بما يجري، لاعتقادهن أنّ الأموات يسمعون في هذا التوقيت من صباح الجمعة، وأرواحهم ترى زائريهم.. لهذا ينزلن لزيارة المقبرة قبل شروق الشمس، في الغبش الصباحي الذي يعقب الفجر.. ويغادرن قبل وصول الرجال إلى المقابر. لم يكن في المقبرة في السادسة صباحًا حين اقتحم الجيش أريحا سوى بضع نسوة غادرن على عجل والهلع يقتلع قلوبهن. وقيل لنا إنّ جدة يمامة لم تكد تصل آخر سوق الهال، وقبل أن تنعطف في الزقاق المؤدي إلى بيتها فاجأتها رصاصة في الصدر. نقلها بعض الشباب إلى بيتها إذ كان من المستحيل تجاوز ساحة السوق والنزول إلى أحد المشافي التي كانت مغلقة في الأصل! بقيت تنزف حتّى فارقت الحياة صباح السبت.. ودفنت يوم الأحد بعد تراجع الجيش إلى مداخل البلدة،

ونصبه الحواجز الأمنية في المفارق المؤدية إلى المدينة.

هكـذا ارتاحـت روحهـا كما أرادت! أمّـا أرواحنا نحـن الأحياء فمن يريحها؟

قلت بتلقائية: «ربّما رصاصة من قنّاص».

قال:

ـ من يـدري ربّما تكون على حق، بعض الموت أرحم بكثير من حياة لا طعم لها، وإن وجد فطعم المهانة والذل لا غير!

رنـا إلى الأفق البعيد، نظراته كانت تشـف عن ذلك الحزن الذي يصعب تصنيفه فهو مزيج من ألم وأمل. نفخ دخان سيجارته، ومسح حبات العرق عن جبينه، وهو يقول:

ـ فاجأنا الطقس هذا العام بما لم يكن في الحسـبان، فهو متقلّب لا يـكاد يثبـت على حال، أحـسُّ أحيانًا أنّ الطبيعة تتواءم مع البشـر فـي حالات حزنهـم وفرحهم وضيقهم، فكثيرًا مـا ترافقت لحظات الفـرح التـي عشـتها بنفنفـة تلامس وجـه الأرض من سـماء صافية لا تكاد غيومها تظهر للعين! وهذا ما حدث في بداية الثورة. لا شكّ لاحظـت أنّ الربيع طال حتّى منتصف حزيـران.. فقط الآن صارت الحرارة خانقة والجوّ لا يطاق، وأكاد أكون على يقين أنّ ذلك مرتبط بمقدار ما نحمله في دواخلنا من يأس يدفع بنا لرؤية الوجه الأكثر قتامة

للنهايـة.. أكاد أملك تصورًا عن المجازر التي تتصاعد وتيرتها كلّما طـال عمر الثورة. أكاد أجزم أنّي يئسـت تمامًا مـن حدوث معجزة، ربّما لأنّ زمن المعجزات قد ولّى!

فـي بدايـة رحلتنا إلـى هـذا المخيّم امتلكـت أملًا كبيرًا بسـرعة التغيير، قد يكون لسـيناريو الثورة التونسية والمصرية أثره في ذلك، وقـد يكون ذلك الجريح الذي تحمّلت تبعة حمله على عربة يجرّها حمـار طيلة الطريق من جسـر الشـغور إلـى هنا! غادرنا الجسـر في السـاعة الواحدة ظهرًا، وبسـبب كثافة التواجد الأمني سـلكنا طريق الجانوديـة. لـم يكـن بإمكاننا العبور مـن دركوش، كانـت مداخلها مقطّعـة الأوصـال بالدبابـات والحواجـز الأمنيـة.. سـلكنا الطـرق البعيدة عن القرى المأهولة بالسـكّان حتـى وصلنا الحدود التركية، وسلّمنا الجريح لرفاقه.. أظنّكَ تعرفه؟

تمتمـتُ بحنق: «عزّ المعرفة». لم يتوقف عند كلماتي، وأراحني ذلك.. تابع قائلًا:

ـ الجريح كان من ضمن خمسة عشر قنّاصًا تمركزوا على سطح بنـاء في مدخـل المدينة لمدّة أسـبوع قبل الاجتياح الوحشـي الذي ذهـب ضحيته المئات مـن الجنـود والمدنيين. حدّثنـي أنّه كان من فرقـة الموت تلك، وأنّه قتل الناس بكلّ برود، لكنّه أحسّ في لحظة ما أنّه لم يفكّر يومًا بقيمة وجوده كما حدث في اللحظة التي رأى فيها

الجنود يقتحمون البيت، ويصوبون أسلحتهم إلى رأسه وهو جريح ومقيّد إلى السرير، خاصة وأنّه منهم! أنا لم أصدّق كثيرًا ما رواه لي، لكنّي لا أحاسب النّاس على النوايا، وليس أمامي سوى أن أتعامل معه على أساس صدق أحاسيسه وتوبته! توسل إلينا أن لا نتركه وحده هناك، تحمّلنا الكثير من الخطر في سبيل إنقاذه وإيصاله إلى الحدود التركية حيث التقى هناك باثنين من زملائه.. الغريب أنّهما لم يرحبا بفكرة وجوده معهما، لكنّهما استجابا لرغبتي في مرافقته للعلاج داخل تركيا، فما نملكه هنا في المستشفى الميداني لا يكاد يفي بالغرض لإسعافات أولية، وعمليات إخراج الرصاص عمليات بدائية غالبًا تتم من دون تخدير، وتعتمد على قوة تحمل المصاب للألم!

*****

غادرتُ المخيّم صباح اليوم التالي بصحبة الشباب العاملين بالإغاثة، قاصدًا جسر الشغور...

بعد أن تجاوزنا تل «كشفهان» الأثري في الشمال الشرقي للمدينة، وأشرفنا على السهل، فوجئنا بوابل من الرصاص أعادنا إلى التل مرّة أخرى. اضطررنا إلى النزول من السيارة، والابتعاد مسافة عنها تجنبًا لرصاص القنّاصة. الشباب آثروا العودة من طريق آخر، أمّا أنا فلم أكن مستعدًّا للعودة.. بقيت مكاني أراقب ما يجري منتظرًا الفرصة المناسبة لدخول المدينة.

تقدّمت فرق الموت في السهل الأجرد إلّا من بقايا هشيم خلّفه حصادٌ لسنابل القمح، وترك وراءه حرائق تنوس شعلاتها كجمرات في موقد فحم. رماد على مدّ النظر.. لا شيء سوى الرماد.. والدبابات تتقدّم.. تحصد في طريقها ما تبقى من مواشٍ شاردة، وتكوّمها بجانب أخرى نفقت من فترة وعلاها ذبابٌ كثيف.

الدبابات تتقدّم.. والجنود المبتهجون بالنصر والتّحرير يطلقون المزيد من الرصاص. انتهوا الآن من قتل المدنيين واعتقال بعضهم، واستباحة بيوتهم ومحلاتهم وأعراضهم، وعادوا بغنائم لم يحلموا بها في حياتهم.. عشر فتيات جميلات وعشرين شابًّا مقيّدين بالأسلاك الشائكة، والكثير من البضائع النفيسة.

توقفوا في السهل، كان عليهم أن يستريحوا قليلًا، ويتناولوا طعام الغداء. خلف دباباتهم جلسوا، ومدوا أرجلهم، وعلت أصواتهم بالغناء!

النقيب خضر أراد إعدام الرجال انتقامًا لما جرى على الحاجز صباح ذلك اليوم. ما زال منظر الجندي المرمي بين قدميه يشعره بالخوف، ويدفعه للمزيد من القتل ليثبت لنفسه قبل الآخرين أنّه لا تنقصه الشجاعة والجرأة للقيام بتنفيذ عقوبة الموت بالآخرين. ماذا يهمُّ بحق الجحيم إذا أطلق النار على أناس أبرياء؟ خطرت له الفكرة قبل أن يطلق النار على الضحية العاشرة.. امتلك اليقين أنّ

ذلك لم يكن كافيًا لإرهاب «فكرة» الموت المخيفة التي تشبثت بأعصابه.. فهو لن ينسى يد المجند المطبقة على تميمة خضراء كانت معلقةً في عنقه.. لن ينسى كم احتاج من القوة لفتح أصابعه المتيبسة حول القماش الأخضر. لم يكن خضر يومًا يؤمن بالقوى الخفية التي حدّثه عنها المجند البسيط «أبو علي» في سهرة البارحة حين فاجأه وهو يربّت صدره، ويتمتم بكلمات غريبة. لم يلحّ في السؤال، المجند المرتبك اضطر لإخباره بالحقيقة، إنّها أمّه، قصدت شيخ القرية وحاميها، فكتب لها حجابًا يمنع الثوار من المساس بابنها بأيّ سوء. حين ضحك خضر ساخرًا احتقن وجه المجند، وارتسمت على محياه ملامح ذعر وحذر. سايره قليلًا، شرب معه المتة، وتباسط أكثر، فطلب منه أن يريه ماذا يوجد داخل التميمة. حينها قفز المجند مذعورًا، وقال: «لا يا سيدي، إن فتحتها سأقتل في الغد.. إنّها تحميني من نيرانهم ما دامت مغلقة وقريبة من القلب».

«كم كان غبيًّا!»، تنهّد خضر وهو يطلق شتيمة مقذعة إثر تلك الكلمات.. أيّ غباء! ها قد قتل والتميمة قريبة من قلبه! فتحها خضر، وتأمّل طيّاتها، وانتزع من داخلها ثلاث ورقات مستطيلة طويت بالطريقة نفسها وكأنّ من طواها تدرّب على صنع الطائرات الورقية للصغار! كانت تحتوي على كلمات مبهمة فيها ألفاظ الجن، وكلمات لا معنى لها صفت من دون غاية، وكلمات حشر فيها اسم

النبـي «وكلّـم موسـى تكليمـا» ومحمـد صلى اللـه عليه وسـلّم... ضحك خضر ضحكة مجلجلة، ورمى التميمة بعيدًا، وهو يشـتم أمّ من كتبها ومن أحضرهـا ومن علّقها في رقبته، وربّ هؤلاء الأغبياء الذين يعتقدون بوجود رب في الأساس!

أطلق النّار في الهواء مرّات ومرّات، لم يكن هناك أسرى آخرون يتسـلّى بإعدامهـم لينتقـم لنفسـه من كلّ هـذا الحقد الـذي اجتاحه كطوفـان لا يهـدأ...أيّ عدالة فـي موت جندي يؤمن أنّـه يدافع عن قضية عادلة؟!

كان عليه أن يتحلّى بالشـجاعة ليسـتطيع أن ينظـر باحتقار للحق والعدالة. الشجاعة! ابتسم للفكرة، وبقيت شفتاه مطبقتين. تغرغرت ضحكة مفتعلة داخل حلقه، سُـمع لها صوت طقطقة غريبة.. حاول أن يبتلعهـا قبـل أن تغـص بهـا حنجرته، لكنّها سـبقته، وشـهق بقوة كادت تخنقـه. لـم يكن يهتم إن قتل نفسًـا واحـدة أو ألفًا، لأنّ الإثم واقـع عند عملية القتل الأولـى، ما تبقى مجرد تكرار أجوف لا قيمة لـه؛ لكـن هذا التكرار يمنحه الهدوء والراحـة، يبدو الأمر كما لو أنّه لـم يقم بعمليـة القتل أصلًا.. أو ربّما هو تبلّد في الإحسـاس يجعله يحاكم الأمور بمنطق منفصل عنه كليًّا.لن يستطيع القيام بفعل القتل ما لم ينظر إليه على أنّه خير مطلق، فقتل الآخر فيه تعويض كبير عن خسـارات محتملة فيما لو بقـي على قيد الحياة. لهـذا فالقيام بفعل

القتل بالنسبة لخضر وصولٌ للمطلق، يجعل ما دونه من أفعال قذرة تبدو عديمة الجدوى أخلاقيًا، إذ لا يمكنها أن تحقق هذا الوصول! يكاد يقينه يكون مطلقًا بأنّ القتل - من دون وجود مقابل - شرٌّ مطلق؛ لهذا فهو يقتل مقابل ارتقائه إلى مراتب أعلى وحصوله على ما يحلم به من سلطة مطلقة!

ابتعد عن الجثث، وسار حتّى وصل الشارع العام. هناك قَنَص سيارة عابرة يقودها شاب ومعه فتاة. أوقف السيّارة، أنزل الشاب منها وأرداه قتيلًا برصاصة في الرأس! سحب الفتاة من شعرها، وأخرجها من السيارة، ورماها أرضًا.. عرّاها بعنف، وأطفأ كلّ ما يعتمل في صدره من حقد في جسدها... عندما انتهى خلع إطار السيّارة، وجلس عليه، وراح يتأملها وهو يدخن السجائر. كانت تستغيث بنخوة أشخاص لا يعرفون ما النخوة! صرخت تستنجد بضمير بقية الجنود الذين كانوا يراقبون المشهد من بعيد!

أسكت صراخها برصاصة، وبصق جانبًا «بنت العاهرة كيف تتجرّأ على الصراخ؟».

اعتلاها ثانية.. شعر بلذة غريبة.. الآن فقط يستطيع أن يفعل ما يريد بها من دون أن تجرؤ على المقاومة! أخرج سكينًا من جيبه، كشط جلدها.. لحس الدم النازف منه، وبصق في وجهها. نهض من فوقها.. داس نهديها بحذائه العسكري.. مرّغها بالرماد.. ببقايا

الطين الندي.. ثمّ شدَّ رأسها إلى حضنه، وراح يجزُّ شعرها بسكينه وهو يضحك مقهقهًا لمنظرها البشع. صاح بأعلى صوته: «كم أنت مقرفة!» ورماها بعيدًا.

اعتلى خضر الإطارات المرصوفة فوق بعضها، وراح يفرغ أمشاط الرصاص في كلّ الاتّجاهات. ملأه الزهو، وطفح قلبه بسعادة مفاجئة. كان عليه أن يعبّر عن تلك البهجة التي تباغته عادة بعد ممارسة الجنس، والتي يصرفها في الأحوال الطبيعية بالقيام بأعمال لا تناسب طبيعته العنيفة، بدءًا بتنظيف البيت وانتهاء بالطبخ!

شعر رفاقه بالخطر، راحوا ينادونه ليتوقف، لكنّه لم يردّ. كانت شهوة القتل قد تمكّنت من أعصابه، فراح يركض في المكان كمجنون، وهم يحاولون تفادي الرصاص، والجثث تناثرت حولهم. اتصل الملازم بالقيادة المتمركزة في معمل السكر:

ـ سيدي أرجو أن توقفوا هذا المجنون ابن الحرام.. نريد انتشال الجثث.

ـ انتشلها بسرعة، وغادر المكان.

ـ لكن هذا المجنون لا يترك لنا فرصة.. يطلق النّار بكلّ الاتجاهات.. سيدي بدّنا نشيل الجثث.. بدّنا نشيلهم يا سيدي، قل لابن الحرام أن يتوقف.

لكن لا يوجد قوة في الأرض تستطيع إيقاف خضر بعد أن تمكّن منه إحساس عنيف بأنّه يقوم بواجبه على أكمل وجه، وأنّ هؤلاء - بمن فيهم الملازم أحمد - كلّهم أعداء الوطن، ما داموا لا يتّخذون الرئيس ربًّا لهم. هذا الملازم رآه يومًا يصلي، وذاك الرقيب الكلب انتقد تصرفاته يومًا، وذاك ابن الزانية.. سيريهم الزناة أولاد الـ...

وجّه نيرانه صوب الدبابات. تحرّك الملازم بسرعة، وأدار فوهة الدبابة صوبه، وراح يطلق...انبطح أرضًا، وتقلّب بسرعة مبتعدًا عن مرمى النار، وراح يطلق الرصاص من جديد. كان على الملازم أن يوصل الفتيات إلى معمل السكّر حيث القيادة. لم يكن من صلاحياته أن يتدخل فيما يفعله النقيب خضر، لكنّ المصلحة العامة تقتضي ألّا يتركه يفعل ما يشاء، ووجد نفسه أمام خيارين: إمّا أن يقتله، أو أن يعرّض الفرقة بأكملها للموت مع الفتيات اللواتي طلبهنّ الرائد! لم يتردّد لحظة، صوّب نار المدفع الرشاش تجاه خضر، وخلال لحظات كان جسده يتشظى مصطدمًا بمقدمة الدبابة ووجوه رفاقه، والسيارة التي قنصها وجسد الفتاة التي اغتصبها منذ ساعة!

أمر الملازم أحمد بجمع الجثث بسرعة، ووضعها في إحدى السّيارات، ودفنها في حفرة وراء المعمل!

*****

انتهت المعركة، وانسحب الجنود، فتابعت طريقي!

فـي الطريـق إلى معمل السـكّر عنـد مدخل البلدة لفـت انتباهي طيف امرأة تحاول التخفي وراء أيّ شـيء.. سيارة تقف على قارعة الطريق، شجرة، دابة تمشي على غير هدى!

اقتربـت منـي فجـأة محاولـة تخويفي بحـركات بلهـاء.. عندما لاحظَت أنّي لم أخف، انكسـرت نظراتها، وتقلّصت شـفتاها، كأنّها تسـتعدُّ للبكاء.. ثمّ فرّت راكضة صوب المعمل. شـعرها المنفوش تلعب به الريح، فتزيد من تشـابكه وبشـاعة هيئتـه.. كان واضحًا أنّ المشـط لـم يدخل في جـزة الصوف تلك منذ سـنوات، وملابسـها القـذرة المهترئـة والتـي تراكمـت طبقات عديـدة من ألـوان وأزياء منقرضة توحي أنّها تلبس ما يعطيها الآخرون فوق الملابس الأقدم، ولا تخلع شـيئًا لتسـتبدله بثوب آخر، حتّى أنّ شـكل جسـدها ضاع داخـل الملابس، وظهر انتفاخها كبالون! لم أشـكّ أنّها نحيلة جدًّا، فقد بدا ذلك واضحًا من عينيها الغائرتين في بقعتين بُنّيتين، ووجنتيها البارزتين، وكأنّ عظامهما ستشق الجلد بعد قليل، لتظهر جمجمتها عارية من اللحم!

لحقـتُ بهـا وقلبـي يرتجـف.. لا أعرف مـا الذي شـدّني إليها! توقفـتْ قريبًا مـن المعمل تحت شـجرة كينا، والتصقـتْ بجذعها، وشبكتْ ذراعيها حول الشجرة. اقتربتُ منها بحذر، وقلتُ بلطف:

ـ لا أريد أن أوذيك.. فقط أودّ أن أتحدّث إليك.. ألا تخافين من هؤلاء؟

وأشـرت بيـدي صـوب الدبابات التـي توقفت خلـف المعمل، وتبعتهـا سـيارات الزيـل(*) وقـد هبـط منها الجنـود، وانتشـروا في المكان. قالت بصوت مرتعش:

ـ لن يسـتطيعوا رؤيتي، أنا غير موجـودة.. قتلوني من زمان.. أنا غير موجودة.

هذه المرة أفلحتْ في جعل قلبي يرتجف، سألتها:

ـ كيف؟ أنا أراك.

ـ أنـت طيّـب، أنت ترانـي.. هؤلاء الأشـرار لا يروننـي.. لأنّهم قتلوني.. تعال المس جسـدي، هل تحسّ بشـيء؟ أنـا كنت هناك.. هم قتلوني.. لكن لم أجد أحدًا يدفنني. الناس طيبون قالوا لي: ابقي أنت هنا، لا تنزلي في القبر مع أمّك وأخيكِ، نحن نطعمكِ.. شوف أعطونـي ثيابًـا، وقالـوا لا تموتي.. صحيح هـم قتلوني، بـس قالوا لا تموتي.

يا إلهي! صعقتني تلك البسـاطة المتسـمة بالعمق الروحي الذي تتحـدّث به. لم تكـن مجنونة، بـل أعقل من كلّ مـن عرفتهم. قلت بغصة:

(*) شاحنات عسكرية روسية الصنع.

ـ من الذي قتلك؟

أشارت بإصبعها صوبهم من دون كلام. سألتها:

ـ لكن كيف قتلوك؟

أشارت إليّ لأقترب منها أكثر، وهمست:

ـ فصلوا جسدي نصفين، لا تخف.. لن يستطيعوا رؤيتك، أنت مثلي.. أنا رأيتك هناك، ألا تذكرني؟ لقد حملتني يومها، وذهبتَ بي بعيدًا، وعندما أفقت، أَخَذْتَني إلى قبر أمّي وأخي.. هم فصلوا جسده نصفين.. كان عمره تسعة أشهر.. أمّي لم توافق على تركه معي.. وعدتها أن أحميه، وأخبئه جيدًا، لكنّها رفضت.. كانت تخاف عليه، فهو وحيدها الذي أنجبته بعد أن صرت في السابعة من عمري. أمّي خافت أن يقتلوه، احتضنته وخرجت من البيت بسرعة.. لكنّهم أخذوها مع الناس الكثيرين إلى ساحة البريد. كنت أصرخ: «استني ماما سآتي معك» لكنّها لم تنتظر، وهم لم ينتظروا وصولي.. كنتُ هناك قريبًا من الساحة حين فصلوا جسده نصفين أمام عيني أمّي التي سقطت ميتة في اللحظة نفسها! ألستَ أنت من حملني بعيدًا عن الساحة؟ وجدت نفسي في قبو رطب، بقيت هناك أيامًا لا أعرف عددها، وحين خرجت.. كانت المدينة خاوية إلّا من الأشباح أمثالي! هل أنا شبح؟

تمتمتُ بحسرة:

ـ ليتكِ كنتِ!

أخذتني من يدي، وتسلّلنا خفية وراء المعمل. قالت هامسة:

ـ سأدلّك على درب لا يعرفونه، يمكنك أن ترى كلّ شيء.

لم أمتلك اليقين بإمكانية تحولنا إلى شبحين حقًّا كما امتلكته لحظة دخولنا إلى المعمل، لم يلفت وجودنا انتباه أحد! ولم يتوقف أحد وهو يمرُّ بجسدينا المرتجفين وراء أكياس البنجر الخمري اللون، والبنجر السكري الشمعي اللون.. كلاهما وجهان للوجود، أحمر بلون الدم المتخثر على عتبات المعمل وسيارات الجند والدبابات، وشمعي بلون الموت المنتشر في المكان! في البداية كنت أظنُّ أنّنا دخلنا إلى المكان الخطأ، حين سحبتني صديقتي - التي لم أعرف اسمها - من يدي، وغطّت رأسي بأحد الأكياس المتناثرة حولنا، وصنعت ثقبًا صغيرًا في الخيش، وهي تهمس: «لا تصدر صوتًا، سترى من هنا كلّ شيء». لم أنبس بكلمة، فقد سيطر عليّ الذهول وأنا أرى سيّدة جميلة تمرُّ أمامنا، وكعب حذائها العالي يصدر إيقاعًا يشبه أغنية لم أعد أذكرها بالضبط، لكنّها تعطيك انطباعًا بمرح يحثك على تحريك جسدك في رقصة سريعة. خلّفت وراءها رائحة عطر كثيفة طغت على كلّ الروائح المعتقة في المكان! لحق بها ثلاث

فتيات يتباهين بشعرهن الطويل وحمرة شفاههن الفاقعة، ويفرقعن لبانًا غليظًا بصوت يكاد يستفزُّ كلّ الكائنات الموجودة حولهن! لم أكد أستوعب وجودهن وملامحهن، حتّى دخل الملازم أحمد يجرُّ خلفه الفتيات العشر! طرحهن أرضا أمام الرائد الذي كان في تلك اللحظة يقهقه لطرفة ألقتها ست الحسن.

توقف القائد عن الضحك قائلًا: «والله اشتقت لجلساتك يا ست الحسن بعد زمان، لا تكوني زعلانة مني لا سمح الله؟».

قطّبت ست الحسن حاجبيها، ولوت شفتيها وهي تنظر بدلال إلى القائد، وقالت: «عفا الله عما سلف.. أنت تعرف أنّي زعلت بعض الشيء لأجل آخر مناقصة طلبتها منك بخصوص الأوتستراد الجديد.. بس خلص، نحنا أولاد اليوم». ضحك مرّة أخرى: «ولا يهمك، سأعوضك بأفضل منها، ولو.. ما بيهون عليّ زعلك». أشار إلى الملازم أحمد بالخروج.. وراح يتأمل الفتيات ليختار منهن من تروقه.

المرجل يغلي، ويتكاثف بخاره السكري، فيغدو الهواء دبقًا وخانقًا، يمتزج برائحة قرفة قوية اختلطت بزنجبيل لاذع الطعم.. عتّق إحساس ست الحسن بالضغينة، فأرادت أن تنتقم لكلّ ما مرّ بها في الماضي بدءًا من أوّل ضحكة أطلقتها حنجرة يمامة الطفلة

المدلّلـة عندما اضطرت لتحريك أذنيها كما تفعل الحيوانات مقابل بضـع ليرات.. وانتهـاءً بآخر صفعة تلقّتها مـن تاجر بخيل رفض أن يعطيهـا مقابلًا بعد أن اسـتمتع بهـا في دكانه المغلقـة، تركت آثارها علـى روحهـا زمنًـا، قبـل أن تمتـدّ يدها لتصفـع هي الرجـال الذين يتذلّلون كي ينالوا وصالها كشرط أساسي للسماح لهم بولوجها!

كانـت الفتيات المقيّدات بالأسـلاك الشـائكة يحتمين ببعضهن فـي نوبة رعب، ويتراجعن إلى الـوراء، وهنّ يلمحن نظرات القائد، التـي عـرّت أجسـادهن، قبل أن يفعل ذلـك أحد الشـبيحة الواقفين بانتظـار الأوامر! علا صراخهن طلبًا للنجـدة.. وعلا ضحك القائد وسـت الحسـن، التي وضعت سـاقًا فوق أخرى، وراحـت تتأملهن بتشـفٍّ.. ثمّ همسـت في أذن القائد، الذي نهض، وجرّ إحداهن من شعرها، وجعلها تركع عند قدمي ست الحسن، وطلب منها أن تقبّل حذاءها.

لـم تسـتطع الفتاة رفع رأسـها، فقد ضغط القائـد عنقها بكلّ قوته حتّى ارتطم وجهها بالحذاء، ثمّ رماها بعيدًا.. الفتاة نهضت بسـرعة متغلبة على خوفها، وبصقت في وجه ست الحسن بكلّ قوتها...

المرجل يغلي.. وكذلك صدر سـت الحسـن التـي أضافت إلى سـجل الإهانات التي تلقّتها في حياتها إهانة لا تغتفر، لأنّها صدرت عن فتاة شـريفة، كانت أمّهـا «حياة» تخدم في بيتهـا، ولأنّها حدثت

أمام أشـخاص تتعامل معهم بفوقية مطلقة! كانت تنظر إلى المرجل والبخار المتكاثف يتصاعد خالقًا غمامة بنفسجية، بدت وكأنّها تلف الجسـد العاري للفتاة حاجبة إياه عن النظرات الشـبقة للقائد، الذي اسـتلّ حزامه من بنطاله بسـرعة، ونهض ليعاقب الفتاة بالجلد الذي تسـتحقه نتيجة تصرفها. عين ست الحسـن اليقظة لاحظت الحركة السريعة، فمدت يدها لتمسك يد القائد، وتوقفه عمّا أراد فعله.

كانـت الفتـاة المذعورة تراقـب كلّ ذلك بعين حذرة وإحسـاس رهيـف بدنـو أجلهـا.. كان عليها في تلـك اللحظة أن تحسـم الأمر بالطريقـة التـي تصون فيها ما تبقـى من كرامتها، فقـد رأت بوضوح الكراهية في عيني ست الحسن تفيض بوحشية النهاية التي ستذيقها إياها.. كما قرأت في عيني القائد شهوته العارمة لاغتصابها... كانت الزبـاء ملكـة تدمر حاضرة فـي ذهنها في تلك اللحظـة، فقد حلمت طيلة سـنواتها العشرين أنّها سـتتخرّج يومًا من كلية التاريخ، وتنتهج أسـلوبًا لحياتهـا يجعلها شـبيهة بملكة حكمت بلادهـا في عصرها الذهبـي. كان الفارق شاسـعًا ما بين الموقفيـن، موقفها وهي عارية أمام شـبيح وعاهرة، وموقـف زنوبيا! لكنّها كثيرًا مـا أحبّت عبارتها «بيدي لا بيد عمرو». كانت أقوالها تشـعرها بالعظمة التي لا يفقهها حثالة مثل هؤلاء الذين أتى بهم التاريخ لحكم سوريا!

المرجل يغلي.. أربع عيون كانت تراقب المشهد، وتتحفز للانقضاض. الفتاة كانت أسرع.. صرختها الأخيرة، ملأت أرجاء المعمل «الموت ولا المذلة!».

لم يتوقف المرجل عن الغليان وجسد زينب يرتطم بماء السكر، ويغوص إلى القاع، تاركًا دوائر من دوامة الكره، وفقاعات ازدادت ارتفاعًا، حتّى كادت تصل وجوه الفتيات المذعورات، وهنّ يراقبن المشهد بذهول!

زادت نقمة ست الحسن، لأنّها لم تنتقم من الفتاة بيدها.. نظرت في عيني القائد الذي كان جاهزًا لذبح تسع فتيات لإرضائها!

ابتسمت بدلال، وأشارت إليهن بمكر:

ـ على طريقتي...

لم تكن بحاجة لقول تلك الكلمات، فقد كان متهيجًا، وفي مزاج رائق نسبيًا، بسبب الأخبار التي وصلته من شبيحته عن تنفيذ العمليات الموكولة إليهم بدقة ونجاح. كان جاهزًا لمكافأتها بما يتناسب وحجم المهمة الصعبة التي قام بها. لم يكن بحاجة إلى خمر في هذا النهار الاستثنائي بعد أن شرب الخلطة السحرية التي تجيد ست الحسن صنعها من مزيج من البهارات واليانسون والجوز المطحون.

تلك الرائحة الخاصة بليالي الشتاء التي كانت أمّها تغتسل فيها بماء البابونج الساخن، وتفرد شعرها الطويل، وتصعد إلى غرفة العلية لتنام وحدها مهددة ست الحسن إن هي غادرت فراشها بمعاقبتها بقيد كان معلقًا على الجدار، ومنعها من الطعام يومًا كاملًا. لكنّ ست الحسن لم تكن لترضخ لأيّ تهديد، فقد امتلكت عنادًا لم ترثه عن أمّها فقط، بل عن عائلتها مجتمعة، فكانت تفعل دائمًا ما يحلو لها، خاصة إذا هدّدتها أمّها، أو منعتها من ذلك العمل.

صعدت تلك الليلة إلى العلية، ونظرت من الشقوق التي لم تفلح الجرائد بسدّها جيدًا. رأت أمّها عارية، وقد تمدّدت على الفراش كمهرة في حالة ولادة! هذا ما ظنّته قبل أن ينكشف لها جسدٌ أبيض لرجل كانت أمّها تفترشه محاولة سحقه بحركات لم تفهمها، ظنّت للحظات أنّها تقوم بضربه، فقد رأت يديها تقبضان على شعره بقوة ورأسه مدسوسًا في صدرها. وتخيّلت أنّها ستجرّه إلى الجدار، وتضرب رأسه به كما تفعل معها أحيانًا حين تكون في قمة عصبيتها وضيقها. لكنّ الجسد الأبيض النحيل ما لبث أن انسلّ من تحتها، وهمدت حركة أمّها. رأت بوضوح لا مجال فيه لأيّ التباس عمها وهو يشعل سيجارة ويناولها لأمّها! لم تصدم كما ينبغي لطفلة في سنها رأت شيئًا مخجلًا ومربكًا.. بل على العكس، كانت تنتظر تلك الليالي التي يتهدج صوت أمّها أثناءها وهي تمنحها كأسًا من

المشروب الساخن، وتدثرها آمرة إياها بالنوم السريع وعدم مغادرة الفراش لأيّ سبب، مُلَوّحة بالعقاب، ومذكرة إياها بالغول المفترس الذي يتربص بها أسفل الدرج! تلك الليالي كانت تثير في نفسها رغبة التشبه بأمّها، تنتظر أن يطول شعرها، ويصبح أسود فاحمًا مثل شعر أمّها، وأن يتكوّر نهداها، كي تمنحهما لعمها كما تفعل أمّها!

في البداية كانت تظنّ أنّ عمّها هو الرجل الذي عليها أن تتزوجه عندما تكبر، لتنتقم من أمّها التي لم تكتفِ بأبيها، وتريد أن تستحوذ على الرجال المحيطين بها من دون أن تفكّر بها! وقد صارحت عمها مرّة بالأمر، فصفعها على وجهها بعد أن لبث دقيقة وهو مذهول من عرضها. لكنّها مزّقت ثوبها، وصرخت به: «لماذا؟ أهي أجمل مني؟». فتح فمه دهشة وهو يحدّق في الجسد العاري أمامه. مَن يقيس هذا الجسد الممتلئ المشع ببياضه، وهذين النهدين الصغيرين القاسيين، بجسد تلك المومس العجفاء بسمرتها الداكنة، ونهديها المرتخيين؟! تقدّم منها وقد طار صوابه.. لمس الجسد بأصابع مرتجفة، وشدّها إليه بقوة... كانت الريح العاصفة في الخارج تدفع أغصان شجرة الكينا لتلطم النافذة، وتطيّر أوراق الجرائد.. ضغط نهديها بأصابعه، خمشته في وجهه وصدره وظهره. سالت الدماء من كلّ شبر مرّت عليه أظافرها، وتشهّت أن تسيل الدّماء ثانية بين فخذيها.. كان ذلك بعد حادثة النّهر بأسبوع!

التفتت إلى القائد وهي تهمس بصوت مبحوح: «ليس هنا، في تلك الغرفة». سحب الفتاة من شعرها، من دون أن يعلّق بكلمة. كانت ست الحسن تقف وراء الباب لتشاهد من ثقب فيه الدماء المتدفقة.. ليس من بين فخذي الفتاة فقط، بل من نهديها اللذين بترهما بسكين جزّار بعد أن انتهى منها!

لم تحتمل الفتاة الألم الرهيب، بقيت في الأرض تنزف حتّى الموت.. في تلك اللحظة كانت ست الحسن تبتسم لنفسها لكنّها لم تشعر بالارتياح! لم تكن متأكدة مما تريده بالضبط، لكنّها تعرف على الأقل أن منظر الفتيات العاريات وهن يخدمن الجنود والشبيحة، يعوّضها عن إحساسها بالمهانة طيلة الزمن الذي عاشته على أبواب تلك العائلات بانتظار أن تنتهي أمّها من خدمتها، أو أمضته مقيّدة على كرسي تنتظر لقمة تهدّدها أمّها بمنعها عنها إن لم تلتزم بتعليماتها، أو تنتظر النقود ويدها الممدودة تستجدي من آبائهن! لن تنسى.. هذا مستحيل.. وعلى الرغم من شعورها ببعض التعويض، إلّا أنّها لم تكتفِ، تريد المزيد! غمزت لمساعدها، فركض من دون أن تنبس ليأتي لها بأحد الشبيحة الأقوياء. وقف بين يديها منتظرًا الأوامر التي اختصرتها بأقل ما يمكن من الكلمات.. فركض لينفذ!

خلال دقائق كانت الفرّامة تلتهم جسد الفتاة، وتلقيه في المرجل حيث صديقتها زينب!

أنـا وصديقتي التي لم أعرف اسـمها - لأنّها هي لا تعرفه أيضًا- تسـلّلنا خـارج المعمـل، لنواجه عاصفة شـديدة في الخـارج كانت تحمل معها رائحة الرعب الذي عشـناه في الدّاخل! اتّفقنا أن نلتقي صبـاح اليـوم التالي لترافقنـي في رحلتـي جنوبًا.. لكنّها لـم تأتِ.. انتظرتها ساعات، وكأنّي أملك اليقين أنّها لن تخلف موعدها معي! لا أدري من أين اسـتقيتُ يقيني ذاك؟! لكنّي امتلكته على أيّ حال! لـم أفطن إلى أنّ صديقتـي لا يمكنها أن تأتي، لأنّهـا حتمًا لا تعرف الزمـن، ولـم تبـرح يومًا تلـك السـاعات القليلـة التي عاشـتها أثناء المجزرة الأولى!

غـادرتُ وحيدًا.. كان عليّ أن أعبر طريق الغاب إلى حماة، ولم أعرف وقتها أنّ الموت سبقني إلى هناك!

***

خضراء الدمن

ست الحسن!

فـي لحظـة واحـدة وأنـا أحـدّق فـي التلفزيـون أعـادت عيناها - المشـعتان بأخضر غريب في عمقه - كلّ الحكاية كما أعرفها مذ كنت شابة، ورأيت أمّها رأي العين وهي تنظف النّوافذ العالية بنزق، وتبصـق خارجًا، وتلعـن الزمن الذي اضطرها للوقـوف مُعلّقة فوق سُـلّم الحديد ما بيـن السـقف والأرض، وماء التنظيـف القذر يبلّل جسدها!

عندما كانت تلك النوبة الغريبة تفاجئها، وتطرحها أرضًا، فتغيب عـن الوعي لدقائـق، يتعرّض فيها جسـدها لتشـنجات قوية، تصبح ضعيفة مرهفة الشـعور حدّ البكاء، وتجد نفسـها تعاني من لحظات ضياع، تبحث فيها عن نفسـها، فلا تعرف لها ماضيًا، ولا تكاد تلمح بعيـن النبوءة أفقًـا غير الرمـاد. الضباب كان الوحيد المسـيطر على رؤاهـا، يمدّهـا بوجود هلامي غامض الملامـح. تفقد على أثر تلك الحالة شهيتها لكلّ شيء في الحياة، ما عدا رغبة وحيدة كانت تعتقد أنّهـا رغبة حيوانية، ربّمـا تمتدُّ جذورها إلى ماضٍ قيل لها إنّها كانت فيه نعجة صغيرة تسـرح فـي مرعى تدوم خضرته على مدار السـنة!

تلـك الرغبة تجعلها تهيم في البرية سـاعات طوالًا وهي تبحث عن «حشيشـة ست الحسن(*)»، وحين تجد كنزها المفقود، تلتهمه بنهم وخوف مـن الفقد! تتمرّغ بالعشـب، تصرخ بـكلّ قوتها، وتضحك بعنـف ضحكًا يجلـو الصدر.. ثمّ تشـعر أنّها جزء من هـذا الامتداد الأخضـر.. جزء عشـبي هش، يتمنى لـو أصبح لقمة فـي فم حيوان جائع!

تلـك التشـنجات كانـت بسـبب الحياة البائسـة التـي تحياها مع زوج ملاحـق لفـراره المتكـرّر مـن الخدمـة العسـكرية، وأمّـه التي تتهمها بالعهر دائمًا، وتطالبها بالعمل في بيوت الناس لتصرف على البيت.

في غياب زوجها راحت تسـتميل شـقيقه بهدايـا صغيرة جعلت الشـاب ينظر إليهـا نظرته لملكة متوجـة على قلبه! فـي ليلة باردة.. تسـلّل إلـى غرفتهـا فـي العليـة، وجـد البـاب مواربًـا، وقد سـدّت فتحاته وشـقوقه بجرائد عتيقة تسـتخدمها للتنظيـف، المدفأة متّقدة ببقايـا حطـب المسـاء، وصحـن مـن الزبيـب والتين اليابـس قرب فراشـها! جلس يتأملها، كانت تتصنّع النوم، وتسـيطر على أنفاسـها كـي لا تفضحها. تقـدّم مترددًا.. لـم يعرف كيف سـيبدأ، كان يفتقد

(*) حشيشة ست الحسن: تستخرج منها مادة الأتروبين، وهي مادّة قلوية شبه سامة، تستخدم لتوسيع الحدقة ومعالجة التشنج.

للتجربـة، وأعيـاه التـردد، هـل يوقظها؟ هـل يهمس لهـا؟ هل...؟ اندسّ تحت اللحاف بحذر.. فوجئ بجسـدها عاريًا، شهي الدفء. لم يعرف أنّها مستيقظة بانتظاره، لم يفهم ما حدث بعد ذلك.. عبارة واحـدة.. صفعته على وجهه بعد انتهائه من تلبية أوامرها المحمومة «قل لأمّك يا ولد إنّي الآن أستحق اللقب». كانت تعرف أنّه لن يجرؤ على البوح بما جرى، وأيقنت أنّها اسـتطاعت السـيطرة عليه، تجلبه إلـى فراشـها في اللحظـة التي تريد، وتطرده سـاعة تشـاء! لاحظت بعينهـا الخبيرة تذلّـله وخضوعه، واصفرار لونه حين يخاطبها بعيدًا عن أمّـه. كما لاحظت صمته ونظراته الزائغة في وجودها! شـعرت أنّهـا انتقمت لنفسـها من حماتها، ومن زوجهـا، ومن الحياة التي لم تأخذ منها شـيئًا سـوى الاسم! هذا الشـعور فارقها حين بدأت تلك التشـنجات الرهيبة توقعها أرضًا، وتمنعها أيامًا من العمل، ولم تعد تسـتطيع السـيطرة على جسـدها إلّا بالتهام تلك الحشيشـة العجيبة التـي وصفتها لها بدويـة التقتها مصادفة في بـازار الفرجة(*) وعلى الرغـم من ذلك الهدوء الذي تمنحه الحشيشـة لهـا، إلّا أنّ القلق لم

(*) سوق سنوي في مدينة جسر الشغور يستمر ليوم واحد فقط، يقام بعد عيد الفصح الشرقي بأسبوع. جاءت تسميته من تنوع البضائع التي يأتي بها تجار من أنحاء سوريا، رخيصة الأسعار وتتناسب مع جميع الفئات الاجتماعية. يرافق السوق مظاهر احتفالية منها «الدوسة، المصارعة، السيرك، تبييض النحاس، الزلبية».

يفارقها، مع إحساسها بأنّ أحدًا يريد أن يقتلها. في الغالب كانت تراه في المنام على صورة زوجها العائد بشكل مفاجئ، يحمل بندقية، يصوبها إلى صدرها، وترى البارود ينفجر بعيدًا، وتلمح الدخان، ثمّ يغمى عليها. كانت تخشى من تحوّل ذلك الحلم إلى واقع، وتترقبه كأنّه قدرها. لكنّ فترة عقوبة زوجها طالت، واطمأنت مع الأيام إلى عدم حضوره، وراحت ترتّب حياتها على هذا الأساس.

لم يطل اطمئنانها، حتّى فاجأها في ليلة حارّة، وفي يده سكين مغلق، لوّح به في وجهها! كانت أمّه قد همست له منذ وصوله، أنّ امرأته تغيّرت، ولا شكّ أنّ ذلك بسبب رجل!

بحسّها الأنثوي عرفت كيف تستثير رغبته، وتبعد الأداة الحادّة عن عنقها. منحته جسدًا يفور بمياه الرغبة، حدّ أنّه نسي كلّ ما وسوست به أمّه، وأيقن أنّ زوجته أنظف من تلك العجوز الخرفة، التي لا تترك فرصة تمرّ من دون أن تحرّضه على زوجته لكراهية تاريخية بين عائلتيهما، ربّما كان سببها ذكرًا كانت تريده لنفسها في زمن عتيق من تاريخها العفن الغامض! لم يكن يومًا يرتاح لأمّه، لكنّه لا يستطيع التخلص من سيطرتها. إلّا أنّه الليلة قرّر أن ينصر زوجته عليها، ويعلن النبأ السعيد الذي همست به في أذنه: «إنّها حامل في شهرها الرابع». بثته التوقيت بما لا يجعل مجالًا لشكّ يتسرّب إلى قلبه. كاد يحملها ويهبط بها إلى أسفل حيث تنتظر

العجوز مرهفة سمعها، علّ نار قلبها تبرد بسماع صراخ كنّتها وهي تُضرب وتهان. لكنّ الهدوء المريب جعلها تنهض بخفة، وتصعد الدرجات المتكسرة إلى العلية، وتحاول أن تنظر من شقوق الباب لتستكشف الوضع في الداخل. الضحكات المغناجة لكنّتها صفعتها بقسوة، ووجدت نفسها تهبط الدرجات بسرعة ململمة أذيال الخيبة وشعورها بقهر زاده صراخ ابنها وراءها: «إنّها حامل، ستصبحين جدّة أيّتها العجوز».

انكمشت العجوز في مكانها، تقلّصت معدتها بشدّة، وجحظت عيناها، وخلال دقائق فاجأها صداع عنيف، جعلها تصرخ بشكل هستيري، وطرحها أرضًا.

لم تمضِ على تلك الحادثة سوى أيام حتّى خرست العجوز تمامًا، ولم تعد تستطيع مغادرة فراشها، لكنّ كنّتها كانت تلمح في عينيها نظرات اتّهام واضحة، تحوّلت مع الأيام إلى نظرات منكسرة متوسلة، وهي ترى بطن كنتها ينتفخ بشكل غير عادي، ووجهها يتورم، وحركتها البطيئة تثير حقدها، وعجزها يمنعها من فعل شيء. «لا راد لقضاء الله»، هذا ما كانت تصبّر به نفسها، حتّى توصلت لسلام نفسي باعتقادها أنّ الله عادل، ولن يقبل أن يبقى ولدها مخدوعًا. فإن كان المولود ابن حرام، ستموت كنتها أثناء الولادة، أو ستصيبها حمى نفاس تقضي عليها، وربّما في أسوأ الأحوال يشبه الولد أباه، فيصبح دليلًا دامغًا على خيانتها!

كانـت حيـاة تعـدُّ الأيام والسـاعات لليـوم الذي سـتتخلص فيه من الإثم المتشـبث برحمها، وكانت حماتها تعدُّ الأيام والسـاعات بانتظار العدالة الإلهية التي سـتأخذ بثـأر ابنها الأحمق، الذي صدّق أنّ زوجته مخلصة له، وأنّه من ألقى في رحمها بذرة الحياة.

لـم تكد تصل إلى هـذا الحد من أفكارها، حتّـى فوجئت بحركة غير عادية في بطنها، وتقلصات أسـفله آلمتها بشدّة، فتحاملت على نفسـها، وعبرت السـهل بخطى بطيئـة متجهة صـوب المنزل الذي باتـت تكره كلّ شـيء فيه، زوجهـا، وحماتها العاجـزة، وحتّى ذلك الأحمق الذي تسبب في حملها!

قالـت لها الداية: «أمامـك أيام ثلاثة، يبـدو أنّ الطلق عندك بارد جـدًّا، حاولـي أن تتمشـي فـي الغرفـة، أرسـلي ورائـي حين يشـتدّ الطلق».

في اليوم الذي انتظره أربعة أشخاص كانوا يتقلّبون على جمراتٍ من الشكّ، والقلق، والفرح، والملل.. هطلت أمطارٌ وصلتْ السماء بالأرض، وطافت مجارير الأزقة، وسُـدّتْ المصارف في فسـحات البيـوت، وكان من المسـتحيل على أيّ شـخص أن يغامر بالخروج مـن بيته إلا في حالة طارئة، معرضًا نفسـه لخطر الانزلاق. فكلّ من خرج في ذلك الصباح لم ينجُ من كسـر، أو رض، أو جرح.. ومات شـخصان بسـبب تمـاس كهربائـي أحدثتـه العاصفة حين سـلخت

أسـلاك الكهرباء من أعمدتها، ورمتها في الشـارع الرئيس. في ذلك الجـوّ طلـب زوج حياة من شـقيقه أن يذهـب لإحضـار القابلة. لم يشـأ الشـاب الخروج من المنزل خوفًا من العاصفة، بالإضافة لقلقه بانتظـار المولود! فخـرج الزوج من المنـزل ليأتـي بالقابلة، ومرّت السـاعات ولم يعد! عرفـت حياة في ذلك الوقت أنّهـم قبضوا عليه كالعادة، وسـاقوه إلى السـجن. وأمام صراخها واستغاثاتها، تشجّع الشـاب، وخرج ليأتي بالقابلة، التي وصلت بعد ساعة وثيابها غارقة بالمـاء. اضطـرت لتغيير ملابسـها أولًا، وهي تأمر حياة بالاسـتلقاء على ظهرها. لم يطل الوقت بها حتّى صرخت:

ـ ساعديني أنت تخنقين طفلك.

لم تسمع القابلة ما همست به حياة، كانت تتمنّى الموت للجنين قبل أن يصبح شاهدًا على خيانتها لزوجها، بالإضافة إلى عدم رغبتها في الأمومة.

أخيرًا استطاعت القابلة سحب الجنين خارج رحم أمّه الذي كان يتقلّص بطريقة غريبة، رافضًا أن يفسـح المجال للرأس بالمرور إلى الحياة. صرخت القابلة:

ـ خذي، ها هي ست الحسن نوّرت عليكِ الدّنيا.

العجوز أصيبت بالدهشة وهي تنظر في وجه الطفلة، كانت تشبه عمهـا إلى حدّ لا يمكن معه لأيّ عابر ألا يلاحظه، ويظن أنّها ابنته..

خاصة أنفه الحاد، ولون عينيه، وشقرة شعره، ورقة شفتيه. لم يكن فيها ما يشبه أمّها السمراء بوسامتها ودقة ملامحها، ولا والدها الذي يبدو أقرب إلى رجل جاء من صعيد مصر، بطوله ونحوله، وسواد عينيه الضاحكتين باستمرار.. شيء ما وخز العجوز في قلبها، فأدارت وجهها صوب الجدار، ولم تعد تنظر في وجه الطفلة، ولم تستطع أن تحبّها طيلة العمر الذي عاشته بعد ولادتها!

ليس القدر وحده ما حدّد مصير تلك الطفلة الحسناء ذات العينين الصقريتين، والأذنين العجيبتين، فقد كانت تمتلك من الخبث والدّهاء ما يؤهلها منذ نعومة أظفارها لاقتناص الفرص التي تراها ملائمة لها.

في الثانية من عمرها كانت أمّها تصطحبها معها إلى البيوت التي تعمل فيها، كانت تجلس في ركن من المكان الذي تقوم أمّها بتنظيفه، وهي تبكي، وتحتج على حبس حركتها، وتحاول إحراج أمّها بتحطيم أيّ شيء تصل إليه يداها.. مما يجعل أمّها تسرف في معاقبتها، والدعاء عليها، وضربها بعنف أحيانًا كي تسكت، وتنام وهي جالسة!

حين امتلكت اللغة، وصارت ترطن بلغتين، لغة الناس من حولها، ولغة أمّها، صارت تشعر بتفردها، فتغري الأولاد بتعليمهم كلمات غريبة تنطقها مقابل حصة طعام أو حلوى في أيديهم. أمّا

الكبـار فكانت تلفت انتباههم بعينيها الصقريتين، اللتين تحدّقان في المتحـدث إليها بجرأة، تاركة في نفسـه توجسًـا مـن لونهما المتغير الـذي يملك إيهامًا بمقدرتها على التأثير حـدّ إصابة المتحدث بألم ما إن لم يعطها شيئًا دفعًا للحسد! أمّا أذناها فكانتا عجيبتين حقًّا فهي تستطيع تحريكهما كما يفعل أيّ حيوان، فكانت بذلك تُضحك مَنْ حولها، لكن بثمن يدفعونه وهم راضون!

تدفقت تلك الصور دفعة واحدة وأنا أشـاهد سـت الحسن على الشاشـة، محجبـة، ومسـحة ألـم علـى وجهها البـريء! لـم أعرفها فـي البداية، لكـنّ عينيها الصقريتيـن اللتين تفضحـان أعماقها مهما حاولـت أن تلوّن وجهها ومشـاعرها، كانتا تحدّقان فـي الكاميرا أو ربّمـا في المصـور وراء الكاميرا، بتلك النظرة الشـهوانية التي تربك الناظـر إليهـا، وتلفحه بريـح جهنمية الطالع، لا يلبث أن يجد نفسـه مشوشًا على أقل تقدير، ومضطرب الذهن.

لاحظتُ أنّ سـت الحسـن كانـت تلبس ثيابًا سـوداء محتشـمة، ولا تضع أحمر شـفاه! وحولها ثلاث فتيات صغيرات، لم يتجاوزن سـن المراهقة، محجبات أيضًا! لم تكن إحداهن تنظر إلى الكاميرا، بـل إلـى أقدامهن، وقـد غطيـن أعينهن بالحجـاب؛ كـي لا يُعرفن. ليـس المفاجـئ بالنسـبة لي أن تظهر سـت الحسـن فـي التلفزيون، بـل ما قالته هـو الذي صعقنـي، وترك مـرارة في حلقي. أحسسـت

بهول الخديعة التي أتعرّض لها قبل بقية السوريين! ست الحسن وأخواتها الصغيرات يتباكين على الشرف المهدور! منذ متى كان لست الحسن أخوات وأمّها ماتت مقتولة بيد مجهول، ولم تنجب غيرها؟! ما زلت أذكر تلك الرائحة النتنة للأحاديث التي لاكتها ألسن النسوة في البلدة بعد مقتلها.. بعضهن قلن إنّ زوجها وجد عندها رجلًا، فقتلها وفرّ في الليل قبل أن يراه أحد! وبعضهن قلن بل شقيق زوجها؛ لأنّه تأكد أنّها كانت السبب في موت أمّه حين تركتها أيامًا من دون طعام أو تنظيف، حتّى غرقت ببولها وفضلاتها، ولم تجد من يناولها كأس ماء وهي تعاني سكرات الموت! وقد كان الشاب مسافرًا يبحث عن عمل في ميناء اللاذقية، وعاد بخفي حنين ليجد أمّه ميتة! حياة لم تنتبه حتى لموتها، إذ اختلطت رائحة النتن الذي خلّفته وراءها برائحة جثتها. لكنّ أحدًا لم يعذر حياة يومها، وإن برّرت عدم انتباهها بالإرهاق والعمل الطويل في بيوت الناس والنسيان، فلا شكّ أنّها لاحظت الصمت الذي خيّم على غرفة حماتها، بعد أن كانت تملأ البيت أنينًا، وصرخات مشروخة، وعواء يشبه نباح كلاب جائعة!

قيل إنّها في تلك الليلة أغلقت بابها بالقفل، وكانت ترتجف خوفًا من انتقام الشاب، وقد هدّدها أثناء جنازة أمّه أمام شهود عيان! لم تقل النسوة مَنْ شهود العيان، لكنّهن يعرفن بالتأكيد من يكنّ، وهنّ متخصصات بنقل أخبار البلدة، وما يجري فيها. لكنّ الشرطة

برّأت عم ست الحسن من الجريمة لإثباته أنّه لم يكن في البلدة وقت الجريمة. أمّا والدها فلم يعد أحد يسمع عنه خبرًا منذ موت أمّها.

كشف السرّ امرأة عجوز كانت تبيع المناديل الملونة، تأتي من بلاد بعيدة، وعلى حمارها أساور يصنعها «الغجر»، يرافقها رجل مسن، يقال إنّه مغربي الجنسية، كان يبيّض «الفال» للكثيرين، ويخبرهم بمصيرهم. قال لحياة قبل مقتلها بأيام: إنّ الشمال سيحمل لها طعنة سكين، والرجل الذي سيقتلها سيكون من دمها، وإنّه تائه في البلاد الآن بحثًا عنها، ربّما سيصل بعد إشارة أو اثنتين! ويقال إنّه قال ذلك حين رفضت حياة أن تنقده مالًا، أو تأتيه بطعام بعد أن أخبرها بمصيرٍ مشرق لطفلتها! وقد ضحكت حياة، وسخرت من الرجل المسن.. لكنّه ابتسم بغرابة، وهي تشتمه، وقال: «لن ينفعك ذلك في تغيير مصيرك».

نظرية مقتل حياة على يد أهلها كانت الأقرب إلى المنطق، خاصة وأنّها كانت ترى كوابيس تجعلها تعاني من تشنجات رهيبة، ترقد بعدها في البيت أيامًا ممتنعة عن العمل، حتّى تقرصها الحاجة أو الجوع! أخبرتني البدوية التي كانت ترافق المغربي بتفاصيل الحادثة ذات ربيع عندما مرّت ببيتنا: «المغربي التقى أخاها في بلدة قريبة، وترافقا على طريق سفر، وأخبره أنّه يبحث عن أخته، وأنّه

يريـد قتلها؛ لذا كان الرجل المغربي متأكدًا من الأمر، ولـم يقله على سبيل النبوءة، بل الحقيقة التي يعرفها جيدًا!».

لـم يكن صعبًا على ســت الحســن في تلك الفترة أن تحصل على رزقها، لكنّها لـم تشأ أن تكون خادمة في البيوت مثل أمّها، فقد كانت تمتلك طموحًا أكبر من ذلك بكثير. أذكر حين كانت صغيرة، جاءت مرّة من بيتها في الطرف الغربي من البلدة إلى بيتنا وحدها. لم أعرف كيف بإمكان طفلة في سـنها أن تسـتدل على الطريق بهذه السـهولة وهي لـم تكن وقتها قد رافقت أمّها سـوى مرة واحدة؟! سـألتُ عن أمّهـا، ودخلت إليها حيث تعمـل.. وأرتها حذاءً جديدًا، وسـمعتُ أمّها تثني على شطارتها! لم تسألها أمّها من أين؟ ولا كيف حصلت عليه؟ اكتفت بتشـجيعها فقـط، وإبداء استحسـانها. هل كانت حياة مـن الغبـاء بمقـدار لا يجعلهـا تنتبه أنّ لا شـيء مـن دون ثمن، وأنّ ابنتها سـتدفعه عاجلًا أم آجلًا، وسـيكون ثمنًا باهظًا لأشياء بخسة؟ أم أنّها كانت تتغاضى عن الأمر بقناعة تامة أنّ هذا ما يجب أن يكون ولا سبيل لتغييره؟

مشـكلة سـت الحسـن الرئيسـة كانت فـي عـدم اسـتطاعة أمّها الحصـول على بطاقـة مدنية، وإثبـات زواجها، كي تسـجّل طفلتها على اسم أبيها، وهذا ما جعلها تخلّفها في الحياة من دون ورق يثبت نسـبها، وابنة من هي! لكنّ سـت الحسـن لم تجد في ذلك مشـكلة

علـى الإطلاق، أهل البلدة كانوا يعرفون أمّها، ويعرفون أباها.. ولم تدخل المدرسة، اكتفت فقط بما علّمته لها الحياة من سبل لاقتناص فرص العيش!

عندما تفتّح جسـدها في ربيعه الثاني عشر على دورتها الشهرية، وأحسّـت بذلك الاختلاف المفاجئ في شـكل جسـدها الفائر قبل أوانـه، قـدّرت أنّ المال الـذي تجنيه من سـماحها لبعض أصحاب الدكاكيـن بملامسـة أجزاء جسـدها خلف أكـداس البضائع، أو في المسـتودعات المعتمـة التـي ينزلـون إليهـا بـأدراج.. لم يعـد يفي بالغـرض، خاصـة وأنّ البعـض منهـم كان يضربهـا، ويجبرها على القيام بأفعال تصيبها بالغثيان والقرف، فتحبس نفسها أيامًا في القبو، تعانـي من كوابيس مرّة، تـرى فيها فمها مليئًـا بقذارتهم، ومؤخرتها تؤلمها حدّ إصابتها بالهذيان.

أخيـرًا قرّرت التخلص مـن عذريتها. كانت تـدرك بحسّ المرأة التـي أنضجتهـا التجارب نظـرات الرجال التي لم تعـد تتوقف على مؤخرتهـا بعـد أن فـار جسـدها، وامتلـك تضاريـس مغريـة. صـار بإمكانها أن تترك أحدهم يلمس نهديها القاسـيين مقابل وجبة غداء، أو ثـوب أو حـذاء أو حتّى حقيبة وقارورة عطـر! صيدها الأكبر كان فتى أحمـق، التقته مرّة على ضفة النهر، يطرح شـباكه، وينتظر اليوم

بأكمله، ولا يحصل على سمكة واحدة! شاكسته أكثر من مرّة، فلم يلتفت إليها، كان ينتظر سمكته التي لا تأتي! فلقّبته بـ«الأهبل». الأهبل انتفض وهو يراها تتعرّى، وتنزل في الماء غير آبهة بوجوده في تلك البقعة النائية من الشاطئ. تلفّت حوله، لم يكن هناك أحد غيره، لم يدرك بالضبط ما حصل له، لكنّه فوجئ بنفسه وهو يرمي شبكه، ويخلع ملابسه، ويتبعها داخل الماء البارد.

في البداية لم تلتفت إليه، ولم تهتم بمداعبته لجسدها تحت الماء.. كانت تتعمّد إثارته حتّى استطاعت أن ترى بعينيها الصقريتين جسده وهو يتمطّى من النشوة. سحبته إلى الشاطئ، وتمددت فوق العشب، ولم تنتظر حتّى يأخذ المبادرة... وحين تدفقت الدماء بين فخذيها، دفعته بعنف من فوقها، وركضت إلى النهر.. غطست طويلًا حتى شكّ أنّها غرقت، ولن تخرج ثانية.. لكنّه لمحها على الضفة الأخرى، وقد ارتدت ملابسها، وابتعدت!

طار صيت ست الحسن في البلدة سريعًا، وصارت النسوة يخشين على أزواجهن منها، ولم تعد امرأة تاجر أو صاحب محل أو حتّى دكان تأمن من غارة تقوم بها ست الحسن، لخطف زوجها ليلة أو ليلتين، يحلُّ بعدها خراب يشمل البيت أحيانًا، ويقتصر على المحل أحيانًا أخرى.

كانت كرياح السموم، تترك أثرًا من غبار كثيف أحمر، يغطي المكان بطبقة من الصدأ، الذي يتحوّل إلى دم أحيانًا! مع هذا لم تستطع تلك النسوة المنكوبات أن يؤثرن على ست الحسن، أو يدفعنها لمغادرة البلدة، على الرغم من كلّ الوسائل المشبوهة التي استخدمنها ابتداء من اللجوء إلى الكتابة عند المشايخ، والعرّافات، وانتهاء بالتّهديد الصريح بالقتل!

كانت ست الحسن في تلك الفترة التي أصبحت فيها في الخامسة والعشرين من عمرها أقوى من أيّ تهديد، تدير المنطقة بأسرها بسبب علاقاتها الفاضحة مع ضباط الأمن والشرطة، والرؤوس الكبيرة في البلدة ممن لهم علاقة مباشرة بالسلطة والحزب الحاكم. وكانت تفخر بأنّ أكبر رأس يركع أمام حذائها الأحمر ليخلعه من رجلها، قبل أن تسمح له بتقبيل أصابع قدميها!

لا أحد يشكّ أنّها في تلك السن كانت تتمتع بنوع من الجمال الطاغي، مصحوب بفتنة حركاتها، وصوتها المؤثر الذي تهدهد به محدثها حدّ إقناعه برغباتها وإن كانت صعبة التحقيق.

وتحولت موهبتها الكبيرة في الإقناع إلى باب للرزق، فقد أصبحت في فترة قصيرة «مسيّرة المعاملات المستعصية في الدوائر الرسمية!»، خاصة ما يتعلّق منها بالمقاولات، ورخص البناء. حتّى قيل إنّها كانت تقبض مبالغ كبيرة لمثل تلك الوساطة التي

لا تكلّفها الكثير! والبعض تداول همسًا، ثمّ بصوت مسموع أنّ لها يدًا في عملية النصب الكبيرة التي أكل فيها القرش الكبير مقاولة «سدّ زيزون». كان مشروعًا خاسرًا بكلّ المقاييس لا ينفّذه سوى أحمق متهور، أو من يريد ضررًا بالبلاد.

جفت مياه الروج، نفد بطيخ الروج الشهير برائحته وطعمه وبذوره.

مشروع سدّ زيزون، غيّر وجه المنطقة جغرافيًّا. المشروع أدّى إلى نزوح السّكان من الجبال، واستيطانهم في السهل الزراعي الخصب.. فقد كانت هذه المساحات الخصبة المنطقة الوحيدة في سوريا الصالحة لزراعة الأرز. مشروع كلّف الملايين التي نُهبت، وجعلت المنطقة جافة تشكو قلّة الأمطار، وذهبت المياه في العاصي إلى تركيا! وتوقفت زراعة البطيخ، وانقرضت الثروة السمكية المتمثلة في السلّور. لكن مقابل ذلك لم يعد للملاريا وجود! فقد قضي على البعوض!

بعد سنوات انهار سدّ زيزون، وغمر المنطقة، وأغرق القرى المحيطة، وأحدث كارثة إنسانية. كان حلّها بسيطًا، فقد تبنّى «شاليش» مشروع إعمار وحدات سكنية لأصحاب المنازل المهدّمة، كتعويض بسيط للأسر المنكوبة.. لكنّ المقاولين الذين رست عليهم المناقصة دفعوا تكلفة البناء من جيوبهم، ولم يستطيعوا

الحصول من الدولة على مستحقاتهم! عملية نصب صغيرة قيل إنّ لست الحسن يدًا فيها، وإنّها غارقة في الموضوع حتّى أذنيها!

أذناها اللتان تتحسسهما كلّ دقيقة على الرغم من الحجاب! عادة تمكّنت منها بعد أن أصبحت سيدة مجتمع! كانت تخشى أن تتحرّك أذناها في غفلة منها خاصة في حالات التوتر القصوى، فتسارع للمسهما بتلقائية لتتأكد أنّ كلّ شيء على ما يرام!

بعد كل ذلك أصبحت ست الحسن ثرية وبغنى عن بيع جسدها، لكنّ السوسة القديمة ظلّت تنخر روحها، فأدارت بيتًا للدعارة بعيدًا عن سكنها، تزوره بين حين وآخر، حين يكون ضيفها على قدر كبير من الأهمية، أو سائحًا يسيل منه الدسم والنفط!

ست الحسن أمامي على شاشة قناة الدنيا! تبكي بدموع تنسكب على خديها، وتشهق بصوت مؤثر، وهي تروي كيف هاجمت العصابات المسلحة منزلها، وحطّمت كلّ شيء، واغتصبوها هي وأخواتها الثلاث! وتتباكى على مستقبل لن يرضى أحد فيه أن يتزوج من إحداهن بعد ما تعرّضن له!

كانت تبكي، وتندب، وتطالب الرئيس بالأخذ بثأرها وثأر مئات الفتيات أمثالها ممن لم يستطعن الدفاع عن أنفسهن، ولا يجرؤن على الظهور أمام الكاميرا خشية الفضيحة والقتل! إنّما هي امتلكت

الشـجاعة لفضـح هـؤلاء الذيـن يقومـون بالاحتجاجـات من أجل تخريب أمن واستقرار سوريا!

إلى هذا الحدّ الدّنيا صغيرة؟!

***

لونٌ آخر للغياب

فوجئت بوجهه المشرق بابتسامة عذبة حين فتحت صفحتي على الفيس بوك.. صورة في الزي المدرسي وضعها فارس على صفحتي! ليست من قبيل المصادفة، ولا اختيارًا عشوائيًّا.. فقد كتب تحتها عبارة تنضح ألمًا، وتغص بالدمع «بقيت وحدي!». على يسار الصورة كان نور واقفًا يستند بمرفقه على كتف فؤاد شقيق فارس الوحيد وتوءمه. فؤاد كعادته شعره مسرّح بعناية والجلّ يلمع تحت أشعة الشمس. نظرته تنم عن ذكاء ممزوج بالخبث.. وقد أحاط خصر نور بساعده.

وفي أقصى اليمين يظهر فارس، يمدّ يده بحبات اللوز الأخضر، وقد خلع «صدرية» المدرسة، ورماها أرضًا مع الحقيبة. تجمّعت الحقائب أسفل الصورة بفوضى، جعلت بعض الكتب تسقط خارجها. كان واضحًا أنّ الأولاد قد هربوا من المدرسة، وقاموا بعملية غزو صغيرة لأشجار اللوز، لكن.. مَنْ قام بالتقاط الصورة؟

أذكر ذلك اليوم جيدًا، فقد أرسلت لي معلمة نور مرام خانم تطلبني في المدرسة. حين قابلتها أخبرتني أنّ نور لم يحضر البارحة

إلـى المدرسـة، وأنّـه هـرب مـع أولاد الفايز. أسـرّت لـي بخطورة الموقـف، فـالأولاد يرافقون شـابًّا يذهب بهـم بعيدًا في البسـاتين! وضمّنت كلماتها إيحاءً بما قد يحدث لابني في حال لم أراقبه جيدًا! حين عاد في المسـاء كان عقابه شديدًا إلى درجة أنّي بكيت سرًّا بعد ضربي له، وصرت أراقبه في ذهابه وإيابه من المدرسة، فعلى الرغم من وعده لي أن لا يذهب معهم ثانية، إلّا أنّ قلبي لم يطمئن!

عندما أصبح في الجامعة أخبرني أنّ فارس يقيم عنده في المخيّم، وذكّرني بتلك الحادثة منتقدًا تصرفي، وواصفًا إياي بالديكتاتورية!

كان محقًّـا فقـد أثبـت فـارس أنّه شـاب جيد، وقـد حصل على علامات عالية في البكالوريا مكّنته من دخول كلية الطب.. لكنّ فؤاد لم ينجح في دراسـته، وفضّل أن يعمل في ورشـة تصليح سـيارات. لـم يكن العمل عيبًا فـي نظري، لكنّي كنت دائمًا أنظر إلى فؤاد نظرة مرتابـة. هيئتـه وملامحه، طريقة كلامـه، تصرفاته الغامضة.. أشـياء كثيـرة لم تكـن تريحني فيه عندمـا كان طفلًا، وبعد أن أصبح شـابًّا. حيـن كان يـزور نور مع فـارس كان البيـت يضج بضحكاتهـم أثناء لعـب الـورق، ويصبح الجوّ خانقًا في غرفـة الضيوف من الدخان.. بعـد خروجـه كنت أفتح النوافذ، وأعيد مسـح الزجـاج، وأوبخ نور على اسـتقباله في البيت. الروائح الخانقة التـي يخلّفها وراءه كانت تكفـي لأرفـض حضـوره إلى البيـت. نور كان يبتسـم، ويقـول لي:

«يـا أمّي هو ليس صديقي، صحيح تقاسـمنا مقعد الدراسـة، وأكلنا معًـا، وكبرنا معًا، لكنّه ليس صديقي، فـارس فقط صديقي. اطمئني لن أتأثر بطباعه»، مع ذلك لم أستطع التخلي عن قلقي.

الآن وأنـا أرى صورته، وأقرأ خبر مقتله.. أشـعر بالندم والغصة تمـلأ حلقـي. جزء مـن ماضي نـور مـات! دُفنت بعـض الذكريات بحلوها ومرها.. وبقي فارس وحيدًا!

تضاربـت الأقوال حول موت فؤاد، لم أكن أريد تصديق شـائعة أنّه كان يعمل مخبرًا، وأنّ الثوار قاموا بتصفيته.

طيلـة حياتـه كنـتُ أصدّق الشـائعات السـيئة عنـه.. عندما مات صـرت أرفض تصديق السـبب في مقتله. أردت أن أرسـم له صورة أنقـى وأنظـف ممـا يروجونه في البلـدة عنـه. أردته صديقًـا جميلًا لابني.. أردته شهيدًا.. لكنّه لم يكن!

على نافذة المحادثة كتبت لفارس أسأله عن القصة. اكتفى ببضع كلمـات تؤكد أن مـا يقال في البلدة ليس صحيحًا، وأنّ السياسـة لم تكـن تعني فؤاد يومًا، ولا يعرف من المـوالاة للنظام أكثر من فائدته الشخصية في عمله. علاقاته مع الضباط لا تتعدّى العناية بسياراتهم وإصلاحها. القضية للأسـف كانت بسـبب علاقته بامـرأة متزوجة، أعانت الفوضى الأمنية زوجها على قتله من دون خشية محاسبة من

دولـة لا يوجـد فيها قضاء، ومهمة رجال الأمن فيها إشـاعة الفوضى والقتل والتحريض على الجريمة!

فوجئـت بأنّ نور قد فتـح صفحته أيضًا، وشـارك صورة فارس، وكتب تحتها: «اليوم دفنت طفولتي.. اليوم طالت يد الغدر ابتسامتي المرحة، مشاكسـاتي، أسراري الصغيرة المسروقة من زمن الرجولة المبكـرة.. اليوم استشـهد صديقي فؤاد.. رحمه اللـه.. مع المعذرة من أمّي!».

غلبني الدمع وأنا أكتب له:

«رحمـه الله يـا بني.. أراه كما تـراه.. يكفي أنّه ضحيـة المؤامرة الكبرى على دماء السوريين وأرواحهم!».

****

بعـد انقطـاع طويـل وصلتنـي مـن حنظلـة رسـالة عبـر البريـد الإلكترونـي، يعتـذر عـن تأخره بـأنّ الإنترنت قـد انقطـع تمامًا في المنطقـة التي أقـام فيها المـدّة الماضية.. فبعد خروجه من الجسـر متوجهًا إلى حماة صادفت الحافلة مشـاكل على الطريق منعتهم من متابعتـه، فنزل في جبل الزاوية، واضطرّ للبقـاء زمنًا هناك ريثما فُتح الطريق إلى المعرة وما حولها بعد حصار الجيش لها واقتحامها.

وصلتُ حماة يوم جمعة. استقرّ بي المقام في مسجد عمر بن الخطاب، حتّى صار الحضور إليه بشكل يومي يحقّق لي بعض التوازن. أمضي ساعات أراقب الناس في ساعات صمتهم وتأملهم، وهم يستندون إلى الأعمدة وجدران المحراب.. صمتٌ ممزوج بذلك الحزن الشفيف الذي يتحوّل إلى همهمات مصحوبة بتلاوة سورٍ قصيرة ودعاء اعتادوا ترديده طلبًا لسلام نفوسهم. لم تكن مراقبتي لهم من باب الفضول فقط، بل كنت أحاول معرفة هؤلاء الأبطال الذين حملوا وزر المجاهرة بطلب الحريّة طيلة تسعة وثلاثين عامًا منذ انتفاضتهم الأولى، وحتى الساعة.

أبو محمّد السبعيني الذي أراه دائمًا متكئًا على جدار المحراب يقرأ القرآن لساعاتٍ بعد الصلاة، ويمسح دمعًا على وشك أن يبلّل لحيته.. أخبرني أنّه كان طيلة ثلاثة عقود من الزمن ينتظر هذه اللحظة! لم يكن في هيئته ما يدل على المأساة المكرّرة ما عدا تمسكه بكلّ ما يمت إلى زمنه الماضي من عادات وأسلوب حياة. فهو يرفض استخدام الهاتف النقّال، ولم يكن في بيته أيّ شيء يدلّ على ما وصل إليه العصر من تقنيات. ما زال فرن الكهرباء القديم يحتلُّ صدر المطبخ البسيط بكلّ ما يحتويه.. وغرفة الجلوس مفروشة ببساط من شعر الماعز.. وسجادات من قصاصات الأقمشة. وأهم شيء في البيت أنّه يحمل لمسة أنثوية على الرغم من عدم وجود نساء! كلّ شيء مرتب ونظيف، حتّى أنّ جهاز

الراديو القديم في زاوية الصالة الصغيرة مغطّى بـ«شلفة» من الحرير حاكتها بـ«السنارة» يدٌ ماهرة ومرهفة، يدُ فنانة حقيقية. لم أشأ أن أسأل أبا محمّد من حاكها.. كان واضحًا أنّه فقد كلّ النساء اللواتي كنّ يومًا في هذا المنزل! لكنّ أبا محمّد بفطنته استطاع أن يقرأ نظراتي الفضولية فقال ببساطة: «هذا البيت لم تدخله أنثى، وهذا الغطاء هو كلّ ما تبقى لي من ابنتي أبيفانيا(*). أمّا هذه السجادة فقد حاكتها زوجتي من بقايا القماش الذي كانت تجمعه بعد انتهائها من خياطة الملابس لسيدات الحي... لقد أكرمني الله حين عدت من الموت، ووجدت هذه الأشياء محشورة في قبو بيتي المدمر، وكأنّ يد إحداهن لفّتها بعناية، ووضعتها هناك خشية أن يسرقها الجنود! ومنذ ذلك التاريخ وأنا أعيش هنا وحدي. كما ترى، أنا لا أغادر المسجد لأنّه كان آخر مكان لجأن إليه. في الموضأ قضين آخر ساعات في عمرهن، أسمع همسهن واستغاثتهن، أسمعهن.. صدّقني لم أعد أتألم لذلك، ولا أفكّر بالثأر أو الانتقام، فقط أحاول أن أبقى بجانبهن تكفيرًا عن تركهن في ذلك اليوم المشؤوم».

خرجت مع أبي محمّد من مسجد عمر بن الخطاب، وتمشينا في الشارع العام إلى أوّل طريق حلب... الشباب قدموا من كلّ الجهات،

(*) أبيفانيا : الاسم الذي أطلقه السلوقيون على حماة، ثمّ أطلق عليها الأيوبيون اسم «مدينة أبي الفداء»، وحماة تعني القلعة، يقسمها العاصي إلى قسمين، وهي من أقدم المدن المأهولة في الأرض، تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد.

تدفقوا من السّخانة وحي المناخ القريبين ومن أماكن بعيدة حتّى ضاق بهم المكان. كانوا ألوفًا، هذا ما أنا على يقين منه، والأكثر من هذا كنت على يقين أنّ كلّ صوت يهتف وراء إبراهيم القاشوش هنا بمئة صوت. ارتجّت جدران المنازل القريبة، وعلت من أسطح البيوت أغاريد، وحُمل شباب على الأكتاف، ورُفعت رايات ولافتات. اندمجتُ في نسيج الأجساد المتناغمة، حتّى أضعتُ أبا محمد! فجأة انهمر الرصاص، وأخرس الهتافات، وغطّى على أصوات الاستغاثة. ترنحت عشرات الأجساد، وسقطت مضرجة بالدّماء. تسابقت السيقان في الركض، البعض يحمل الشهداء والجرحى والبعض يفرُّ بروحه!

خلت الساحة إلّا مني! كنت وحيدًا هناك.. أحاذر أن تطأ قدمي الدّماء الطاهرة.. وعيناي تبحثان بين الأحذية واللافتات وبقايا أشياء أخرى سقطت في المكان عن أثرٍ لأبي محمّد.

أخيرًا وجدته.. كان ملقى على الرصيف وبقربه فردة حذاء.. حملته بلهفة، مسحتُ عنه الدّماء.. تأملتُ خيوطه الدّقيقة الصنع، كلُّ ما تبقى من أبي محمّد «عقاله» المغمس بدمائه!

الشباب حملوا أبا محمّد إلى مستشفى الحوراني. كنت على ثقة أنّه قد فارقني إلى الأبد، عقاله المغمس بدمه بقي بين يديّ شاهدًا على وحشية استثنائية لم أشهدها حتّى في الحرب على غزة!

لكنّـي على يقين أنّها مجرد تكرار بائس لسـيناريو شـباط 1982. لم أكـن قد مـررت في حماة في ذلك التاريخ، لكـنّ أبا محمّد روى لي أحـداث ذلك اليـوم الرهيب حين لمسـتْ أصابعي بإعجاب شـالًا مشـغولًا بخيوط حريرية رفيعة بشـكلٍ لا يسـتطيع الناظـر معه رؤية الخيـط بمفرده للوهلة الأولى، غطّى الشـال طاولة صغيرة في غرفة الجلوس.. وظهرت في مقدمته خيولٌ تكاد لدقة رسـمها تخرج من اللوحـة الحريريـة قاطعة الصالة بلمح البصر. تسـاءلت عمن رسـم هذا المشهد المهيب، وحاكه بهذه الدقة المدهشة. فدمعت عينا أبي محمّد، وبلع ريقه بصعوبة وهو يقول: «صنعته أبيفانيا. لم يتركوا لها فرصة لتحيا وتبدع المزيد». توقفتُ عند هذا الحدّ فقد شـعرت أنّي آلمتُ أبا محمّد بسـؤالي، لكنّه تابع برقة: «لا بأس عليك.. المشـهد فعلًا يستحق أن تقف عنده، فهو يعبّر عن روح المكان وأهله، حماة كانت حاضرة للخيل قبل أن تجتاحها قوات رفعت الأسد في شباط 1982».

كان أبو محمّد يسـتعدُّ لصلاة الصبح وقد أفاق متأخرًا لأوّل مرّة منذ سـنوات. شـعر أنّ كلّ خلية في جسـده تؤلمه، لم يشأ النهوض من الفراش على الرغم من سـماعه أذان الفجر، تباطأ في طريقه إلى الحمّـام، تأمل شـجرة اللوز والدالية وقد جرى فـي عروقهما الماء، تساءل بقلق: «لم يدخل الربيع بعد! ما الذي جرى؟».. تنهّد بصوتٍ مسـموع، فغطّت تنهيدته على صوت شـقيقته لميـس التي قالت له:

«الماء الساخن جاهز». آثر أن يتوضأ بالماء البارد، لعلّه ينتشله من كابوس ما زال مطبقًا على صدره منذ فتح عينيه، ولم يستطع تذكّر تفاصيله.. وقبل أن يتمّ جملته «ربي ثبّت قدميّ وقدميْ والديّ على صراطك المستقيم» أصمّ صوتُ ارتطام عنيف أذنيه! تهيّأ له أنّها صاعقة وقعت بالقرب من البيت. استغفر اللّه، وحاول تهدئة ضربات قلبه بالدّعاء.. متمنيًا أن لا تكون قد أحدثت أضرارًا في بيت أحد جيرانه، لكنّه صحا فجأة من تمتماته، وكاد نبضه يتوقف، حين وعى الأمر بوضوح، ورشقات الرصاص تقترب، وكأنّها تستهدف قلبه! النسوة في المنزل استيقظن قبله، وتجمّعن في صحن الدار بقلق.. سمع صوت جاره أبي حسين يناديه. خرج ليستطلع الأمر، فرأى رجال الحي قد تجمعوا، وتشاوروا فيما بينهم، واتّخذوا قرارهم بأن تنضم النسوة والأطفال إلى أسرته لأنّ لديه ملجأ آمنًا يحميهم من القذائف والرصاص. أخليت البيوت بسرعة، لكن الملجأ لم يكن يتسع للجميع، فبقي البعض في بيوتهم. الرجال أخذوا على عاتقهم مساعدة الشباب في إسعاف المصابين، وتأمين الحاجيات الضرورية لسكان الحي.

فوضى عارمة حلّت في البيت، أطفال يبكون طيلة الوقت ونساء قيّد الخوف أيديهن فلم يعدن يستطعن الاهتمام بأطفالهن وإسكاتهم بالطرق التقليدية.. تفرغن لقراءة القرآن والدعاء، وتركن أمور العناية بالصغار للفتيات والصبايا! الرجال في الخارج

حكـم عليهـم بعـدم النـوم إلّا بالتنـاوب، لضيـق المـكان وضرورة مراقبة الوضع. بدأت شـمس اليوم الثاني بالغيـاب والقذائف تمطر الحي بعنف أشـدّ من اليوم الأول. انهـارت عدّة منازل، وازداد عدد الشـهداء والجرحـى، ولـم يعـد بإمكان العـدد الضئيل مـن الأطباء والمسـعفين العنايـة بالمصابين وسـط ازديـاد العدد، وشـح المواد الطبية! وجدوا أنفسـهم أمام حصار يفـوق قدرتهم على الاحتمال. الشباب يتساقطون أمامهم وإحساسهم بالعجز يقتلهم!

لم يكـد اليوم الثالـث للحصار ينتصـف حتّى هزّ البيـت انفجار عنيـف تداعت له جـدران الغرف العلوية، وسـدّ الأفـق غبارٌ كثيف منعهـم من اسـتيعاب الموقـف. تحرّكت النسـوة والأطفـال خارج الملجأ، وانتشـرن فـي الحارة فـي فوضى مخيفة وسـط ذعر وبكاء الأطفال. كان عليهم مغادرة المنزل، فلم يعد الملجأ آمنًا، والخوف سـاد الحي بأكملـه. قرّر الرجال أن يبقى البعـض للعناية بالجرحى، والبعض يرافق النسـاء والأطفال. تشـبثت البنـات بأبيهن، وأصرّت الحاجة لميس على البقاء مع شقيقها إن لم يشأ مرافقتهن.

امتثـل أبو محمّد لرغبة شـقيقته الوحيدة على مضض. كان اليوم السـادس للحصـار حين غادروا حـي البارودية إلى سـوق الحاضر ليعبـروا إلـى الأميريـة. الوقـت كان صباحًا والأطفـال المذعورون المتشـبثون بملابـس أمهاتهـم يبكون مـن الجوع والخـوف، ويعلو

صراخهم حتّى يغطي على صوت الرصاص المنهمر من كلّ الجهات. لم يكن من السهل عبور شوارع يتمركز القناصة على أسطح أبنيتها. الأصعب من المرور في الشوارع الملغمة بالقناصة، هو تهدئة الأطفال وإقناعهم بالانبطاح أرضًا، وعبور الشارع زحفًا كي لا يصبحوا هدفا لرصاص القناص! في أوّل قبو صادفهم لم يجدوا مكانًا لهم، فقد كان مكتظًّا بالناس. هناك ودّع بناته، وتابع وشقيقته لميس طريقهما صوب شمال الأميرية.

وجدا ملجأ كبيرًا، باتا فيه ليلتهما، وفي مساء اليوم التالي استأذن أخته، كي يعود إلى الملجأ الأوّل، ليحضر بناته وأمّهن... انقطاع الكهرباء ساهم في حلكة الظلام.. تلمّس طريقه على هدي الذاكرة. حين فوجئ برشقات رصاص من أسلحة مختلفة تبعتها أصوات قذائف وانفجارات، لم يستطع تحديد مصدرها؛ لجأ لأقرب مدخل بيت ليحتمي به. بقي في مكمنه حتّى الصباح. حين غادر المكان لم يستطع الذهاب في الاتّجاه الذي جاء منه بسبب انتشار الجيش وكثرة الحواجز في تلك الأماكن! اتّخذ طريقه بين الأزقة الفرعية، محاولًا الابتعاد عن نقاط تواجد الحواجز. لكنّ الرصاص لا يوقفه زقاق ضيق أو فرعي! سيطرت عليه فكرة حمقاء بالعودة إلى البارودية، حين لم يجد سبيلًا يوصله إلى الملجأ حيث بناته. تطامن قلبه إلى أنهنّ في مكان آمن. لم يشعر بالخوف وهو يعبر الأزقة صوب الحي المنكوب. حين صار قريبًا من الحي كانت المدفعية تدكه بوحشية.

لم يستطع الدخول، كان ذلك مستحيلًا.. الجيش يحيط بالحي، وعملية الإبادة مستمرة! دُمّر الحي تمامًا بعد أن اجتاحه الجنود، وسرقوا كلّ شيء! شاحناتهم كانت مليئة بأثاث البيوت والتحف. سرقوا الخيول، ودمروا كلّ ما لم يستطيعوا حمله!

توجّه إلى شمال المدينة، واستطاع مغادرتها إلى قرية قريبة تبعد عشرة كيلو مترات عن حماة بمساعدة بعض الشباب المتطوعين من اللجان الشعبية. هناك التقى بشقيقته لميس. حكت له فيما بعد عمّا جرى لها خلال الأيام التي غاب فيها عنها. قالت:

بعد مغادرتك الملجأ بساعات، دخل الجيش حي الأميرية، وحولوا الملجأ إلى معتقل! أخرجوا الرجال، أعدموا بعضهم مباشرة أمام باب الملجأ، والباقي لا نعرف مصيرهم. عمّت حالة فوضى وذعر شديدة بين الأطفال والنساء في الملجأ، أصوات البكاء تطغى على أصوات النساء اللواتي يلهجن بآيات القرآن طلبًا للنجاة. الجنود وجدوا تسليتهم في الجمع الخائف، فأجبروهم على ترديد شعارات تجلب لهم الفرج! تحت التهديد بالسلاح كان الأولاد يصرخون «ياالله حلّك حلّك يقعد حافظ محلك» و«بالروح بالدم نفديك يا حافظ». ثلاثة أيام من دون طعام، رائحة المكان الخانقة لا تطاق، رائحة بول وجوع وأنفاس نتنة.. امتزجت برائحة دم الفتيات المغتصبات.. فقد كنّ تسلية الجنود على مدى الأيام

الثلاثـة. في الداخل فزع يخلـع قلوبنا وفي الخارج صراخهن يغطي علـى صرخات الجوع والألم وبكاء الأمّهـات. أخرجونا في صباح اليـوم الرابع وهم يتضاحكـون، ويقولون: «حـان موعد ذبحكن!»، مـع هـذا عيرونـا بأنّنا مثـل العنـزات العجفـاوات لا نصلـح لنكون أضحية! سـاقونا وأيدينـا مرفوعة ونحن نردد وراءهـم ما يحلو لهم من الشـعارات. الطـرق كانت مليئة بالجثث المتفحمة والمتفسـخة والمقطّعة أشـلاء.. نسـوة مـن دون أيدٍ، رجال بعيـون مفقوءة، آذان مقطوعة، أجسـاد ممزقة وقد قطعوا أعضاءها التناسـلية! لكن أقسى مشـهد جمّدني في مكاني جسد رجل شـقّ إلى نصفين وآخر دُهِسَ رأسه بعجلات سياراتهم! لم أعد أتمكن من نقل ساقيّ حتّى شعرت بوخـزة بندقيـة فـي خاصرتـي وجندي يضحـك سـاخرًا: «أعجبك المنظر.. لـم تشبعي من تأمله؟».

لـم أفهم سبب كلّ ذلك التوحش! كان علينا أن نعبر فوق الجثث أحيانًا، مهما حاولنا تجنبها لا نستطيع. وصلنا أخيرًا إلى جامع عمر ابن الخطاب.. الجامع كان مدمرًا، لم يبقَ منه سـوى الموضأ. وجّه الجنود أسـلحتهم إلـى صدورنا، وأمرونا بالانبطاح أرضًا، وتسـلوا بإدخال بعضنا زحفًا، ثمّ أغلقوا علينا الباب! في الداخل وجدنا خبزًا عفنًا.. لم يسـدّ جوع أطفالنا، لكنّه كان أفضل من الموت جوعًا! في منتصـف اليوم التالـي أخرجونا من الموضأ، وقالـوا لنا: «لا تنتظرن

أزواجكـن أو أولادكـن.. لقد قتلناهم جميعًـا»، وأطلقونا في طريق حلـب. مشـينا مسـافة طويلـة قبـل أن نجد شـاحنات أهالـي القرى المجـاورة بانتظارنـا.. الحمد لله أنّي اجتمعت بك يا أخي.. لا أريد شيئًا من دنياي بعد الآن سوى الذهاب إلى الحج.

الحاجّة لميس ذهبت إلى الحج بعد عودتهم إلى حماة.. وماتت هنـاك - كما تمنّت - كانت أمنيتهـا الوحيدة أن تدفن بالبقيع جوار النبي الكريم.

البيـت ملـيء برائحة الذكريـات، بصوت «أبو محمّـد»، بأنفاس أبيفانيـا، بأحاديـث الحاجـة لميس.. أشـياء لا يمكننـي احتمالها.. لـذا قـرّرت أن أغـادر البيـت حاملًا معـي الذكرى الطازجـة «عقاله المخضب بالدماء».

استقبلني هواء مغبرّ في الخارج، الشوارع شبه خالية من الناس.. في الجوّ رائحة مريبة! فجأة اندفع أمامي مجموعة من الشباب سدّوا الشـارع من طرفيه، وعلـت هتافات تطالب بإسـقاط النظام ووحدة الشـعب السـوري. لم أكن بحاجة للتفكير بما سيجري فقد سمعت مباشرة صوت الرصاص ينهمر من الأسطح البعيدة!

شـبه يقين تملّكني أنّ في ملامحه شـيئًا من شخص أعرفه، حين امتدت يده لتسحبني من الطريق العام إلى مدخل بناية تقيني رصاص بندقية قناص تمركز على سـطح في بداية الشارع، وجنود كانوا على

مقربـة من الشـارع الرئيـس. لا أدّعي أنّـي عرفته، لكن في ابتسـامته شـيء حميم دفعني للاستسـلام ليده والتحديق في وجهه، انتبه بعد لحظات، وسألني: «تشبّه عليّ؟». أومأت بالإيجاب.. وأشرقت في ذهنـي ملامحك في صورة قديمة رأيتها في صفحتك بالفيس بوك.. أيعقـل أن يكون؟ همسـتُ «نـور؟». ردّ بابتسـامة اتّسـعت لتغوص غمازتـان تحـت عينيه في بهجـة خالية من أيّ اسـتغراب: «نعم»... وسـاد صمـت قطعه بسـؤاله: «مـا بيـدك؟». انتبهتُ إلى عقـال أبي محمّـد فـي يدي! أخبرتـه القصة، نصحنـي: «عليـك التخلّص منه، سـنمرّ في طريقنا على حواجز للجيش، سـتعرّض نفسـك للاعتقال وربّمـا التصفية مـن دون فائدة». لـم يكن سـهلًا علـيّ أن أترك الأثر الوحيـد لصديـق رحلتي الشـائكة، لكـنّ الوضع القائـم فرض عليّ الاستسـلام. واريت العقال فـي مكان معتم تحـت درج البناء الذي لجأنـا إليه.. ثمّ غادرنا ثلاثتنا.. أنا ونور وصبية جميلة كانت ترافقه! كان اليـوم جمعـة، جمعـة «أطفـال الحريّة». شـعرت منـذ الصباح بوخزة في القلب على الرغم من اندفاعي المبتهج لممارسة طقوس التظاهـر الكرنفاليـة التي تمتعت بها حماة خلال الأسـابيع الماضية من عمر الثورة. ولم يخني إحساسـي، فقد تسـرّبت روح أبي محمّد مـن بين أصابعي مبتعدة مع عقاله المغمّس بالدّم القابع في العتمة.. ولـم يتوقـف قلبي عـن خفقانه المريـب ونحن نعبر الشـارع لنلحق

بالمتظاهريـن الذيـن تفرّقـوا بعـد إطـلاق الرصاص الحـي عليهم. مجموعة من الشباب كانت تقترب من وسط الشارع لحمل الجرحى غير آبهين برصاص القناصة!

كان المـوت أقـرب ممـا تصـورت، وأقرب ممـا تمنى الشـاب الملقى وسـط الشـارع.. منذ دقائق فقط كان يتأبط ذراعي، ويصرخ «الموت ولا المذلة». لماذا اسـتجاب الموت لندائه بهذه السرعة؟! هـل يسـتحق صوت الحق هـذا العقاب السـريع لجهـره بالحقيقة؟ تقدّمنـي نور، وحمل الشـاب، وركض عابرًا الشـارع، وأنا في إثره. العشرات رافقونا إلى مستشفى «الحوراني».. ابتسم لي وهو يضغط كفـي، والطبيـب ينادي: «دم يا شـباب (O سـلبي).. مَـنْ زمرة دمه مطابقة ليسرع يا شباب».

كنت بحاجة للتخلص من آثار المشـاهد الدموية، تنفست الهواء بعمق.. لكنّ رائحة الموت كانت أقرب، ورائحة البارود تمدّدت في ذرات الهواء، وخرّشت صدري. الرائحة تلاحقني أينما اتّجهت!

لـم أخبر نور أنّي أعرفك، لاعتقادي أنّ الأبناء ينظرون بعين الريبة لأصدقـاء أمهاتهم من الذكور! لم أخبره.. لكنّي ندمت بعد معرفتي العميقـة لشـاب مميز في كلّ شـيء. هنيئًا لكِ بـه. اطمئني لم يصب بمكـروه.. بالتأكيـد كان وجـوده مخاطـرة، خاصة وأنّـه كان يحمل مبلغًا كبيرًا، قام بإيصاله لأهالي المتضررين من الشـهداء والجرحى

والمعتقلين. ودّعني، وعاد إلى دمشق بصحبة صديقته. أمّا أنا فذهبت إلى بيت أبي محمّد لأقضي ليلتي تلك بعيدًا عن عيون الموت المحدقة بي في كلّ مكان!

مرّ على وجودي في المدينة شهر إلّا يومين.. أهي ذكرى صديقي التي دفعتني للبقاء في المدينة أم فضولي الذي حثني للبحث في الشوارع والحارات عن ذاكرة الماضي؟ أم تراها رغبتي في سماع هتافات الحريّة والاندماج بالمتظاهرين الذين أحيوا الشارع، وبثوا فيه ألق أرواحهم؟ الجمعة التي لن أنساها في حياتي كلّها، وستبقى حروف اسمها محفورة في روحي هي جمعة «ارحل».

اتّجهت إلى ساحة العاصي منذ الصباح.. منظر مهيب لا يمكن أن أتصوّر حدوثه حتّى بعد مشاهدتي لجموع المصريين في ميدان التحرير.. على الرغم من أنّ العدد هناك كان أضعافًا مضاعفة لعدد المتظاهرين في حماة، إلّا أنّ الطابع الحميمي، الصوت الواحد، النداء الأثير وراء إبراهيم القاشوش(*) كلّ ذلك أعطى خصوصية للمدينة وللتظاهرة لا يمكن مقارنتها بأيّ مظاهرات أخرى في العواصم العربية المنتفضة.

(*) شاب سوري من حماة، من مواليد 1977، اشتهر بقيادته المظاهرات ضد بشار الأسد في ساحة العاصي، وبأغنيته «يالله ارحل يا بشار». قتله النظام أثناء الحملة الأمنية بعد جمعة «ارحل»، واقتلعوا حنجرته ورموه في نهر العاصي في 3 تموز 2011.

في الصباح كنت قرب العاصي، أبحث عن نسمة صافية تردّ للرّوح بعض توازنها. على الحاجز رأيت مجموعة من الشباب يخرجون جثة، ويحملونها وهم يكبّرون.. لقد طالت يد الغدر حنجرة القاشوش، واقتلعتها، لكنّ النّهر كان يرجّع صوته، والنايات البعيدة تردّد الصدى، وفي أفق حماة ارتفع دخان أسود!

اتّجهت الدبابات إلى مداخل حماة الشرقية والجنوبية والغربية.. وبدأت حملة الاعتقالات، وتطاير الرصاص حاصدًا أرواح أكثر من عشرين شابًّا في عدّة أحياء. كان الجوّ العام ينبئ بكارثة وشيكة. بتّ تلك الليلة في المسجد وأنا أفكّر في مغادرة المدينة صباح الغد.. لكن عندما طلع الصباح كان الهدوء يعمّ المدينة! إضراب عام شمل حماة احتجاجًا على دخول الجيش، وقام عدد من الشباب بإقامة حواجز على مداخل الأحياء لحماية الأهالي. وفي الثامن من تموز في جمعة «لا للحوار» اعتصم آلاف من المتظاهرين في ساحة العاصي، وانضمّ إليهم السفيران الفرنسي والأمريكي.. هذا الجوّ المليء بالحماس والتصميم على متابعة الاحتجاجات جعل قرار متابعتي السفر إلى حمص بين شدّ وجذب، كلّما اتّخذت قراري، يفاجئني الصباح بحدث جديد. ففي جمعة «أسرى الحريّة» استمرّ العصيان المدني الكامل، لكنّ بعض وجهاء حماة تفاوضوا مع المحافظ الجديد على إطلاق الأسرى وسحب الدبابات مقابل إزالة الحواجز من مداخل الأحياء.

جمعـة «أحفـاد خالـد بـن الوليـد» كانـت أكثـر الجمـع توهجًا وعددًا.. واسـتمرت الاعتصامات والاحتجاجـات حتّى نهاية تموز حيث احتُلت المدينة بشكل كامل، وشلّت الحركة فيها.. وكان عليّ أن أغادر في صباح الأوّل من آب إلى حمص!

***

السيمفونية الخامسة

فــي صفحتي على الفيس بـوك ترك لي ابني رسـالة أثارت قلقي مـن جديد. كانت الاتصـالات مقطوعة، لكنّ خبر الرسـالة وصلني مـن أصدقائي.. ولـم أقرأها إلّا بعد عشـرين يومًا مـن الانقطاع عن الإنترنت.

(أمّي الحبيبة.. يا ست الحبايب...

جميل جدًّا أن تخاف الأمُّ على ابنها.. لكن..

عندما طرد السّـوريون المحتل الفرنسي، كانت الأمّ تدفع أبناءها إلى الشوارع للمشاركة في الثورة، وعندما يعيدون لها ابنها شهيدًا.. كانت تغسّله بدموعها، وتخرج في جنازته تزغرد ودموع الفرح تملأ عينيها...

هكذا كنَّ.. وهكذا سيبقين!

علّمْتِنـي أنْ أكـون ثائـرًا مـع الحـق.. أرضعتني أشـعار محمود درويش مع الحليب «سجّل أنا عربي».

أما جدي فقد علّمني كيف أزرع الأرض، وأحبّها، وأحبّ مراقبة الزرع وهو يكبر، وأحبُّ الحياة فلا أخاف شيئًا إن كنت على حق.. وأطرق رأسي أرضا إن كنت على باطل..

وعلّمني خالي كيف أكون قويًّا شجاعًا أساعد الناس ولا أظلمهم و...

أنتِ تعرفين البقية.

أمّاه... من شبَّ على شيء شاب عليه.. وأنا الآن أصبحت شابًّا قويًّا بقوة الله محبًّا لوطني ومحبًّا لحريتي.. وأنتِ خير من يعلم كم أحبُّ الحريّة!.. ولا تنسي أنّهم اعتقلوا أباكِ في الثمانينيات، واعتقلوا أخوتك جميعًا، واعتقلوا أعمامك، وحتّى أنت زرت فرع الأمن العسكري مرّتين أو ثلاث مرّات!

لأجل ذلك، أرجو منك بدل أن تخافي عليّ، أنْ تفخري بي.. ربّما شعرتُ أنّها الطريق الصحيحة التي وضعتِني عليها مذ كنتُ طفلًا..

لا تطلبي مني أن أسكت بعد اليوم يا أمّاه.. لأنّي لن أسكت أبدًا..

إن شاء الله سأتخرّج هذا الفصل أيضًا، ولن أخيّب أملك..).

لم يخبرني أنّه كان في فرع فلسطين، لكنّي كنت أملك من الحدس مـا يجعلني أدرك بحواسـي كلّها أنّـه في ورطة. منـذ ذلك الاتصال الـذي وصلنـي من رقـم مجهول، عشـت أيامًـا عصيبة، لـم أعرف بالضبـط ماذا حـدث.. لكنّي أدركت ما يشـعر به. ولـم يكن مفاجئًا أن يحاول فارس تجاهل وجودي في المكتبة وكأنّه لا يعرفني حين صادفته بعد الاتصال بأسـبوعين! تعمّق إحساسـي لحظتها بحدوث ما يريب. انتظرته حتّى غادر المكتبة، وتبعته.. استوقفته في الطريق، ودعوته لتناول الشـاي معي. بدا واضحًا أنّه مرتبك، حاول الاعتذار لكنّي رفضت أيّ عذر. في البيت جلس منكمشًا على نفسه، والقلق جعل أصابعه ترتعش وهو يتناول فنجان الشـاي. قلت بهدوء: «كان عليه أن يتوقع النتائج، ويكون أكثر حذرًا». حدّق فيّ باستغراب، ثمّ قال بارتباك: «معك حق يا خالتي، أنا نبهته أكثر من مرّة، لكنّه مندفع جدًّا، حماسـه يغلبه في معظـم تصرفاته، تصوري يـا خالتي أنّه كان يسـتعمل كمبيوتره المحمول في الأماكن العامة! وقد نبهته لخطورة الأمر لأنّ المقاهي مليئة بالمخابرات وهو يراسـل أناسًا في الخارج مـن أجل التبرعـات والأدوية وهذا خطر عليـه». قلت وأنا أغتصب ابتسـامة: «يعتقـد أنّـه دائمًا على صواب، إحساسـه أنّـه محمي بنيته الطيبـة يدفع بـه إلى المهالك، لكـن كلّ أخطائه لا تعـادل ما حصل مؤخرًا». قال بثقة: «احمدي الله يا خالتي مرّت على خير، اسـتطاع تخليص نفسـه، لكن.. لولا المعرفة الشخصية بين أستاذه والمحقق

في فرع فلسطين لم يكن ليخرج بسهولة.. لا تخفى عليك سمعة الفرع السيئة.. الله والمال الذي دفعه أستاذه أنقذاه».

لم يعرف فارس أنّي استدرجته في الحديث لأملك اليقين بأنّ إحساسي به ما زال كما هو لم يتغيّر. أخبرني أنّه لم يعد إلى دمشق منذ فترة طويلة، وآخر مرّة رأى فيها «نور» عندما أحضر له شحنة أدوية لمخيم خربة الجوز! قال لي: «لماذا لا تسكنين معه في دمشق يا خالتي؟ هو وحده الآن». صالح بعد اعتقاله والإفراج عنه التحق بالجيش الحر في الرستن. وأنا تركت دراستي في كلية الطب، وأعمل مسعفًا في المدن المنكوبة.. نور تعرّف على شباب آخرين يعملون في الإغاثة. قال لي إنّ المظاهرات الطيّارة لم تعد ذات جدوى في اعتقاده.. تعلمين أنّه كان في البداية يقود مظاهرات سريعة لا تتجاوز الدقائق الخمس في حلب، وإدلب، ودمشق، يصورها، ويضعها على اليوتيوب بهدف بث الحماس في الشباب، ونفي فكرة الصمت عن تلك المدن.

لا شكّ أنّ ما قاله فارس لم يكن جديدًا ومفاجئًا لعقلي، لكنّه أقلق روحي فزادت ضربات القلب! ما يزال آخر ما كتبه في صفحته ماثلًا أمام عينيّ.. (على أحد الحواجز التابعة للجيش، أنزلنا العساكر من الحافلة، ونحن في طريقنا إلى حلب. أحدهم أخذني على جنب، وفتّش حقائبي، واقترب مني ليفتش ملابسي، وهو يهمس: «يستر

عرضك قل لي، مَن يقتل مَن؟ الجيش ولا الناس؟ عم يقولوا لنا الناس عم تهجم على الجيش، ونحنا ممنوع نغادر الحاجز! من أربعة أشهر ما شفت أهلي». عرفت من لهجته أنّه من دير الزور، شاركه في تفتيشي عسكري آخر من حماة، همس بقلق: «عم يقولوا الناس حاملة سلاح وأردوغان رح ياخد إدلب، وسعد الحريري وإسرائيل رح يتقاسموا حمص وحماة، ودرعا رح تنضم للأردن.. من شان الله قل لنا شو عم يصير؟».

احترت في الرد. خفت من قول الحقيقة، وخفت عليهما من الكذب.. ابتسمت لهما، لكنّ دموعي خانتني، فكانت خير جواب. العسكري الحموي حين رأى دموعي، قال لي: «خلص يا أخي اطلع على الباص، وصلتْ أخي.. لا إله إلا الله.. الله أكبر على الظالم». كم تمنيت لو أخذتهما بين ذراعيّ وبكيت على كتفيهما!).

*****

تعقيبًا على الدعوات إلى الحوار الوطني، التي أعمت أنظار الناس عن القتل وأعمال الفوضى، واستباحة أعراض السوريين.. كتبت على صفحتي: «لا تحاور.. الدم بالدم».

فكتب لي تعليقًا: «أهو هوس بالموت؟ لماذا يندفعون إليه هكذا؟ لماذا لا يتريثون قليلًا؟ لم أستطع النّوم البارحة، كنت أفكّر فقط في إمكانية إيقاف هذه المجازر».

علّقت على قوله: «الموت هو مهد الحياة الثانية، لا يمكن أن ينقطع عن الحياة، له جاذبيته القوية! جاذبية تصل حدّ التّقديس ولا يمكن أن تكون جاذبية فاسدة أخلاقيًا، لهذا يسيرون إليه حاملين أكفانهم! لهذا تميل أرواحهم لتجربة فريدة لا يرقى إليها إلّا مؤمن بعدالة ما بعد الموت.. إنّهم يحيون بموتهم، إنّهم يمنحوننا الحياة، يمنحوننا الأمل.. ثمّة أمل».

كتب لي بعد دقائق: «لا شكّ أنّك تغضين البصر عن بعض اللافتات التي يحملها المتظاهرون، ولا تريدين أن تصدقي أنّ هناك من يدعو فعلًا لتحويل خطّ الثورة.. بل لا تريدين تصديق أنّ هناك بعض العصابات، وبعض الإسلاميين الذين يشوّهون وجه الثورة.. يا أمّي من سمع ليس كمن رأى!».

لم أرد، لم أكن على استعداد لرفع وتيرة الحوار حتّى لا تنحرف عن النقاش الحيادي. بدأت أشعر أنّه يمكن أن يستفزني، ويجعلني أكتب بطريقة انفعالية! يبدو أنّي لم أتخلّص بعد من إحساسي بأنّه ما زال طفلًا ولن يكبر أبدًا!

*****

لم يكن اختفاؤه مفاجئًا لي، فكثيرًا ما حدّثني قلبي أنّي سأصحو في صباح ما وأفتقد وجوده على الرغم من حضوره الدائم في

روحـي.. ما التبس عليّ إحساسـي أنّ ابني فـي تلك اللحظة قد حلّ فـي روحي، فبتُّ أحـسّ بحاجة اسـتثنائية لقربه، لاحتضانـه، لـ... لا أدري إن كان الحنيـن فقـط مـا يدفعنـي لذلك، أم الخوف سـيطر علـيّ هذه المرّة خاصـة وأنّ المغامرة أكبر وأكثر خطورة. كنت أعي جيدًا معنى إدخال مساعدات إنسانية إلى حمص المحاصرة، خاصة الأدوية.. أعرف جيدًا أنّ نور ليس وحده، وأنّ إدخال شـاحنة أدوية من طرابلس إلى حمص سـيكون سـريًّا للغاية.. مع هذا لـم أسـتطع التخلص من القلق والخوف حدّ أنّي لـم أعد أسـتطيع الجلوس أمام شاشـة الكمبيوتر لأنتظر جواب فارس الـذي أخبرني بالأمر بعد أن فقد الاتصال به طالبًا مني التماسك والدعاء له. فارس آثر أن أعرف الموضـوع في هـذا التوقيت كـي لا أتفاجأ، على الرغم مـن أنّ نور نبّهه إلى عدم الاتصال بي أو إخباري بأيّ شـيء مهما حصل. كتبت أسـأله مرّة أخـرى إن كان هناك أخبار ولو عن غيره من الأشـخاص الذيـن كانـوا معه.. لكنّـه لم يـرد! وضعني أمـام خيـارات المخيلة السـيئة، وصرت بحاجة لإشـغال ذهني بأيّ شـيء يبعدني عن رسم النهايات المأسـاوية لشـحنة الأدوية. ليس تشـاؤمًا بل هي معطيات كثيـرة يفرزها واقع الحصار والوحشـية المتبعة فـي التعامل مع أهل المدينة ونشطائها.

ارتأيـت أنّـه من الأفضل أن أكتب لحنظلة كـي يبحث عنه هناك. فتحت صفحتنا المشتركة فوجدته قد ترك لي ملفًّا يقول فيه:

أسـبوعان مرّا علـى وصولي إلى حمص كانا كافيين لأشـعر أنّي ولـدت هنـا يومًا، وعشـت كلّ الأحـداث التي مـرّت علـى المدينة عبـر تاريخها الطويـل. منذ حللت فيهـا تعرّفت على أجمل شـبابها الذيـن يقـودون المظاهرات معرّضين أنفسـهم لخطـر الموت قنصًا برصاص الجيش السـوري الذي يتمركز في معظم أحيائها. إبراهيم أجمل شباب حمص، أخذني من يدي ليريني عن قرب أهم ما تركه الأجـداد في حمـص القديمة. لكـنّ الأهـم في نظري، لـم يكن تلك الأوابد بل الروح التي توارثها سكّان حمص، فجعلتهم يتميزون عن باقـي المحافظات السـورية بخفة دم نادرة تجعلهـم يؤلفون الطُّرف على أنفسهم.

ذهبـت مع إبراهيم بعد انتهاء المظاهرة لقضاء السـهرة في خيمة على أطراف الحي يجتمع فيها الشباب، يتدارسون الوضع، وينسّقون لمـا سـيفعلونه فـي الأيـام القادمـة، ثمّ يـدبّ بهـم الحمـاس لتدفئة أجسـادهم بالغنـاء! أعرف ما للموسـيقا من تأثير على الإنسـان عبر تاريخه، لكنها أوّل مرّة أعرف أنّ أهل حمص اخترعوا لها استخدامًا جديدًا فاستبدلوها بالوقود!

نمت تلك الليلة من دون أحلام، نومًا رائقًا لم يقطعه عليّ لا صوت القذائف ولا الرصاص، امتلكت ذلك التآلف الذي عرف به أهل حمص مع الوضع حدّ أنّهم لا يستطيعون النوم من دون تلك الأصوات التي تبرمجت عليها الجملة العصبية لديهم، فصارت مرادفة لجملة «كلّ شيء طبيعي، كلّه تمام».

في الصباح الباكر وجدت نفسي وحيدًا في الخيمة، الشباب غادروها إلى أشغالهم. البرد قرض أطرافي على الرغم من الألبسة الثقيلة والأغطية التي تدثرت بها. خرجت إلى الخلاء، لم يكن في ذهني فكرة محددة، لكنّي كنت مدفوعًا بفضولي لاكتشاف الحي الذي نال أكبر حصة من الدمار والحقد. تجولت طويلًا بين الأنقاض، والأبنية الخاوية، خضت بمياه المطر والمواسير المكسورة في الشوارع، فزاد البلل شعوري بالبرد. دخلت شارعًا فرعيًا، فرأيت سيارة أمام بناء من طابقين، أو لأقل لم يتبقَّ منه سوى طابقين. سمعت لغطًا وأصوات رجال، دفعني الفضول للاقتراب، سمعت حوارًا بين رجلين أحدهما قال للآخر:

ـ يعز عليّ والله يا جار أن أترك الحي والبيت الذي بنيته بيديّ هاتين وحملت حجارته على كتفي.. لكن ما يؤلمني أنّ زوجتي لم تعد تطيق البقاء هنا، تخاف على البنات، تعلم أنّهن صبايا، وتخاف

علـى خالد وحيدها آخر العنقود.. ماذا أفعل؟ رُبِّطت يداي يا جار.. أشعر بالعجز التام ماذا أفعل؟

الآخر قال بحسرة:

ـ عيـن العقل يا جار. أنا جئت لأودّعـك، قرّرت أنا وزوجتي أن نتـرك الحي أيضـا، الأغراض صـارت جاهزة في السـيارة، أفكّر أن نذهب إلى «الوعر» ما رأيك؟ هل تلحقون بنا؟

أجابه الأوّل:

ـ إن شـاء اللـه، تصلـون بالسـلامة، ديـر بالك على حالـك، الله يحميكم.

تعانقا، وافترقا بسرعة. انتهى إلى سمعي صوت زوجة «أبو خالد» وهي تحث بناتها على الإسـراع. مجرد دقائق بين عبور الأسـرة إلى السـيارة وتحليق الطائرة في السماء.. تلكأ خالد ليحدّق في السماء، بينما البنات انحشـرن في المقعد الخلفي للسـيارة وأبـو خالد وراء المقود يصرخ بأم خالد أن تأتي بابنها، وتسرع!

أيُّ شـيء أسـرع مـن المـوت؟ لا تهـرب الخطـى الملهوفـة ولا الأرواح الباحثـة عن الأمـان منه. لحظات فصلـت أم خالد عن ابنهـا.. لحظات غطّى دوي الانفجـار والغبار المتصاعد كلّ إمكانية للسـماع أو الرؤية أو اسـتيعاب ما جرى. الجار فـي الطابق العلوي

أسـرع إلى الشرفة ليسـتطلع ما حدث، فرأى السـيارة وقد أصبحت شـعلة من نار الجحيم، وأشـلاء جيرانه تناثرت في الشارع. وحدها جثة خالد أمام باب البناية تبدو سـليمة وسـط بركة من الدم! أسـرع أبو جمال هابطًا الدرج ليتفقد خالد لظنه أنّه ما زال على قيد الحياة. الطفل الصغير كان مسـجى هناك، يبتسم للملائكة وقد أصيب رأسه بشـظية قتلته علـى الفور. تطلّع إلى يده، تحسسـها.. كانت دافئة، ما تـزال تحمل رائحـة عناق قريب مع أبـي خالد! ما أسـرع ما تفاجئنا الحرب بالخواء وتعطيل كلّ ملكات الحياة لدينا!

وجـدت نفسـي قـرب مستشـفى «الزعيـم».. كانـت سـيارات الإسعاف تعوي بشراسة وهي تنقل الجرحى إلى داخل المستشفى، وفوضى عارمة في الخارج! ما أعرفه أنّ سـيارات الإسعاف لا تنقل سـوى «الشـبيحة» وجنود النظام إلى المستشـفيات.. لكنّي لمحت ناشـطين ممـن كانوا معنـا فـي الخيمة في سـهرة الأمس! مـا الذي يحـدث بالضبـط؟ اقتربـت لأسـأل أحدهم عمّـا يجـري، فلمحتُ أبا رامز مسـجًّى علـى الرصيف ورفاقه يحاولون إسـعافه.. أحدهم قال لي على اسـتعجال: «ضربوا سـيارة الإسـعاف الخاصة بالهلال الأحمـر، وقتلـوا اثنين من رفاقنـا». تـرددوا بين إدخال «أبـو رامز» إلـى المستشـفى أو حملـه بعيـدًا.. لم يتـرك لهم الرصـاص خيارًا، رأيتهـم يبتعـدون، ويختبئـون في مداخـل الأبنية، ورأيت مسـعفين

آخرين يحملون الجرحى إلى داخل المستشفى وبينهم «أبو رامز»! وخزني قلبي «هل سيخرج حيًّا؟». ما سمعته من قصص التعذيب والقتل داخل المستشفيات للجرحى من المتظاهرين جعلني أمسك قلبي بيدي.. يجب أن يخرج أبو رامز حيًّا من هناك، لكن كيف؟ تسلّلت إلى الداخل بحثًا عنه. لم يكن الأمر سهلًا.. مئات الجرحى، بعضهم مقيّد إلى الأسرّة، والبعض ينعم بالعناية الكاملة! طريقة المعاملة تحدد انتماء الجريح، لذا كان عليّ البحث عنه بين الجرحى المرميين على بلاط الممرات أو في الغرف المغلقة، وربّما في ثلاجات الموتى! اقشعرّ بدني للفكرة التي مرقت مسرعة أمام عينيّ.. بالضبط.. قد يكون هناك، ليست المرّة الأولى الّتي أرى فيها أحياء في ثلاجة الموتى! لم أنسَ بعد رحلتي إلى درعا بداية الثورة، لم أنسَ ذلك الشاب الذي كتب على جدار الثلاجة من الداخل «سلّموا لي على أمّي». تقلّص قلبي للذكرى المؤلمة، هل كُتب عليّ أن أحمل رسائل الموت السوري من الأبناء إلى أمهاتهم وآبائهم؟! انسحب الدم من جسدي، وتجمّدت أطرافي وأنا أرى ممرضة تجرّ جريحًا على الأرض، والدّماء تصبغ الأرضية البيضاء.. أنينه أصاب قلبي في مقتل. وقفت في الزاوية وأنا أرقب وجهها وهي تمر أمامي.. لم يكن وجهًا بشريًّا.. أنا على يقين أنّي رأيت الدماء تسيل من فمها وهي تلوك شيئًا! الآن فقط يمكنني أن أتخيّل ملامح هند

بنت عتبة.. بل لم يعد بي حاجة لتخيّل شكلها، فأنا أراها أمامي.. تجرّ حمزة على الأرض غير عابئة بأنينه.. لكنّي احتجت لزمن لا أدريه كي أستوعب كيف يمكن لمثل هذه الكائنة الغريبة أن تحبّ، وتنجب، وتربي أطفالًا؟! وكيف سيكون هؤلاء؟ تطلّعت حولي.. إنّهم هنا.. هؤلاء الجنود الذين تعلو أصواتهم بالشتائم والكفر وهم يرمون الجرحى، ويدوسونهم بأحذيتهم بحقد لم أكن أتصور وجوده في الكون. انتبهت إلى أنّي نسيت أبا رامز، ورحت أركض في الممرات باحثًا في وجوه الموتى قبل الجرحى.. حتّى فاجأتني عربة يجرّها مستخدم في المستشفى كوّمت فوقها جثث لعشرة شباب، أو ربّما أكثر! لاحظت حركة مريبة، فتجمّدت في إحدى الزوايا. شاب ينزف، اعتلى العربة في غفلة من المستخدم الذي دخل إحدى الغرف لأمر أجهله، وعاد مسرعًا ليجرّ العربة خارج المستشفى! توقف قلبي عن الخفقان للحظات.. تبعت العربة حتّى توقفت خارج المستشفى، وقام المستخدم بإفراغ محتوياتها في سيارة بيك آب لنقل الموتى.. إلى أين؟ لم آخذ وقتًا للتفكير، كان عليّ أن أتبع أثر السيارة التي تحركت من فورها.

لم يكن الوقت كافيًا للتفكير، ولم يكن في محيط المستشفى سيارة أخرى أسطو عليها. وجدت نفسي أتعلّق بالبيك آب وضربات قلبي تصمّ أذنيّ.. لمحته يحاول أن ينهض.. همست:

«هـات يـدك». حدّق فـيّ مسـتغربًا، لـم يكـن لديّ وقت لأشـرح له والسـيارة تتجاوز البيوت المدمرة خارجة صوب الخلاء، كان عليه أن يبذل جهدًا قاتلًا ليسـتطيع القفز من السـيارة وهي تسـير. أعرف حجم خطورة ذلك الفعل لشخص أصيب بتسع رصاصات في جنبه وسـاقه.. مـع هذا رأيت أبا رامز يقفز قبلـي، ويتدحرج على الأرض الترابيـة، وهـو يكتم صرخـة رهيبة خنقتـه، وجعلت وجهـه يحتقن وعروقـه تـكاد تنفجـر. السـيارة تبتعد لا تلـوي على شـيء.. كلانا يزحـف صوب الأبنية المنهارة.. همس بأسـى: «لـن أعيش طويلًا، لم يبقَ دمٌ في جسـدي، أرجوك أخبر أمّي أنّ...   أسـكتّه.. «**لا أريد أن أتحـوّل إلـى غـراب يتـرك أخبار المـوت على نوافـذ الأمهات.. لا أريد. ستعيش.. انتظر مكانك، لا تتحرك، سيأتون إليك، هل تعرف رقم أحد أصدقائك المسـعفين؟**». أومأ برأسـه إلـى جيبه. لـم أخفِ إعجابـي بفطنتـه، موبايلـه يعمل علـى الصامت، موجـود في جيبه! عـدد الاتصالات بالعشـرات، مسـجات تسـأل «هل أنـت حي؟».. «أين أنت؟». تسـاءلت: «أيّ رقم أطلب؟». أشـار بيده برقم خمسة. كان أبـو رامز فـي تلك اللحظات قـد بدأ يفقد القـدرة على الكلام، وهو يقاوم السـقوط في الغيبوبة، ودمه يخرّ من جروحه وأنا أتخبط كطير ذبيح! لم يتأخر الشـخص الذي اتصلت به، حضر بأسـرع مما تصورت ومعه ثلاثة آخرون. الطبيب «أبو حمزة» فتح حقيبته بسرعة وصمـت، وبدأ عمله، يسـاعده شـاب في العشـرينيات يبـدو ماهرًا

ومنسـجمًا بالعمـل، وكأنّه اعتـاد أن يلبي ما يريـده الطبيب من دون كلمات! بعـد انتهاء الطبيب من انتـزاع الرصاصات، ولف الجروح وتعقيمها، أصبح أبو رامز وكأنّه كُفّن للتو! التفت الطبيب إليّ، وكأنّه يكتشـف وجودي في تلـك اللحظة. أومأ إليّ قائـلًا: «**يحتاج عملية جراحيـة فورية، لا يمكن أن يخرج من هنـا.. المكان خطر والطريق مليئـة بالحواجـز.. ماذا أفعـل؟ ليـس بإمكاني المخاطـرة بالذهاب والعـودة مـرّة أخـرى، سـيرتاب الجنود وربّمـا منعوني مـن العودة. ما رأيك؟**». يسـألني؟ ما أدراني أنا؟ الشـباب الذيـن رافقوه بقوا في الخارج لمراقبة الطريق. وحدي أتحمّل مسؤولية ما سيجري! نظرت حولي.. وأنا أكرر كلمات الطبيب: «من أين آتي له بصفيحة معدنية؟ ركبته تحتاج لعمل جراحي فوري! عظم ركبته تهتك برصاصة.. من أيـن آتي بسـيخ أثبّت به العظام؟ من أيـن؟! لمحت عن غير قصد فجوة السـقف حيث نزلـت قذيفة في وقت ما، وقتلـت عائلة كانت هنا تسـتدفئ قرب مدفأة و... رأيته.. أشرت للطبيب، هزّ رأسه وهو يبتسـم.. الشـاب الذي يسـاعده التقط الإشـارة، وركض لينزع أحد الأسـياخ المعدنيـة من السـقف المتهـدم.. طرقه بالحجـارة، وبذل جهدًا في تسـويته وقصـه، وإزالة الصدأ عنه وتنظيفـه قدر الإمكان، غمسـه بالمحلول المعقم، وناوله للطبيب والعرق يقطر من جبهته، وأنا أحدّق فيهم بذهول!

آثـرت أن أخرج على مراقبة العمـل الجراحي. أعصابي وصلت أقصـى حـدّ مـن التوتـر.. أردت إشـغال نفسـي عمّا يجـري بتبادل الحديـث مع الشـباب في الخارج علّـي أبعد عن ذهنـي فكرة تنخر دماغي «هل سينجو؟ هل سأحمل الخبر لأمّه؟».

*****

كتبت لحنظلة أن ينتظرني في حمص...

حيـن وصلت لـم أجد حنظلـة، بل شـابًّا عرّفني على نفسـه بأنّه مصـور يغطـي الاشـتباكات والقصـف علـى المدينة، وأنّـه مكلّف بمرافقتي حتّى منزل صالح!

اجتزنا الحقل المحروق من الطرف الجنوبي، وصرنا مكشوفين للقناصـة فـي الأبنية العالية التي لـم تنتهِ أعمال التشـطيب فيها، فقد احتلتها ثلة من الجنـود، وطردوا منها العمال والمقاولين. وقعنا في ورطـة السـير في منطقة مفخخـة بالرعب، ومزروعـة ببقايا إطارات محروقـة، وسـيارات عُجن حديدها فلـم يعد يبين منها سـوى كتلة سوداء لا ملامح لها.

فـي البعيد وعلى الطـرف الموازي للطريق الدولـي كانت أكوام من الحديد تلوح للناظر، بقايا دراجات نارية سـوّتها الدبابات قطعًا من حديد لا يصلح لشيء.. على الطرف القبلي لبناية ضخمة كانت ترقد دبابة محترقة، ما زال الدخان يتصاعد منها. همست بحذر: «أين

نحن؟». قال: «لا تخافي، ليس أمامنا سوى هذا المنفذ، نبّهتك منذ البداية أنّه من الصعب دخولك المدينة من الطريق الرئيس، الدبابات تحاصرها، والحواجز منتشرة في كلِّ مكان.. ألم توافقي؟». كان في لهجته نبرة لوم أحرجتني. لم أستطع السيطرة على ضربات قلبي، مع هذا لم أفكّر بالتّراجع.. كان ذلك آخر ما يمكنني عمله. أخبرني مسبقًا أنّه يجب علينا أن نقطع مسافة طويلة سيرًا على الأقدام، لندخل المدينة بطريقة آمنة، ما لم أتوقعه أن يكون هذا الذي أراه هو الأمان المقصود! أيّ أمان والقناصة منتشرون على أسطح المنازل؟

لم تكد ضربات قلبي تنتظم ونحن ندخل حارة متاخمة للخلاء الرهيب حتّى بدأ القصف يهزّ الأرض تحت قدميّ كأنّه زلزال! لم أستوعب مباشرة ماذا حصل، كلُّ ما أذكره أنّ الشاب شدّني من يدي، واختبأنا في مدخل بيت من طابقين. سألته بلهفة: «وصلنا؟». قال بقلق: «ليس بعد.. البيت الذي سنزوره في آخر الحارة. صالح آخر شخص كان مع نور، نقلا شحنة الأدوية معًا، من حظك أنّه هنا اليوم، لأنّه سيغادر بعد ساعات إلى مدينة الرستن.. لا تقلقي، نحن بأمان». لم أستغرب كلماته، البشر في اللحظات الحرجة يستمدون القوة من ضعفهم.. في اللحظة التي نواجه فيها حقدًا أسود، استطاع أن يدمر، ويقتل بلا رحمة، أيقنت أنّ مجموع ضعف شخصين يشكّل قوة رهيبة، تدفع غالبًا إلى تحدي العدم، الموت، الرصاص، وكلّ ما من شأنه أن ينهي حياة الإنسان، ويجعله أثرًا بعد عين. هكذا

خرجت من مدخل البناية ويدي في يد الشـاب، الذي خاطر بحياته حين وافق على مرافقتي.. كيف لنا ونحن أعزلان أن نواجه كلّ هذا القصـف؟ قلت بثقة: «لـن يصيبنا إلا ما كتب الله لنـا». تمتم بأدعية لم أفهمها بصوت خافت، وشـدّ على يدي. اسـتطعنا أخيرًا أن نصل نهاية الزقاق.

فتح لنا الباب شاب في مقتبل العمر، ودعانا إلى الدخول. دخلنا إلـى فسـحة دار مكتظـة بأحـواض الزرع، تتوسـطها شـجرة نارنج، وياسـمينة تعـرّش على الحائـط الداخلي، وتحجب الشـبابيك التي تتراءى خلفها خجولة، وشـاحبة. جلسنا حول بحرة صغيرة، ودخل الشاب لإحضار القهوة.. رجوته ألا يفعل، كنت أودّ أن أرى صالح، وأسـمع أخبار ابني أولًا، لكنّ ابتسامته وإصراره على القيام بواجب الضيافـة، جعلانـي أصمـت علـى مضض! فجـأة اهتـزت الأرض بعنف، ومالت شـجرة النارنج، وسـقطت فوق البحـرة محدثة دويًّا هائـلًا، ارتطمـت بالميـاه، ونثرتـه رذاذًا أبيض في الباحـة الصغيرة. غسـل وجهي، ولـم أفهم وأنـا أغمض عينيّ، والضجيـج يصمّ أذنيّ كيف أصبحـتُ داخل الغرفة، والهلع يسـرّع نبض القلب، ويرجف سـاقيّ.. كان مشهد شـظايا الشـجرة المتناثرة في الباحة مع القذيفة كافيًـا لأفهـم.. لكن قبـل أن أفكّر فـي الخطوة القادمـة هزت أرجاء الغرفة قذيفة أخرى...

أن يصبح الموت ترفا تتمناه ولا تجده! هكذا كانت حالي عندما صحوت لأجد جسدي محشورًا بين درفة الباب والحائط المنهار، وفوقي ركام من تراب، ودخان حريق تكاد رائحته تطبق على صدري. كنت أسمع أصواتهم مترافقة مع أصوات القصف، تصلني عبر الفتحات الضيقة في البناء المنهار. عندها استجمعت قوتي الذهنية، وامتلكت لحظة صفاء روحي، ذلك الصفاء العابر الذي يأتي مرّة في الحياة، ليثبت لك أنّ ما تعانيه ليس بذلك السوء، وأنّ ما ينتظرك هو أشدّ بؤسًا! هل أدركت أنّ النهاية حلّت؟ كثيرًا ما قرأت عن تلك اللحظات الحاسمة قبل أن يلفظ المرء أنفاسه الأخيرة، وحاولت مخيلتي مرّات عديدة استحضارها كواقع. حبستُ أنفاسي للحظة، وزفرت طويلًا.. كان عليّ أن أطرد ما علق في صدري من غبار، وأسحب القليل من الأوكسجين الذي لم يعد موجودًا في الجوّ الخانق المحيط بي. هل أطيل أمد الحياة بذلك؟ وهل أنتظر أن يفطن أحد لغيابي تحت الأنقاض فيسعى لإخراجي؟ كيف والقصف ما زال مستمرًّا؟ لعلّ أحدهم يعثر عليّ صدفة! لم أرهن حياتي للصدف يومًا، لكنّي الآن أجدني متقبّلة لكلّ تلك الأفكار الفانتازية التي أعلّق عليها الآمال في إنقاذي. أهو حبّ الحياة، أم رغبتي في رؤية وجه ابني للمرّة الأخيرة؟!

سمعت أصواتهم تقترب، ميّزت صوت مرافقي، والشاب صاحب البيت. كانا يرفعان الركام بهمة.. وفجأة انفتحت طاقة من

نور، لمحتُ من خلالها زرقة السماء الشاحبة خلف غيوم رمادية تنبئ بمطر وشيك. سحبني الشاب وهو يبسمل، ويقرأ سورًا قصيرة من القرآن.. جسّ مرافقي نبضي، سمعته يقول: «أعتقد أنّ الإصابة ليست خطيرة. سأسبقك.. لا يمكن أن نظهر ثلاثتنا معًا في الشارع، سنكون هدفًا لقناصتهم». فهمت أنّه سيذهب إلى المستشفى، ويترك مهمة إيصالي إلى صديق ابني. تمتمت بصعوبة: «يمكنني السير ببطء». ابتسم مشجعًا: «المسافة ليست بعيدة يا خالتي».

سرنا حتى آخر الزقاق، وهو يمسك بيدي، وذراعه الثانية تحيط كتفي.. كنت أقاوم بكلّ ما أملكه من قوة كي لا أنهار، لكنّ ساقيّ لم تستطيعا حمل جسدي مسافة أطول. لم نكد نصل المنعطف حتّى همس: «ارتاحي قليلًا يا خالة». أسندني إلى الجدار، وهو يمسك بيدي، جلست أرضًا، وحدّقت في عينيه.. لا أدري إن كانتا حقًّا تشبهان عيني ابني، لكنّي لمحت النظرة ذاتها في عمقهما، نظرة مليئة بالحنان، مليئة بالشجن، تلمع فيها دمعة، تجاهد كي لا تسقط على خده. همست من دون وعي: «حبيبي، لقد عدت!». سقطت دمعته على يدي وهو ينحني لتقبيلها.. فاجأته رصاصة في الرأس قبل أن يفعل.. رأيت دماغه يتشظى.. سقط أمامي، وترك في حضني بعض أشلائه! لم أكن أستطيع النهوض، ولا الزحف. كلّ ما أذكره قبل أن أغيب عن الوعي، أنّ أصابعي كانت متشبثة بأصابعه، وأنّ سيخًا من نار كاوية اخترق كتفي قريبًا من العنق!

***

أبناء الشمس

حين فتحت عينيّ أدركت المكان بحواسي كلّها.. لم أستطع تحريك جسدي في البداية، كنت أتساءل عمّا بي.. شرحت لي الطبيبة أنّي كنتُ في غيبوبة لمدّة طويلة ريثما استطاع أصدقائي نقلي خارج حمص، وإيصالي إلى المستشفى في حلب! أخبرتني هامسة، وكأنّها تفضي بسر لا تريد أن يعرفه أحدٌ سواي: «أنقذك طبيب صديق من موت محتم، وصلتِ إلى هنا في حالة يرثى لها، جرحك ملتهب بسبب انعدام العناية، والمواد المستخدمة في استخراج الرصاصة!».

لم يكن في المستشفى الميداني الذي نقلت إليه ما يساعده على إجراء العمل الجراحي، لا طبيب تخدير، ولا مادة «بربوفول» ولا جهاز تعقيم. إرادة خارقة جعلتني أبقى على قيد الحياة، هذا ما قالته صديقتي عندما رأتني أفتح عينيّ وأطلب جرعة ماء!

الصباح الخريفي الرطب المكلّل بالنّدى، أعاد إليّ بغلالته الرقيقة الشفيفة منظر سهل الروج باتّساعه، وغمامة من ضباب تجلّله أيام كنّا أطفالًا في المدرسة الابتدائية! أغمضتُ عينيّ على صورتنا ونحن

نعبر السهل يدًا بيد، تُعثر خطواتنا الكتل الطينية التي خلّفتها آلات الفلاحة.. أخي لا يعبأ بما يحدث، وأنا أحاذر أن يتلوث حذائي.. ينظر في عينيّ هازئًا: «لم لا تنتعلين جزمة بلاستيك؟ مم تشكين؟ هل من الضروري أن تذهبي إلى المدرسة بحذاء جديد؟». لماذا تصرّ ذاكرتي على استحضار مشاكساته كلّها؟ أهو هربٌ من فكرة الفقد التي تلاحقني، فأستعيض عنها بتلك الذكريات الحيّة لأيام الطفولة؟

تصاعد الأحداث في الشارع سحبني برفق من تلك الحالة، وأغرقني في دوامة جديدة. هذه المرّة لم يكن ابني نور السبب المباشر فيها، فقد عاد نور من حمص بعد أيام، واتصل بي، فوجد هاتفي خارج التغطية، فظنّ أنّي في أريحا! كتب لي على صفحتي.. «**متى ستكفين أيّتها الحبيبة عن اعتباري طفلًا لا يعرف ماذا يفعل؟**». دمعت عيناي عندما قرأتُ ما كتبه في غيابي القسري عن الإنترنت. على يسار الصفحة وجدت إشعارًا «حنظلة نكزك». فتحت صفحتنا السريّة، فوجدته قد ترك ملاحظة قال فيها:

البارحة كان يومًا استثنائيًّا في تاريخ الثورة السورية.. قرّرت فيه الجموع الغاضبة أن تستنفر همم الجيش للوقوف إلى جانب الشعب الأعزل، بدل إطلاق الرصاص عليه انتصارًا لسلطة غاشمة. لكنّه انتهى نهاية مأساوية.. لقد انتهى باستشهاد الطفل إبراهيم الشيبان...

وصلت شارع أبي حبل، وراقبت من هناك المكان، كانت المحلات مغلقة، ولا أثر لحركة غير عادية، حتّى أنّي شعرت بالخيبة، وخشيت أن يكون الناس خائفين من المجيء! كان الوقت مبكرًا على موعد الصلاة.. تمشيت قليلًا في الشوارع الجانبية، ثمّ قرّرت أن أدخل إلى مسجد الدّقاق بانتظار وقت الصلاة. لفت انتباهي أوراق نعي ملصقة على الجدران كيفما سرت، فاستبشرت خيرًا بأنّ الناس لن تأتي دفعة واحدة لضرورات أمنية. في المسجد كان العدد قليلًا، جلست قريبًا من أحد الأعمدة لدقائق قبل أن أسمع صوت التكبير مع دخول النعش. حمله الشباب، وداروا في وسط الجامع وهم يكبّرون.. لفت انتباهي وجود عشرات من الفتيات في طرف باحة المسجد.. كنّ يزغردن، لم يكن مفاجئًا لي أنّ بينهن سيدات غير محجبات، وضعن الحجاب بطريقة توحي أنّهن لا يعرفن استخدامه، وكان بينهنّ فتيات مسيحيات، عرفتهن من صليب كان يلمع على صدورهن.. الموقف المهيب لم يمنعني من التبسم لذاك المشهد الذي يثبت اندماج الشعب السوري بجميع أطيافه والتحامه في الأزمات. أحد الشباب نصح الصبايا بتغطية وجوههن كي لا يُعرفن أثناء التصوير! لم أشعر بالفخر يومًا كما شعرت تلك اللحظة، شعب يملك هذه الروح سينتصر حتمًا على جلاديه.

أثناء التكبير لاحظت حركة الشباب الذين راحوا يغطّون وجوههم بأقنعة وكمامات.. نفرت دموعي لمشهد الكوفية الفلسطينية التي خبّأت وجوه الكثيرين من الشباب حاملي اللافتات والكاميرات. خرجوا إلى صحن المسجد، ووضعوا النعش، ونادوا على الشباب لتوديع الشهيد.

وجدت نفسي وجهًا لوجه أمام إبراهيم.. حدّقت طويلًا في أثر الياسمين الدمشقي على بشرته البيضاء.. السكون في الملامح، طاف بي عاليًا حتّى رأيته يركض بين نجوم كثيرة سبقنه إلى السماء. نهض إبراهيم ببطء، لامس كتفه كتفي، وعرج عاليًا.. لم ينتبه أحد ممن حوله إلى ضحكته التي ملأت الفضاء، وامتزجت بالهتافات العالية، كلّ شيء في الفضاء الرحب يسبّح باسمه.. حتّى لم يعد له وجود! فقط جسد بارد يُحمل على الأكتاف بعد انتهاء صلاة الجنازة!

فتيات في سدّة الجامع يزغردن، أصواتٌ هادرة في الخارج تدلّ على آلاف جاءت لتوديع الشهيد.. ورجال يبكون، وآخرون يضبطون مشاعرهم ربّما حياءً من نظرية أنّ الرجل لا يبكي!

كان حي الميدان يمور بالأجساد المحلقة بالحريّة، والأصوات الهادرة، الكلّ يحاول أن يصرخ بأقصى ما يستطيع.. كنت على يقين أنّ هؤلاء كلّما صرخوا أعلى وأقوى، شعروا أنّهم يتطهّرون

من آثام خمسين سنة مرّت عليهم في الخضوع لسلطة لم تعرف في تاريخها الأسود سوى البطش، وسياسة القمع.. وجدتني أصرخ كما يفعلون، ماذا ينفع أن تكتب بصمت وأنت تدير ظهرك للواقع؟ لم تعد بي حاجة لإخفاء وجهي، لا بالنظر صوب الجدار، ولا بكوفية، ولا داخل حبر.. صرت واحدًا من الجموع الحرّة التي تصل هتافاتها مسامع الله في عليائه، فيفرغ عليها صبرًا وثباتًا، ويمنحها الإحساس بالطهر والتسامح. تلك الجموع التي صفت أرواحها، أحست أنّ للحرية جناحين قويين لا يمكن لسلطة ولا لإرهاب أن يقصهما. نظرتُ إلى الشارع، لم أكن أعرف أين يبدأ وأين ينتهي، لم أرَ سوى بشرٍ من جميع الأطياف، نساء وفتيات وأطفال ورجال وشباب.. كأنّ القيامة على وشك أن تقوم! وكأنّ شارع «أبو حبل» يمتدّ من أقصى السماء، إلى أقصى الأرض.. وفي وسطه نعش إبراهيم، يحمله الشباب ويرقصون به! أردت التقدّم لأحمل معهم، اصطدمت كتفي بسيدة تزاحم هي الأخرى لتحمل طرف النعش.. كانت تصرخ «ارفع راسك أبو الشهيد» التفتُّ لأرى نفسي وجهًا لوجه مع صديقتك صباح! كانت مفاجأة لي في الحقيقة.. ابتسمتْ لي، ودفعتني برفق، لتحتل مكانًا قريبًا من النعش.. بالتأكيد لم تعرفني، تابعتها بنظري، فرأيت صبية تقترب منها، وتعطيها منديلًا أخضر لتحجب وجهها به عن عيون الكاميرات.. ثمّ تاهت عني وسط الزحام. فجأة شعرت أنّ السماء

تمطر، أهي رحمة من الله؟ أم هي دموع الآلهة تبكي إبراهيم؟ حين رفعت نظري، رأيت طفلًا على أحد الأسطح، يحمل خرطوم ماء، ويرش به المتظاهرين! ابتسمت ثانية.. كم تختلط المشاعر في مثل هذه اللحظات! فأنا لا أكاد أعرف إن كنت سأبكي أم سأضحك؟ إن كنت حزينًا أم فرحًا؟ مشاعر متناقضة، وأحاسيس مختلطة لم أستطع القبض عليها كاملة لأكتبها لك.

أخيرًا وصلنا نهاية الشارع، وانعطفنا يمينًا إلى «ساحة الأشمر».. حيث جلس الشباب، وهتفوا ببطء وبصوت خافت «الشعب يريد إسقاط النظام» مرتين، ثمّ نهضوا يصرخون بها، متحرّرين من كابوس الخوف، غير آبهين بما قد يجري بعد لحظات. بعد عشر دقائق، ساروا شمالًا صوب المقبرة، وفي منتصف الطريق، وجدنا أشخاصًا يحملون صور الرئيس، ويشيرون إلى المشيعين بعبارات بذيئة، وحركات مؤذية.. كاد الشباب أن يفقدوا أعصابهم، وتبادلوا معهم بعض الشتائم، وأسرع البعض للتهدئة، ولمتابعة السير.. هؤلاء كانوا من سكّان حارة «العواينية» وهي امتداد لحارة الجورة. تلك المنطقة معروفة بأنّها منطقة مخالفات يسكنها عسكريون من أتباع السلطة، وشبيحة مسلّحون، يعملون يوم الجمعة في قمع المظاهرات! ومن نافلة القول أن أخبرك أنّهم ليسوا من سكّان دمشق الأصليين. بل لمامة تجمّعت هنا، مهنتهم القمع والتجسس على البشر، رجالًا ونساء!

عند باب المقبرة لمحته، كان يرفع علم الاستقلال، ويهتف مع أصدقائه للحريّة.. لمدة ربع ساعة حاولت التقدّم إليه ولكنّ الزحام منعني، هو رآني، لوّح لي بيده، وصرخ من بعيد، لم أسمع كلماته، لكنّي على يقين أنّه كان يرسل إليكِ تحية.. اطمئني نور بخير.

ودّعت إبراهيم.. بكيت على قبره، لم أكن أبكيه وحده، بل حمزة الخطيب، وهاجر، ومحمّد الدرة، وكلّ طفل طالته يد الغدر الغاشمة.. ثمّ عدت أدراجي مع الشباب الذين صرخوا «إلى الساحة»، كانوا يودون الاعتصام هناك.. تردّد البعض، وتابع البعض الآخر طريقه إلى الساحة.

في طريق العودة حصل ما لم يكن في الحسبان.. كان لا بدّ لنا أن نمرّ في حارة العوابنية، ولم يخطر ببالنا أنّهم سيتصدون لنا بالسلاح «البومباكشن» والمسدسات والعصي، وكان بينهم نساء تسلّحن أيضًا، وهجمن علينا. لم يخف المتظاهرون، وساروا برؤوس مرفوعة، لا أدري إن كان الحقد والشر الكامن في نفوس هؤلاء، جعلهم يطلقون الرصاص تجاهنا، أم أنّ تقدّم المتظاهرين وإصرارهم، استفزهم، وأربكهم.. لكنّ صياح أحد الشباب «جريح.. جريح» كان كافيًا ليخرس تساؤلي الأحمق.. فهم ليسوا بحاجة لأن يستفزهم أحد، وقد رضعوا كلّ هذا الحقد، حتّى أصبح دينهم وعقيدتهم. تفرّق الشباب، واحتموا وراء السيارات، بينما لم يتوقف

المهاجمـون عن إطلاق الرصاص! صرخ صوت مفجوع «شـهيد.. شهيد».. وتقدّم الشباب يحملون الشهيد، ثمّ الثاني، فالثالث.. حينها دارت الدنيـا أمام عينيّ، هاهي فلسـطين ترسـل أبناءهـا لنصرة أهل الشـام.. هاهو ابن المخيم يمتزج دمه بدم أخيه السـوري، في تشييع إبراهيم.. هاهي السـاحة تنقل المشهد الفلسطيني.. رصاص مقابل حجارة يرشـقها الشباب المؤمن بحريته صوب العصابة المسلحة.. والفتيات يتقدّمن على الرغم من تحذير الشباب وصراخهم.

نبحت من البعيد أبواق سـيارات الأمن.. فتفرّق الشباب عائدين إلى بيوتهم!

*****

عـدت إلـى أريحا بدايـة كانون. الأزقـة الباردة دفعـت خطواتي إلـى الإسـراع متجـاوزة كلّ آلام العظـام والظهـر، متجاهلـة الوخز السـام لـذرات الجليد الـذي أجبر عينـيّ على التقلص اتقـاء الألـم، لكنّ الدّمع شـكّل غلالة أمام عينيّ سـاعدتني على احتمال لسـعات البـرد وإن شوشـت الرؤيـة! لـم يكن مهمًّـا أن أرى الـدرب جيدًا.. قدماي تحفظان شـكل البلاط النافر الأملس، وتعرفان في أيّ زاوية انخفض، وعلى أيّ بعد نتأت إحدى البلاطات، شكل الحفر العتيقة، الانخفـاض والارتفـاع فـي الطريق! كلّ ذلـك لا أحتـاج رؤيته. أمّا

البشـر.. فيبدو أنّ الأزقة خلت منهم، كلّهم يلتمسون دفء الجدران والأغطية وبضعة أغصان مشتعلة داخل بيوتهم.

صـرّ البـاب الحديدي الصدئ بأنيـن مكتوم منعه البلل الشتائي من الوصول إلى أسماع الجيران عبر الزقاق.. دخلتُ بحذر، أرضية فسحة الدار الزلقة وسط العتمـة أعادت إليّ الخـوف الطفولي من الانزلاق واستقبال الأرض المتجمـدة بذراعيـن ضعيفتين وعظام هشـة. ارتطمتْ قدمي بالسياج الحجري الواطئ الذي يسـوّر دالية العنب وأنا أحاول فتح باب غرفة الجلوس.. عيون الندى المفتوحة وسط الظلام تساقطت باستياء من الأغصان العارية، ونقرت بشرة وجهـي بلطف.. لم تكن كريستالية كما اعتدت عليهـا في مثل هذا الوقـت مـن كانون الأوّل، بل أحسسـت بدفء ترافق مع ملامستها لوجهـي! الظلام داخـل الغرفة جعل قلبي يرتجـف.. صقيع وعتمة ووحدة.. أين أطياف من رحلوا؟ لماذا لا يدفئون الغرفة بضحكاتهم وأحاديثهـم الحميمـة وحكاياتهم؟ تحسسـت حقيبتـي، وأخرجت قدّاحة، أشعلتها، وبحثت في أرجاء الغرفة عن شمعة تذهب وحشة العتمة.. لم أجد!

خرجت ثانية إلى أرض الدار، عالجت باب القبو، استعصى على الفتح، خشبه استجاب لكسـل الشتاء، وتمدّد، والتصق بالأرض رافضًا أن يفسـح لي مكانًا لدخول القبو. دفعته بقوة، وركلته بقدمي

- وأنا أشعر بالغيظ- حتّى انفتح قليلًا. كنت أحفظ المكان الذي وضعت فيه جدتي أشياءها الثمينة. لم يكن صعبًا أن أجد القنديل، ضممته وكأنّه مصباح علاء الدين الذي سيلبي رغباتي كلّها.. رغبة حارقة بمحاربة العتمة.. لكن.. القنديل ليس فيه كاز! بحثت عن قنينة تخيلت أنّها يجب أن تكون موجودة في القبو من دون جدوى.. خرجتُ غاضبة، بحثت في غرفة التنور علّي أجد بعض الفحم يصلح للتدفئة، ويطرد بعض العتمة من جوّ الغرفة.. يا إلهي لا يوجد فحم، وأنا لم أجرب إشعال الحطب حتّى أنّي أخشى إشعاله لأنّ نَفَسي يضيق، وأختنق من رائحته، ولا شك سيسحب الأوكسجين من الغرفة! لا أعرف من أين جاءتني تلك الأفكار التي تلاشت تمامًا وأنا أنصت لطرق خفيف على الباب.. من يعرف أنّي هنا؟ من سيأتي في هذا التوقيت ليزورني.. همستُ: «من؟». جاءني صوت خافت لفتًى صغير قال: «أنا حمزة». مَن حمزة؟ فتحت الباب، فاجأني الضوء المسلّط على وجهي من مصباح يدوي، جعلني أضع يدي أمام عينيّ. انتبه الفتى، وأبعد الضوء عني، وقال بلطف:

ـ شعرت بحركة مريبة في البيت ونحن نعرف أنه لا يوجد أحد من جيراننا فيه، فجئت أرى ماذا يحدث، أمّي خشيت أن يكون أحد اللصوص.

ضحكت.. خشيت أن يكون لصًّا، وأرسلت ابنها الصغير! استاء الفتى، ونظر إليّ بعتب أخجلني.. وقال:

ـ إذا احتجتِ أيّ شيء فقط نادي «يا حمزة» أجئ إليكِ مباشرة.

قلت: «أحتاج قليلًا من الكاز للقنديل وبعض الفحم».

ركض من دون كلام، وعاد بعد دقائق وقد أحضر لي قنينة غريبة اللون والرائحة، وقال: «لا يوجد لدينا فحم، هل أشعل لك بعض الأغصان؟ تدبري أمر القنديل بزيت النفط، لا يوجد كاز في السوق.. نحن نستخدم زيت النفط، وهو جيد ورائحته أخف». غادر الفتى قبل أن أتمكّن من شكره. وقفت مذهولة بباب الدار لدقائق وأنا أراقبه وأراقب العتمة، وأراقب نفسي.. كيف كبر الأطفال بهذه السرعة؟!

حمزة أصبح محور وجودي لعشرين يومًا قضيتها من دون كهرباء ولا اتصالات ولا مازوت للتدفئة، واستعضت عن كلّ هذا بنسج كنزة صوفية له، وشال وقبعة وكفوف صوفية وربطة يد، كلّها باللون الأبيض والأسود والأخضر ونجوم حمراء.. كان فرحه لا يوصف وهو عائد من المظاهرة ليحكي لي كيف وقف على المنصة، وصرخ بأغاني القاشوش والناس تردّد وراءه. لم يكن فخورًا بالأغاني والقيادة قدر فخره بما نسجته له! فقد كان مميزًا عن كلّ الموجودين بملابسه. حمزة تعال.. يأتي حمزة بسرعة، يذهب

إلى السوق على دراجته الهوائية، يحضر لي الخضار، ويذهب إلى الفرن وإلى البقالية، و... ويعود إليّ كلّ مساء بأخبار البلد والبلدان المجاورة كما سمعها من الناس في المظاهرات.

في يوم الأربعاء الحادي والعشرين من كانون جاءت الكهرباء.. وغرقتُ ثانية في التفاصيل الإخبارية لقناة المشرق.. مجزرة كفر عويد كانت المحور لأخبار الساعة في كلّ المحطات!

ثانيةً صار بإمكاني أن أتصل بابني، وأطمئن عليه...

جاءني صوته متعبًا وكأنّه يعاني من إنفلونزا حادّة.. «ماما اعتقلوا نورس صديقي في المطار وهو في طريقه إلى دبي. منذ أسبوع ونحن نتقصى أخباره لنعرف في أيّ فرع هو من دون جدوى!».

***

خارج الزمن!

لم أكد أنهي المكالمة حتّى جاءني إشعار بوجود «بوست» في مجموعتنا السرية.. خفق قلبي بسرعة، وانتابني شعور بأنّ شيئًا مزعجًا قد حدث.. تردّدت لدقائق في قراءة ما كتبه حنظلة.. شيء ما جعل قلبي ينقبض، ولم يخطئ حدسي.. كتب حنظلة:

لم أكد أدخل حي القابون حتّى مرّت بي جنازة شهيد، تحوّلت إلى مظاهرة تنادي بإسقاط النظام. وقفت أمام المستودع الذي أرسلني إليه نور لأحضر بعض المواد الطبية، وانشغلت بمراقبة المتظاهرين...

لم يمضِ أكثر من عشر دقائق حتّى أحاط بنا رجال الأمن والشبيحة، كأنّهم نبعوا من أسفلت الشارع.. أنا على يقين أنّهم على علم مسبق بالأمر، وأنّهم كانوا يكمنون في مكان قريب. الرصاص انهمر من كلّ الجهات.. عشرات الشهداء والجرحى، والفوضى عمّت المكان! كدت أطلق ساقيّ للريح في اللحظة التي رأيت فيها أحد رجال الأمن يجرّ جريحًا على الرصيف، اندفعت نحوه بمحاولة فاشلة لعرقلة حشره في السيارة مع باقي المعتقلين.. تدحرجتُ

أرضًـا بين أرجل رجال الأمن، الذين تكوموا فوق الجريح يضربونه بالهراوات!

خـلال لحظـات كنت أتكـور فوق جسـده النـازف، والهراوات تدق عظامي. داخل العتمة الحارقة للسـيارة المغلقة، حاولتُ مسح الدّمـاء عن جبينه وعينيـه، لم أمتلك اليقيـن إن كان الوجه لي أم له! فقد أحسسـت بتلك الرائحة الواخزة للدمـاء تلذع أنفي وعينيّ على الرغم من سماعي لأنينه يهز روحي.

فـي الغرفـة الدافئة التـي يفوح منها عطـر ثقيل يكتـم الأنفاس.. كان المحقق يقلّب بين يديه بعض الهواتف النقّالة والأوراق.. رمى الأوراق أرضًا، وحدّق في وجهي بقرف وهو يقول:

ـ اسمك؟

ـ حنظلة.

ـ فقط؟ كنيتك، اسمك الثلاثي يا حيوان.

ـ حنظلة ابن ناجي العلي!

ـ من ناجي العلي؟ أنت من الساحل؟

ـ أنا ابن كلّ المدن العربية، هكذا شاء أبي.

ـ اسم أمّك؟

ـ فلسطين.

ضحك المحقق باستهزاء:

ـ كان جدك قومجيًّا؟ ابن الحرام مسمي أمّك فلسطين؟ شو كان شـربان لمـا فعلها بجدتك؟ يلعـن أمّك على هالخلفة.. وشـو كنت عم تعمل بالقابون يا ابن الزنا؟ روح على فلسـطين تظاهر ضدّ اللي سرقوا بلادكم.

لم أسـتطع الردّ، خرسـت تمامًا، أدركت في لحظة أنّ أيّ جواب لـن يكون بطولة مني بـل حماقة قد تودي بحياتـي! صفعني الجلاد بعنف، وأمسـكني من ياقة القميص وهـو يجرني بأمر المحقق على أرض الغرفة، ماسـحًا البلاط القذر بجسـدي، ثمّ مسـح حذاءه بي، وركلني لأصطدم بالباب، وأسقط أرضًا.

إلى الزنزانة رقم واحد دفعني السـجّان بعنف. لم أسـتطع الرؤية في البداية إلا أنّي عرفت أنّ شـخصًا يشـغل الزنزانـة، فقد ارتطمت يدي بجسـده. بقي ساكنًا، لم يتحرّك.. شـعرت بأنفاسه المحشرجة يقطعهـا سـعال حاد. همسـت: «من أنـت؟». لم يجـب.. فقط رفع رأسـه، ورأيـت عينيه وسـط العتمة تلمعـان بالدمع! بعد سـاعات، همس: «هل أنت حقيقة؟». تنفسـتُ الصعداء، إذن يستطيع الكلام! فرحـت لأنّه خرج عن صمتـه، وقال لـي: «لا تؤاخذني.. لا أعرف منذ متى لم أرَ بشرًا سوى السجّانين والجلادين والمحققين».

هـل عرفتِه؟ إنّه نورس.. أنا على يقيـن أنّ روحك الآن تهتز كما حدث لي.. نورس حي لا كما ظننا أنا وأنتِ!

حدثني عن صديق له لم أره! رافقه طيلة ثلاثين يومًا كان خلالها أنيـس الليالي المليئـة بالوحدة والصديد وجرعـات الألـم! لصديقه صـوت يملأ بـه الوقت والفضاء مـن حوله، فيحشـو الثواني البطيئة الإيقـاع ببهجـة وهمية، ويملأ سـمع نـورس بما يحجـب عنه تلك الأفكار التي يحاول أن يرتّبها في غفلة من العدم القادم. كثيرًا ما كان نـورس يضيق ذرعًا بأغانيـه وصوته وأسـئلته، ويبحث عن الصمت ليفكّـر بهـدوء بالمصير الـذي ينتظره. لكـن حين يصمت، ويسـود الهدوء، تقتله الوحشـة وضجيج الأفكار التي تضرب جدران دماغه بقسوة، فترتفع وتيرتها حتّى يكاد يصرخ: «غنِّ لي»، فيخرج الصوت مخترقًـا الجدار الرمـادي بكلّ رقة قبل أن تصـل صرخة نورس إلى شـفتيه! أهـو المصير المشـترك يخلـق هـذا التخاطـر العجيب بين روحيهما؟ أم مجـرد مصادفة لا تتجاوز الطبيعي في كونهما يعانيان الألـم الذي يمنعهما من النوم، ويجعلهما يبحثان عن بدائل تنسيهما الخوف من الآتي؟

صديقـه لديه أغـانٍ للصباح وأخرى لليل. يجلـو صدأ صوته في الصبـاح بأغنية مرحة كـي يمضي اليوم متفائلًا بقـرب الفرج.. لكنّه في المساء يصرخ سكران من الألـم: «السبت فات والحد فات وبعد

بكـرة يـوم التلات». حينها ينقـر نورس على الجدار مكرّرًا السـؤال العقيم:

ـ كيف يكون الثلاثاء بعد غدٍ ويوم الأحد قد انقضى؟

فيردُّ صديقه بطريقة تشي بحيرته العميقة:

ـ أتظـنّ أنّه انقضـى حقًّا؟ أحيانًـا يخيّل لي أنّ الزمـن توقف منذ دخولنـا إلـى هنـا. تركناه علـى بـاب المعتقـل، وربّما في الشـارع. شـخصيًّا خلّفـت الزمـن ورائـي عنـد الحاجز الـذي أطلقـت عليه الرصـاص، واسـتطاع جنـوده الإيقاع بـي. صحيح أسـتاذ.. لم تقل لي.. هل سيعدمونني؟

لا يذكر كم مرّة سـأله هذا السّؤال الساذج! وليس بحاجة ليتذكر ألوان الأجوبة البائسـة التي اضطرّ لشحنها بطاقة إيجابية هو في أشدّ الحاجـة إليهـا.. وعـى بوضـوح أنّ فاقد الشـيء لا يعطيـه، وأنّ من لا يملك اليقين الكافي ليُخرجَ نفسه من أزمة الثقة بالغد لا يمكنه أن يمنح الأمل لشـخص يشاركه الترقب والانتظار لذاك الغد الأسود.. كان يدرك أنّ السؤال المجرد يتلاشى، لكنّ الجواب المحدد يبقى! لأجل ذلك حاول نورس أن يهرب من الإجابة بطرح أسـئلة لم يتلقَّ عليها جوابًا! بل عاد الصديق ليطرح أسئلة أخرى!

ـ قل لي يا أستاذ، هل عاد أحد من الموت على حدّ علمك؟

يردّ نورس كأنّما يحدّث نفسه:

ـ على حدّ علمي – إن كان الموت معادلًا موضوعيًّا لعلاقة حبّ فاشلة – قد يفاجئنا الزمن بما لا يصدّقه عقل، ويعود الأموات!

لم يكن صديقه يبحث عن إجابات تحتاج إلى إعادة إنتاج وتفكير، بل يريد إجابة قطعية لا تحتمل التأويل والنقاش.. وهذا ما لم يستطع نورس امتلاكه؛ لأنّه مثله هش وضعيف، ويبحث عن إجابة شافية لأسئلة مربكة لا تخصه وحده كفرد في كون لا حدود لفوضاه. فجأة يسمع صوت أقدام السجّان قادمة من آخر الممر، فيطرق الجدار مرّات عديدة ومتسارعة. تلك كانت إشارة بينهما لم يستطع صديقه أن يحفظها خلال الأيام الثلاثين التي تجاورا فيها، وربّما لم يرغب في حفظها، فقد كان الغناء وسيلته الوحيدة للتغلّب على الخوف والزمن.

يجرّه السجّان خارجًا.. ويسود هدوء قاتل.. لا يعرف نورس إن كان من خلاله يسمع صوت أنين صديقه أم سجناء آخرين في الزنازين البعيدة! ويعود للتحايل على الانتظار، انتظار عودة صديقه من حفل التعذيب.. فيشغل نفسه بما تركه معتقلون سبقوه على الجدران.. يخترع لهم أسماء وظروف اعتقال وعالمًا ومدنًا عاشوا فيها، وعادوا إليها جثثًا هامدة أو مواليد جددًا!

أحدهم كتب اسمه على الجدار عشر مرّات! كأنّه أراد أن يقول: لا تنسني، من هنا مررت، تذكّر أنّي مثلك تنفست الهواء العطن، تأملت سواد الجدران، داويت ألم الروح بأمل الانتظار، وألم الجسد بالصبر، وواسيت نفسي بأنّ أرواحًا أخرى سكنت هنا، وشهدت عليها الجدران. عشرة أيام هنا، عشرة دهور مرّت عليّ.. سألت فيها أرواح من مرّوا قبلي عن جرائمهم التي اقترفوها.. كي يُرمى بهم في هذه الزنزانة! أتعلم؟ هناك أمر يعزيني.. رقم الزنزانة.. قد لا يعني لك شيئًا ، لكنّه بالنسبة لي كان إشارة بشرى بأنّي لن أطيل المكوث هنا.. وإذا حدث أن دخل أحد ليطلق أسر السجناء سأكون أوّل الخارجين.. وربّما سأكون آخرهم! لا تستغرب فأنت لا تعرف مصيري.. ربّما أكون الآن في الجهة الأخرى من العالم.. ربّما تكون روحي وحدها قد عادت إلى شبّاك أمّي على شكل يمامة لتقول لها: «لا تبكي.. فأنا لن أغادر نافذتك بعد اليوم!».

وآخر رسم فيلًا ولم يدوّن أيّ كلمة بجانبه. يبدو أنّه امتلك من الصبر ما لم يمتلكه فيل! تأمل نورس الثقل في جسد الفيل الذي يوازي ثقل الزمن الهائل الرابض فوق صدره.. كم عانى صاحب الفيل وتحمّل!

من هنا مرّ أكثر من شاب آمن أنّ الحل سيكون بالإيمان بقضاء الله وقدره، فخطّ بكلّ ثقة آية الكرسي.. وسلّم أمره لله ومضى!

مصيبة نورس أنّ بإمكانه أن يتخيّل نظرًا لتجربته. لم يعد مهمًّا أن يعتمد على ثقافته البصرية من خلال الأفلام التي شاهدها في حياته، ولا ثقافتـه الروحيـة من خلال قراءاته المنوعـة، فلا مصطفى خليفة يمكنـه أن ينقل له مـن قوقعته(*) ما جرّبه، ولا ذلـك الكم الهائل من المشـاهد الروائية والسـينمائية للزنازين والمعتقـلات توازي لحظة ذعر واحدة سُـلّطت فيها روسـية سـجّان فوق رأسـه، وعـدّ خلالها اللحظـات التـي تسـبق انطلاق الرصاصـة، رصاصـة الرحمة! تلك اللحظات التي اسـتمرت ثلاثة أيام من عمر الزمن وهو متكور على نفسـه كجنين في رحم أمّه عاري الجسد، يرتجف من البرد والجوع والخـوف.. لا يمكن لأيّ مخرج عالمـي أن يصورها كما كانت في الواقع، ولا لأيّ ممثل مهما كان بارعًا أن يعيد المشـهد بالإحساس نفسه.. فهو في كلّ الحالات يواجه موتًا متخيلًا أمام الكاميرا سينهيه صوت المخرج بكلمة واحدة! هل يستطيع الآن أن يصرخ:

«stop»..

ويوقف تصوير هذا المشهد التراجيدي بكلّ الخزي والذل الذي يحمله؟

تجيبـه النقط التي تركها أحدهـم على الجـدار.. «أمامك الكثير مـن المشـاهد التي لم تصورها بعـد.. ألم يعدك الواقـع بأن يعلّمك

(*) القوقعة رواية لمصطفى خليفة يحكي فيها عن تجربة مخرج سينمائي في سجون النظام في الثمانينيات من القرن الماضي.

أن لا تسـرف في تخيلاتك لأنّ مخيلتك القزمة لن تصل إلى التقاط قذاراتهم العملاقة وتوحشـهم الذي لا يقف عند حدّ؟». هذا ما كتبه شـاب بعبارة مواربة «الحريّة لطل الملوحي». لم يكتب اسـمه على جدار الزنزانة، ولم يرسـم ما يعينه على الصبر، بل أنكر ذاته تمامًا.. شابٌّ أراد أن يذكّر كلّ من يمرّ بالزنزانة رقم واحد في فرع الخطيب بـأنّ شـرارة الثـورة كانـت بيد شـابة سـورية امتلكت من الجـرأة ما واجهت به سـلطة مسـتبدة لم تتعامل مع الشعب يومًا إلّا بلغة القمع والقتل والاعتقالات.

أيّ قـدرة عجيبـة تملكها جـدران الزنازين علـى حمل بصمات الأرواح؟ كـم أرّخـتْ لحيـوات وعذابـات ونهايات مفجعـة! ربّما يكون القاسـم المشـترك لـكلّ المعتقليـن الذين مرّوا بهـذه الزنزانة وغيرها من زنازين سوريا أنّهم يبحثون عن حياة أفضل في ظلّ حريّة حرمـوا منها لمدّة خمسـة عقـود مضت! كلّهم يدركـون أنّ حريّتهم شيء ثمين يستحق التّضحية بالنفس، وبكلّ ما يملكون. شيء جعله يبتسـم في هـذه الزنزانة.. أنّ أحـد المعتقلين لم يكتب شـيئًا يعرّف به نفسـه، فقط كرّر كتابة أيام الأسـبوع مئات المـرّات، وآخر اكتفى بوضع نقاط بجانبها!

يشـعر بثقـل الزمن على جسـده، يمرّ بطيئا مسـتفزًّا، يتسـلّل من مسـامات الجـدران الرماديـة قطرات مـن القطران الحـارق، تطرق

دماغـه ببطء.. تسـيل فوق وجهه.. فراغ يخلّفه إحساسـه المشـتعل بالحنيـن إلـى العالـم.. إلى الحيـاة. يتوقف ذهنه عـن العمل، وتبدأ عواطفـه بالتأجـج، يصبح لها هيئـة مادية ملموسـة. لا معنى للزمن بعيـدًا عن العاطفـة. العاطفة هي التي تشـعل الذاكـرة، وتخلق زمنًا خاصًّـا لا يعود إلى الـوراء. يبقى في مكانه والنـاس يأتون إليه، لأنّه يشعر بانعدام الزمن. يأتون إليه بلا ملامح! لا يكاد يميّز وجوههم.. حتّـى أحجامهـم الطبيعية لم يعد يسـتطيع إدراكها بدقـة، فالمقياس مرتبط بجسـده تحديـدًا، بحجمـه المتقلّص.. الجنينـي. هنا وعلى مقدار ذراع فقط، يأتي أبوه وأمّه وأخته، ينحشرون كلّهم في المسافة الضيقـة - الواسـعة - التي لا تحد! يجلسـون على كراسـيهم، على فراش واسـع، هنا يبـدون له كما يعرفهم.. يُحضـرون معهم الزمن، الروائح، أشياءهم الخاصة، أماكنهم المفضلة، وأدواتهم، ولغتهم.. ينشرون حوله عبير خبز التنور، وحرارة الصيف، واتّساع المدى أمام أشـجار الحديقة.. حتّى الشمس يكاد يدركها بحضورهم! لا يلبثون إلا لحظات، ثمّ يتبخرون.. وكأنّهم لم يكونوا!

فكّـر لو أنّه أحبّ ترك ذكـرى لمروره بهذه الزنزانة على جدرانها مـاذا يكـون؟ لم يجـد خيرًا من سـمكة.. سـمكة وحيدة تـدرك كمّ العزلـة الرهيبـة التـي تعيشـها خـارج الماء! لمـس الجـدار بأنامله، تأمـل أظافره المكسـرة، هل تصلـح للتعامل مع الجـدار؟ وحدهم المعتقلـون يعرفـون أنّ جـدران الزنازين هـي الوحيـدة التي تملك

رهافـة منقطعة النظير، فتحنو على أجسـادهم بعد أن تبتعد خطوات جلاديهـم! وحدها الجـدران تحمل بعضًا مـن أرواحهم وأفكارهم وأحاسيسهم، وتحتفظ بها كشاهد وحيد على معاناتهم في وحدتهم القاتلة بعيدًا عن أعين السجّان والعالم في الخارج!

تراجعـت يده.. مرارة عالقة في الحلق نبّهته أنّ السـمكة سـتبقى وهـو راحـل! تمامًـا كهـذا الزنجـي الـذي رسـمه أحدهـم.. رأسـه المحلـوق يكاد يضيء عتمة الجسـد والجدار! إلام قصد مَن رسـم هذا الزنجي من دون ساقين تعتليه صخرة؟ لم يكن سيزيف من دون سـاقين وإلا لما اسـتطاع أن يحمل صخرته في تكرار أبدي أحمق! أهـي العبوديـة التي تشـلّ الجسـد فلا يسـتطيع التحرّك مـن مكانه، ولا تكتفـي بعجـزه فتضع صخرة فوق رأسـه؟ قد يبدو هذا التفسـير البسـيط للرسم هو ما أراده صاحب الرسم.. وربّما يكون قصد شيئًا أعمـق.. يكفيه أنّه أخذ وقتًا من كلّ معتقل جاء بعده ليتأمل الرسـم، ويفكّر بالرسالة التي أراد إيصالها!

الرسـالة! لم يكن الاسـم وحده مـا جعل فيلم العقاد «الرسـالة» يحضـر إلـى ذهن نـورس، بل مشـهد تعذيب آل ياسـر.. وتداعيات كثيـرة جعلتـه يرى المهاتمـا غاندي حاضـرًا.. حـاوره قليلًا، وكأنّه يحاور ممثلًا يقوم بدوره!

أخيرًا سـمع صوت صديقـه يعلو بأغنيته المعتادة «السـبت فات والحد فات» لم ينتبه كيف وصل، ومتى دخل زنزانته، أكان مستغرقًا

في أفكاره إلى هذا الحدّ؟ أهي صرخات عمّار بن ياسر سدّت أذنيه عن العالم الخارجي؟ أم أنّها صرخات المعتقلين في الأقبية واختلط الأمر عليه؟!

طرق جدار الزنزانة بملء كفيه، وقال:

ـ ألن تكف عن تصديع رأسك ورأسي بكلمات حشّاش لم يكن يعرف أيام الأسبوع؟

صمت قليلًا، وقال:

ـ وما أدراك أنّه حشّاش ومسطول؟ ألا يمكن أن يكون معتقلًا ضاعت منه الأيام، ولم يعد يعرف أنّ بعد غدٍ يجب أن يكون يوم أربعاء، لأنّه ببساطة حمصي لا يريد أن يتذكّر يوم الأربعاء بالمطلق.. فهو يوم الأحزان لا كما يتصوّر معظم أصدقائي بأنّنا نتخذه عيدًا للجنون؟! أتدري أنّنا التقينا لأوّل مرّة يوم أربعاء، وافترقنا يوم أربعاء، واعتقلت يوم أربعاء؟! كيف تريدني أن أتذكّر هذا اليوم؟ من حكمة القدر أنّ كاتب كلمات هذه الأغنية عنده مقدرة على الكشف جعلته يعرف أنّ يوم الأربعاء يوم نحس لي لذا حذفه من القاموس!

قال نورس ممازحًا:

ـ ويمكن أن يكون أحد المتصوفة الذين يصلون إلى المطلق عن طريق الحشيش، ما أدراك؟ على كلّ حال غيّر النغمة أرجوك.. غنِّ لنا «يا جبل البعيد».. أشتاق إلى جبال الزاوية!

اعتذر صديقه:

ـ لا تؤاخذني، لا أعرفها.. لا أطرب لفيروز، كلُّ معارفي يستغربون ذلك، لكن بي روح حارّة لا يمكن لها أن تلتمس الهدوء الفيروزي، بل إنّها كثيرًا ما تستفزني، فأغلق التلفزيون إن رأيتها أو سمعتها.

ساد صمت كان يقطعه حينًا صوت سجّان يشتم من بعيد، وهو يجرّ معتقلًا للتحقيق! جاء دوره...

لا يمكن لأيّ مخيلة أن تصف لحظات الرعب التي يعيشها قبل كلّ تحقيق.. طيلة الطريق من الزنزانة إلى غرفة التحقيق يبقى في حالة ذعر تُرعش يده فيحاول إلصاقها بجسده لتهدأ.. لا يمكن له أن يسند يسراه بيمناه، فكلاهما داخل القيد، لا يمكنه إرسال رسائل خفية لساقيه لتكفا عن الارتعاش.. لا يمكن لهذا الألم المجنون أن يفارق روحه.. بل تزداد وتيرته كلّما اقترب من غرفة المحقق! كان ينتظر الحكم عليه بالموت وكأنّه قدر لا بدّ منه، حدّ أنّه أصبح يتمنى حدوثه بسرعة ليتخلص من لحظات الرعب والانتظار التي لا تنتهي! كلّ ذلك بسبب فيلمه الأخير الذي تعرّض فيه لشخصيّة الديكتاتور الذي اعتبر نفسه إلهًا كما فعل فرعون مصر.. كثيرًا ما خطر له أنّ ما اقترفه لا يستحق كلّ هذا الاهتمام من هؤلاء الأغبياء الذين لا يفقهون في الفن أبعد من أنوفهم، ويبحثون فيه فقط عن

مشاهد الجنس والصور الفخمة الجميلة للحياة، وكأنّهم لا يبصرون ما يجري حولهم! هل حقًّا هم لا يبصرون! يبدو له أحيانًا أنّها مجرد مصادفة حمقاء جعلتهم هنا في موقع القرار، فالخالق الواعي لما يفعل يدرك خيوط لعبته بأدق تفاصيلها، أمّا هم فيعبّرون بغباء لا حدود له عن استغرابهم واستنكارهم لثورة شعب استعبدوه طيلة خمسين عامًا، فكيف لا يتوقعون أن يكسر القيد يومًا؟!

كالعادة ضغط السجان رأسه، وجعله يركع على الأرض القذرة، وحافظ بأصابعه القاسية على وضعية الانحناء لرأسه كي لا يرفعه في غفلة منه، ويرى وجه المحقق! كان قدره في كلّ تحقيق أن لا يرى سوى أحذية هؤلاء القتلة، وإن أسعفه الحظ وهو ينهض لمغادرة الغرفة يلمح وجه من يحقق معه لثوانٍ، لكنّها كافية ليحفظ الملامح وشكل الملابس- بنطال أسود، كرافتة طويلة تصلح لصنع مشنقة وحذاء الرين – الحذاء هو الشخصية الوحيدة الأكثر تواجدًا في مخيلته وأمام عينيه! أحذية متشابهة وكأنّها ماركة مسجلة للمحققين الذين جُرّ إلى غرفهم ليسمع شتائمهم في البداية، ثمّ تعريضهم بغبائه، وبعد ذلك إلقاءهم محاضرة على مسامعه تتناول أفضال الرئيس عليه وعلى أهله وعلى البلد، حتّى لم يبقَ سوى تصريح واحد احتفظوا به وهو أنّه لولاه لم يكن موجودًا!

فهم من الأصوات التي التقطتها أذناه أنّ المحقق جلس خلف الطاولة.. كوّم أمامه الأفلام التي كانت في حقيبته عند اعتقاله،

قـام مسـاعده بوضع أحدها في الكمبيوتر، وشـغّل الفيلم! انسـابت موسـيقى فيلم «لوميير».. أخرج الفيلم بحركـة نزقة، ورماه أرضًا.. بعده فيلم «المدرعة بوتمكين، لإيزنشتاين» موسيقى الفيلم والشفاه المتحركـة مـن دون أصوات كانت كافية لتضـرب عصب المحقق، وتجعله يعتقد أنّي أبله حقًّا! فجأة وجد غايته «صندوق الدّنيا لأسامة محمد» و... سـمع الشـتيمة المقذعـة بأذنيه، وتمنى لـو أنّه لم يكن يسـمع! كم يحسـد الطرشـان على هذه النعمة التي تجعل أرواحهم أنقـى وأرفع شـأنًا لأنّها لم تتلوث بقـذارة ما يتلفظ بـه هؤلاء الذين لا يشبهون البشر في شيء! قال بحدّة:

ـ أفلام سـخيفة، كلّها أسـود وأبيض! يبدو أنّك أكبر أحمق رأيته في حياتي.. وماذا عندك أيضًا؟ طوفان في بلاد البعث؟ ما شاء الله! ألـم يفطـس مخرج هـذا الفيلم؟ أظنّه فطس.. ولم يسـتفد شـيئًا من حياته ولا من أفلامه، مات مفلسًا تافهًا وأنت ستلحق به.

همس لنفسه ما قاله عمر أميرلاي حين سُئل عن عائدات أفلامه: «أعيـش لأصنع السـينما ولا أصنع السـينما لأعيـش!». كيف لمثل هـذا المحقق الغبي أن يفهم أنّ الندم لا يكون إلا على الأشـياء التي نتنصل من انتمائها إلينا؟

كرّر سؤاله بعصبية:

ـ إذا خرجتَ من هنا، هل ستعود لعمل فيلم آخر مثل هذا؟

التقطت حواسه عبارة واحدة «إذا خرجت»، هل يعني هذا أنّهم لن يقتلوه؟ هل يمكن أن يخرج حيًّا؟ هل سيرى العالم في الخارج مرّة أخرى؟

قال المحقق بلهجة أقلّ حدّة بعد أن جلس، ورفع ساقيه على الطاولة أمامه:

ـ كم تقبض على أفلامك؟

أجاب ببطء:

ـ ليس كثيرًا، ما يكفي لتغطية النفقات والحياة لمدّة تكفي لإنجاز فيلم جديد.

أراد أن تكون لهجته منكسرة ولكنّه لم يستطع، مع هذا التقط المحقق النبرة، وفكرة كونه لا يملك شيئًا. قال بلهجة أقرب للعتاب:

ـ تتقن لغتين، وتعمل مخرجًا، شاب في أوّل عمرك، ما الذي ينقصك؟ لماذا لا تستغل موهبتك في عمل «فيديو كليب»؟ ممَّ يشكو الفيديو كليب؟ يجلب لك مالًا لا تحلم به من تصوير مئات الأفلام التافهة كهذه التي حشوت بها حقيبتك. هل يستحق الفيلم كلّ هذا الجهد وإضاعة مستقبلك؟ أيستحق هذه التضحية التي تقوم بها؟

تجاهل السؤال، لم يكن يستطيع الكذب، والصمت سيكون موحيًا باقتناعه أنّ كلامه هو الصواب! لا يمكن بأيّ حال أن يفهم

مـاذا تقدّم السـينما للإنسـان، فكيف يشـرح لـه وجهة نظـره؟ وهل سيعتبرها وجهة نظر أم تحقيرًا لكلامه واستعلاء عليه؟ بعض الكلام الاحتفـاظ بـه في مثل هذه المواقف أفضل مـن النطق به، فقد يودي بك إلى المهالك!

ختم التحقيق بسؤال غريب:

ـ أودّ أن أسألك، هل القبلة في السينما حقيقية أم تطبيق؟

فاجـأه السـؤال الدخيـل علـى رتـم التحقيـق، وتوقـع أن يكون الأخير، هكذا تنفس بارتياح، وقال:

ـ حقيقية.

زفر المحقق، وقال:

ـ ولم لا؟! يا أولاد الكلب.

حيـن أعـادوه إلى الزنزانـة كان في حال يرثى لها، لم يسـتطع أن يجيب على أسئلتي سوى بالصمت. كان بحاجة إلى النوم!

قبـل انقضاء اليوم الثامن والعشـرين جاء السـجّان، قيّده، وربط العصابة حول رأسه، وجرّه كشاة تساق إلى الذبح.. تشوشت الرؤيا، حـاول أن يتحايل على يقينه بأنّ النّهاية اقتربت وأنّهم يسـوقونه إلى قبـو الإعـدام ببعـض الأمل! لكـنّ أنفـه التقط رائحـة نظيفـة لهواء خالـص.. بالتأكيد لم يكـن واهمًا.. إنّه الهواء.. من دون شـوائب..

لا رائحة عفونة تنخر صدره الملتهب، لا رائحة قذارة تنبعث من الممرات والأقبية، لا رائحة أجساد احتفظت بلزوجة الدم السائل من أوردة مفتوحة بآلات التعذيب.. كلّ ذلك أصبح بعيدًا! أصوات العالم الخارجي مصحوبة بالشتائم وأصوات صراخ السجانين على معتقلين آخرين ترافقها أصوات سيارات وعالم من موسيقى.. كأنّها أنامل «باخ» تعزف السيمفونية السابعة! تحوّل جسده في لحظات إلى أنف وأذنين، حاول التقاط كلّ ما حوله وتخزينه في جسده الضعيف.. حتّى لسعات البرد القارص، التي جعلت أنفه يتضخم، ويتحسس، وأثارت موجة سعال حادّة كادت تشقّ صدره.. كلّ ذلك كان هيّنًا مقابل إحساسه بالحياة من جديد!

فاجأته يد السجّان بصفعة على وجهه، ثمّ أمسك به من ياقة قميصه، ورماه إلى حافلة مغلقة انحبس الهواء داخلها، وردّدت جدرانها الحديدية صدى صراخ معتقلين آخرين سقط فوقهم من دون قصد، وراح يعتذر بكلمات لا معنى لها! لم يعرف الزمن الذي انقضى قبل وصول أجسادهم المحشورة داخل الصندوق إلى مكان ما.. أنزلوهم من السيارة كالخراف، تلمّسوا أجساد بعضهم طلبًا للحماية والتواصل مع ما هو إنساني بعد حرمانهم من الرؤية. كان كلّ واحد منهم يحاول إيصال معلومة للآخرين عن اسمه ومدّة اعتقاله والسّبب في ذلك.. لعلّ من يحالفهم الحظ في الخروج من

فوهـة الجبّ يخبـر أهل الآخرين بـأنّ من ينتظرونه بالدّمع والسّـهر ما زال حيًّا!

أدخلوهـم إلى ممر كانت تتعالى منـه صرخات معتقلين يعذبون بالضرب بعصي كهربائية، ويداسون ببساطير الجنود ورجال الأمن! التصقتْ أجسـادهم بالجدار، وكأنّهم سينجون من المصير المتوقع إن تكاتفوا بأيديهم المقيّدة! لم يكن أحدهم يعرف صاحب الجسـد الـذي يلتصق به، لا انتماءه ولا دينه ولا عقيدته ولا أيّ شـيء عنه.. مجـرد إحسـاس أنّه يلتصـق بآخر مثله لأنّه يشـاركه المصير نفسـه. ليـس سـيئًا أحيانًـا أن تلتصـق بشـخص تعـرف مسـبقًا أنّـه ضعيف مثلك، ولا يمكنه أن يقدّم لك شـيئًا سوى مشاركتك وجبة التعذيب والركلات والضرب العشوائي!

أيـد كثيرة امتـدت إلى رؤوسـهم، وجرّتهم إلى أماكـن متفرقة.. وجد نفسـه وحيدًا مرّة أخرى داخل دوامة من صدى الأنين ورائحة الـدم الطـازج.. دمٌ لم يفقـد بعد حـرارة اللحظة التي تسـبق الذبح! كان واضحًـا أنّـه في قبو للتعذيـب. في هذه اللحظـة أدرك أنّ ما مرّ به مجرد لعبة أمام القادم الحقيقي! حواسـه كلّها اسـتنفرت لتعوّض نعمة النظر التي حرموه إياها بإحكام العصابة حول عينيه.. مع أولى الركلات التي اسـتهدفته، تكوّر جسـده حتّى غدا كـرة صغيرة، يكاد يمتلك اليقين أنّ حجم جسده لم يتجاوز حجم جنين في رحم أمّه..

هكـذا صغر.. صغر جدًّا.. ورآهـم بعين مخيلته، وهم يقبضون عليه فـي المطار، ويربطون يديه إلى الخلف، ويلبسـون رأسـه كيسًـا من القماش، يربطونه حول رقبته، ويكورون جسـده ويضعونه في كيس آخـر، ثمّ يرمونه علـى إحدى عربات الحقائب خطفًا! بعد سـاعات اسـتقبله بلاط بارد وقـذر ينضح عفونة وروائح كريهـة، وبقي مرميًّا هناك في البرد والخوف والعتمة ووسط جوع مزّق معدته، ثلاثة أيام بلياليها.. انتشـله من قسـوتها الزنزانة رقم واحد فـي فرع الخطيب! تبدو الزنزانة أحيانًا المنقذ والملجأ من كلّ ما قد يتعرّض له الجسـد مـن تعذيـب في الأقبيـة.. يمكـن أن يقال إنّهـا محطة يسـتريح فيها المسافر قبل متابعة طريقه إلى الجحيم. هل سيكون هذا المكان هو الجحيم المنتظر؟

لا يستطيع أن يجزم.. في البداية اعتقد أنّ الأيام الثلاثة كانت في قبو لا يعرف مكانه لكنّه قدّر أنّه تحت الأرض بثلاثة طوابق.. حيث لا يوجد هواء، والأضواء مسلّطة فوق رأسـه بما يكفي ليبقى جسده في حال انتباه وصحو دائمين.. ثلاثة أيام هي الجحيم!

ثمّ جـاءت الزنزانة لتضرب حول روحه طوقًا من الوحدة القاتلة والأفكار الأشدّ فتكًا بأعصابه، كان وجود حسـن يلطّف من إيقاعها الوحشي.

استسلم لإحساسه بالعجز حدّ أنّه لم يعد يستطيع تحمّل الألم.. أخذته الغيبوبة إلى دنيا تشف بزرقتها، وتتجمّل بأطياف قوس قزح.. لو يدرك الجلادون أيّ عالم يمكن أن يصل إليه جسدٌ معذب، وبأيّ الوسائل يدافع عن وجوده، هل كانوا يفعلون ما يفعلونه الآن؟ لا يستطيع التأكيد على أنّ كلّ من مرّوا بالكرسي الألماني، والدولاب، وباقي أدوات التّعذيب، استطاعوا أن يصلوا إلى مرحلة الانفصال الكامل عن أجسادهم، والابتعاد بأرواحهم إلى حيث يحمونها من سماع ورؤية ما يحدث في تلك الأقبية القذرة.. لكنّه امتلك جزءًا من اللعبة الذهنية التي مكّنته من السيطرة على عقله وروحه والنأي بهما عن جسده حدّ التزامه الصمت ودخوله في الغياب!

وعى من خلال رائحة الأرض وهواء التكييف الساخن والعطر المنتشر في المكان أنّه داخل غرفة تحقيق، عارٍ من أيّ شيء يستر جسده، مكوّر كجنين يرفض الخروج من كيسه المائي! استقبل الأرض بركبتيه ورأسه منكّس بقوة قبضة حديدية! سمع صوت المحقق:

ـ هذا هو؟ انزع العصابة عن عينيه، انهض يا...

تخاذلت ساقاه، لم تستطيعا حمله هذه المرّة، فتهاوى مجددًا مستقبلًا الأرض. سمعه يشتم أمّه، ويقول:

ـ أنـت المخرج الذي عمل فيلمًا يصـف به الرئيس بالديكتاتور! أخيرًا شرّفت، انتظرتك طويلًا...

لـم يـرد، كان محتارًا في الكيفية التي عليه أن يرد بها، ومشـغولًا بالبـرد الـذي يقـرض عظامه وهـو مرميٌّ علـى الأرض أمـام قدمي المحقق الذي اعتبر صمته إهانة له، فرفسـه في صدره بقوة أخرست الجـواب إلـى الأبـد. لم يعد يسـتطيع التنفـس.. شـعر بالاختناق.. شـهق مرارًا، رفعه الجلاد بيد واحـدة.. ثمّ أفلته. وقع على الأرض، وشـعر بتكسـر عظامه مصحوبا بالإهانة تلو الإهانـة من فم المحقق وحذاء الجلاد! اتهموه أنّه عميل لقطر، وأنّه يقبض بالدولار ليشـتم الرئيـس بوصفه بالديكتاتور! تذكر المشـهد الذي وصف فيه بشـار بالديكتاتوريـة حتّـى أنّ هتلـر وسـتالين رفعـا قبعتيهما لـه تحيّة لما يفعله بشـعبه! مـن هتلر؟ من سـتالين؟ لماذا وضـع صورته بجانب عبد الناصر؟ يشـكّ أنّه وصفه بما يليق به.. تذكّر مشاهد من السينما البرتغاليـة الواقعيـة، مشـهد رفس معتقليـن وهم عـراة! رائحة الدم والعرق والأرض القذرة.. لم تستطع السينما أن تُظهر المشهد بهذه الواقعية والقسوة.. كم الحقد، الروائح، بشاعة الجلاد وهو يمدّ يده على زاوية قميصك، يحركك كما يريد وكأنك شيء قذر..

sound speed

camera rolling

and action(*)

تدور الكاميرا.. يبدأ الفيلم.. ما الذي يحدث؟

سأله بحنق:

- إن خرجت من هنا هل ستعود لعمل فيلم آخر؟

لم يجب، جاءته رفسة في صدره حبست الجواب هناك.. مرّة أخرى يحتار هل يجيب أم لا؟ إن أجاب ماذا يقول؟ لو استطاع قول ما دار بذهنه، تكفيه طلقة رصاص لأنّه خائن وعميل يسيء لدولة تحميه ولرئيس يطعمه ويؤمّن له أسباب الرفاهية!

لا يعرف إن كان للأفكار ذبذبات يمكنها أن تصل المحققين فيعرفون ما يدور في رأس المعتقل حتّى تقدّم منه المحقق، وصفعه بشدّة وهو يشدّه بيده الأخرى لينهض.. مهددًا بأنّ آخرته على يديه. لحظتها أيقن أنّ ذلك سيحدث حقًّا، وتمنى أن يحدث بأقصى سرعة. لم يعد يحتمل منظر جسده العاري الذي يشعره بالذل.. حاول فهم الحركات التي رافقت أسئلة المحقق، وربطها بالأصوات التي كانت تصله من أماكن بعيدة.. أصوات معتقلين يُعذبون بوحشية، تعلو وتيرة أصواتهم وكأنّها صادرة من مكبر صوت. كانت أصواتهم تشتت ذهنه، وتزيد ألمه! دفعه المحقق بقوة ليتلقفه الجلاد الذي جرّه على البلاط، مؤكدًا لمعلّمه أنّه سيقوم بالواجب!

(*) عبارات يرددها: 1- مهندس الصوت، 2 - مدير الإضاءة، 3- المخرج.

لم يعرف أنّ الواجب هو بقاؤه عاريًا في وضعية التكوّر تلك داخل زنزانة يرافقه فيها الجلاد مسلّطًا فوق رأسه فوهة رشاشه!

ثلاثة أيام قضاها على هذا الوضع حتّى أنّه تخيّل نفسه جنينًا محنطًا في محلول طبي في متحف، يتفرّج عليه الآخرون وهو في عمى لا نهائي!

لم يعد جسده قابلًا للحركة في صباح اليوم الرابع حين لكزه السجّان لينهض إلى التحقيق! كلّ ما فيه تخشّب، وأصبح قابلًا للكسر.. لم يعد يفكر بطرح فضلات جسده ولا بطعام يدخل معدته، ولا بماء يشربه.. كلّ ما يشعر به بردٌ يطحن عظامه، فيرتجف بشدّة تشعره أنّه ما زال حيًّا! سار في الممر الطويل وهو محني الجذع كعجوز تجاوز المئة من العمر، جرّ ساقين هزيلتين وجسدًا نحيفًا لم يعد يتأقلم معه. أمره السجّان بارتداء ملابسه في مكان ما! وسحبه برفق إلى غرفة التحقيق! هذه المرّة لم يضغط رأسه ليبقى منكّسًا.. لكنّه لم يستطع رفعه مع أنّه بذل الكثير من الجهد حين أمره المحقق بالنظر إليه.. أكثر ما استطاعه أن يرى بطنه وساقيه ويديه.. شغل نفسه قليلًا بتحليل حركاته لتقدير المصير الذي ينتظره بعد التحقيق.. هذه المرّة المحقق قابله بلهجة مختلفة، أخبره وكأنّه صديق حميم يفضي إليه بسر أنّ زوجته طلبت الطلاق، وأنّ أهله تبرؤوا منه، وأنّه يجب أن يفكّر بمواقفه المتهورة كي لا يقضي على مستقبله.. الحديث

كان يحمـل فـي طياته إيحاء بـأنّ ثمّة أملًا في إطلاق سـراحه، وكلُّ ذلك يتوقف على قراره بشـأن ما سـيفعله بعد خروجه من المعتقل! لم يساومه بوضوح، ولم يعرف ماذا عليه أن يفعل فقد امتلأ بالشكّ، وكان موضوع الطلاق هو الأمر الأشد إيلامًا بالنسبة له.

أعـادوه إلى الزنزانة من دون عصابـة على العينين! كان يتمنى لو أنّ حسـن في الزنزانة المجاورة، لكنّـه على الرغم من الطرق الدّائم على الجدار لم يسمع ردًّا! خيّم صمت قاتل.. وتّر أعصابه، لكنّه لم يمنعه من النوم.. نام كقتيل...

حين اسـتيقظ وجد أمامه صحنًا فيه عدس بارد.. وكسـرة خبز.. وصوتًا قال له:

ـ مدّ يدك.. عليك أن تأكل..

تـردّد، كان يخاف أن يأكل.. معدته لن تحتمل، مع هذا قضم من الخبز، ورشف قليلًا من شوربة العدس.. وترك الصحن.. ألحّ عليه ليكمل وجبته، لكنّه لم يجرؤ.

وصلته رائحة مميزة اسـتنفرت حواسـه ترقبًـا.. قرفص محاولًا أن يـرى من أسـفل البـاب ذلك الشـيء الغريب.. تلاحقت أنفاسـه وهـو يحـدّق جيـدًا.. تعوّد العتمـة، وتآلـف معها إلى درجـة تمكّنه مـن تمييـز أيّ تغييـر يطـرأ علـى الممـر، وإن كان خيط ماء ينسـاب

مـن كأس يحملها سـجّان يقطع الممر عابرًا إلـى إحدى الزنزانات! كانـت أحذيتهم واحدة تحمل اللون الرمادي الوسـخ الذي تتميّز به أرض الزنزانة وأرض الممر الطويل الذي يقفون فيه، كلّ ما يرتدونه رمادي قذر!

افتقد الألوان الأخرى حتّى نسـيها وسـط العتمة.. رأى بوضوح ذلـك الشـيء ينتقـل من يد السـجّان إلى يـد زميلـه.. الحركة كانت واضحـة.. الآخـر لـم يلتقـط الشـيء الكـروي بمهارة، فسـقط من يده.. تدحرجت أمامه.. يا إله السـماء.. رآهـا.. برتقالة تزهو بلونها وسـط الرماد.. برتقالة! لونها المشـع أحضر الشـمس، جاء الصباح مسـرعًا.. أنارت الفتحة المستطيلة أسـفل البـاب.. كانت تتدحرج ببطء، تنسـاب علـى الأرض كملكة.. بهية ومشـرقة وفخورة بلونها وحضورهـا. اقترب قليلًا مـن باب الزنزانة، مجـرد لحظات تفصله عنهـا، لحظات فقط يسـتطيع خلالها أن يمدَّ يـده ويلتقطها! فتصبح قريتـه بين يديه، صباحات أمّه، رائحة خبز التنور، إشـراقة مصحوبة بلسـعة برد تترك نداها في عينيه. لـم يجرؤ على إصدار أيّ صوت.. ناداها بصوت أخرس.. ألحّ بالنداء. كان نداؤه الخفي يحمل تضرّعًا ولهفة.. لكنّ السـجّان الذي تركها تتدحـرج على مزاجها زمنًا.. مدّ يدًا رمادية، وأمسكها في اللحظة التي صارت فيها أمام باب الزنزانة! فجأة غابت الشـمس، وخفت صوت أمّه، وتلاشـت رائحة الخبز.. وغرقت الأشياء في العتمة من جديد!

صديقه في الزنزانة ربّت كتفه، وقال: «لا تحزن.. فكّر في الأشياء التي ستكون بعد خروجك». سأله: «متى سيكون ذلك؟ هل حقًّا سأخرج؟». لم يجب.. ليس لديه إجابات شافية.

جاءه الفرج حين جرّه السجّان يومًا، وهو يتأبط ذراعه، ويهمس:

ـ أليس حرامًا أن تضيّع مستقبلك لأجل وهم؟ من خدعك وأدخل في رأسك أنّنا يمكن أن نغيّر ما بنوه خلال خمسين عامًا؟

كاد يجيبه، لولا تنبهه إلى أنّه لا يمكن لسجّان ما لم يأمره معلمه أن يكلّم معتقلًا ويناقشه أيضًا! لا شكّ أنّهم طلبوا منه استدراجه كما كان يفعل «أبو الليل»، حين كانت سياطه تأكل لحمه في النّهار، ويده تمتدّ لتلمس جراحه في الليل بحنان أب مكلوم! لم يصدّق ادّعاءه بأنّه مجبر على عمله، وأنّ وجوده لمساعدة المعتقلين بإيصال رسائل شفهية لأهلهم في الخارج، وإحضار ما يحتاجونه من أدوية بسيطة ودخان وطعام - أفضل من وجوده خارج السجن لأنّه سيترك مكانه حينها لشخص قد لا يرحم! أيقن أنّ أبا الليل في أحسن الأحوال يعاني من انفصام في الشخصية إن كان صادقًا! أو أنّه مخبر مدرّب على استنطاق المعتقلين بأساليب متعدّدة.

قرّب السجّان فمه من أذنه، وقال بودّ واضح:

ـ عندي سؤال يقلقني أريدك أن تجيب عليه بصراحة.

خمّن السؤال من الطريقة الهامسة التي أشعرته بارتباك السجّان.. الذي أسرع بطرح سؤاله وكأنه ينفذ مهمة صعبة:

ـ هل القبلة في السينما حقيقية أم تمثيل؟

كاد يضحك.. المحقق أولًا.. ثم العسكري الذي يعمل سجّانًا؟! يبدو أنّ الرؤوس تتساوى في هذه المسائل.. قال بجدية:

ـ حقيقية بالتأكيد.

تنهّد السجّان، وقال:

ـ هنيئًا لهم، ليتني أترك هذه المهنة المملة وأعمل ممثلًا.. قل لي ألا أصلح لذلك؟

رفع رأسه، ونظر إليه.. فيه شيء يوحي بالغباء، بالجهل. لم يجد ما يقوله له، إن كانت قراءته لشكله صحيحة فهذا يعني أنّه لا يصلح سوى لما هو فيه! وإن كان غير ذلك فهو ممثل حقًّا!

بعد التحقيق، ساقه السجّان إلى المهجع. هناك التقت عيناه بمئات العيون المحدّقة في الضيف الجديد.. دفعه السجّان، وقال:

ـ جدوا له مكانًا بينكم.

لم يكن من السهل أن يجدوا له مكانًا، فقد كان المهجع مليئًا بالأجساد التي تنبعث منها رائحة العرق، وترشح الجدران بعفونة

قاتلـة، وروائـح نتنـة.. كلّ ذلـك الخليـط لـم يمنـع المعتقليـن من الجلوس في صفوف، ملتصقيـن ببعضهم وكأنهم في حلقة الدرس عند شـيخ القرية! لم يفهم مباشرة النظام السائد في المكان.. احتاج لعـدّة أيـام ليعرف أنّ الصفوف تتبدّل يوميًّا كـي يأتي الدّور على كلّ صـف ليكون مكانه قرب الجـدار، فيريح ظهره عليه طيلة النهار، ثمّ يأتـي دور من هم في الأمام، وهكذا حتّـى يحصل الكلّ على فرصة الاسـتراحة قرب الجدار! ولأنّه ضيف جديد أرادوا أن يعرفوا تهمته ومنـذ متى اعتقـل، ومن أين أتى. أكرموه بالجلـوس قرب الجدار.. وهكـذا روى للجالـس بجانبه القصـة التي نقلها لمن بجانبه همسًـا حتّـى وصلـت جميع من في المهجع! البعض هزّ رأسـه أسـفًا على شـبابه.. والبعض أعلن همسًـا أنّ «تهمته» بسيطة ما دام لم يستخدم السـلاح.. وأحدهم قـال: «وكيف تجرّأت على وصفـه بالديكتاتور وفي فيلم؟! يا أخي كنت غادر البلاد قبل أن تفعل ذلك».

أيـام تمضـي بإيقاع سـريع حينًا وبطـيء أحيانًا بمقـدار ما يغادر الزنزانـة معتقلـون، ويحلّ آخـرون مكانهم! فيهمس القـادم بأخبار الخـارج.. ويتناقلهـا الجميـع همسًـا.. إذ لا يجـرؤ أحـد على رفع صوته تحت طائلة الجرّ إلى القبو لتطاله العقوبة لعدم التزامه بأوامر السـجّان! أخبار العالم في الخارج هي ما يعطي للزمن معنى، وهي التـي تجعله يشـعر بوجـوده.. حرص أن لا يرفع رأسـه كثيـرًا، وأن لا يجادل أحدًا أو يناقشه طيلة الفترة التي قضاها في فرع المخابرات

الجويّـة في كفر سوسـة.. لأنّه فـي الأصل كان فاقـدًا لصوته، أمّا ما يخـرج من حلقه مـن همس فيعتقد أنّه كان لآخر، ربّما صديقه الذي يلازمه باسـتمرار، ويسـأله تلك الأسـئلة المحرجة التـي لا يجد لها إجابات، ويختم كلّ حوار بينهما بسـؤال عقيم: «إلى أين يا نورس؟ إلى أين؟». لم يكن بإمكانه وهو داخل زنزانة أن يتأبط ذراعه ليتحدّثا وهما يتمشيان بين الحقول كما كان يفعل كارل يونغ.

لـم تكن أزمتـه في إيجـاد صديق، فسـرعان مـا تنشـأ العلاقات الحميمة بين المعتقلين على اختلاف مشاربهم، فهم يشعرون بتلك الألفة التي تجعلهم ينسـفون الجغرافيا والتاريخ والأديان في سـبيل تمضية الوقت بأكبر قدر من التواصل الإنساني مع الآخر «السوري» مثلهم.. لا شكّ أنّ للقاعدة شواذ، لكنّها تبقى حالات قليلة تفرضها غالبًا الأفكار السـيئة عن الذات والخـوف من القادم.. تلك الأفكار التـي تجعـل بعـض المعتقلين يفضّلون أنفسـهم علـى الآخرين في اختيار مكان النوم وحصة الطعام، وقضاء الحاجة! كلّ ذلك لـم يكن ذا شأن بالنسبة له.. حتّى جلوسه قرب الجدار لم يهتمّ له يومًا!

لأجل ذلك كان في الصّف الأمامي بعيدًا عن الجدار الذي انهار مـن قوة الانفجار، وتناثرت حجارته شـظايا فوق رؤوس المعتقلين الأقـرب إليـه! أكان انتقامًا منهم أم منه؟ مما لا شكّ فيه أنّ للجدران أيضـا ثاراتها التي لا تنام على ضيم.. فقد دفعت بهم بعيدًا عن مبنى المخابرات الجويّة، ونقلوهم هذه المرّة إلى سجن نجهة!

في «نجهة»(*) وضعوهم لمدّة يومين في زنزانة واسعة، استطاع فيها أن يدرك تفاصيل النهار من خلال شبّاك مستطيل في أعلى الجدار، كانت الشمس تتسرّب منه تاركة إضاءة مصحوبة بكثافة ذرات تشبه ضبابًا دافئًا.. شيء أشبه بحبيبات الطلع في الربيع، تحملها نسمات باردة، لتلقح زهورًا غير مرئية.. أنعشه الضوء حدّ امتلاكه الأمل، ولم يفعل شيئًا طيلة النهار سوى مراقبة تلك البقعة الدافئة وهي تتحرّك في المكان منبئة عن حركة الزمن وجهة الشمس! قبل المغيب استقرّ المستطيل الضوئي بكثافته اللونية المبهرة على ظهر أحد المعتقلين العاري.. كان مشهدًا استثنائيًا.. لحظتها فقط تمنى لو امتلك كاميرا تصوّر المشهد بدقة.. اللون الأزرق لظهر المعتقل المموج بلون أحمر اسودّ قليلًا قرب الجراح المندملة أظهرته الشمس وكأنّه قوس قزح.. توهج، وتكوّر مع تمطّي الجسد، ثمّ تمدّد مع انحنائه، فصارت الحركة أشبه بجناحي طائر يستعد للطيران.. لم يحتج ليقين كي يدرك أنّ جسد المعتقل بإمكانه أن يغادر تمامًا مع انطفاء الشمس، وغيابها، وأنّه تسلّق الجدار، وخرج بخفة من المستطيل.. ليندمج في شمس ستعود عند الصباح لتربكه من جديد، وتؤكد له أنّ الزمن ما زال يتحرّك في الخارج.. وما زالت الحياة هناك موجودة!

(*) سجن نجهة في السيدة زينب، قرب المقابر. على أسفلت الشارع كتب اسم نجهة بخط كبير ليستدل الطيران على المكان.

لـم يكد نورس يصـل إلى نهاية قصته حتّى جاء السـجّان، وجرّه خـارج الزنزانة. مضـى يومان ولـم يعد.. وجـاء دوري لينقلوني إلى فرع المخابرات الجوية في المزة!

***

الضجيج الأبيض(*)

اليوم الأربعاء/ 28 كانون الأول 2011.

هل كان هذا اليوم استثنائيًّا بالنسبة لي؟ هو يوم اعتيادي كغيره، لكنّه أوّل يوم أقرّر فيه أن أخرج في مظاهرة، على الرغم من قناعتي السابقة أنّ دوري ليس في الشارع، وأنّي لا أستطيع المشي لأكثر من خمس دقائق! من قال إنّ لكلّ قاعدة استثناء؟ لقد حطمت القاعدة بوقوفي حوالي ساعتين في ساحة الحريّة.. في البداية كنت أراقب الناس كعادتي، ثمّ وجدتني رقمًا بينهم، ونسيت فضول الكتابة، واندمجت في حماسة الجماهير التي تريد إسقاط النظام. وخلال ساعة من الهتاف أيقنت أنّ الحريّة تجعل للمرء أجنحة، يحلّق بها في سماء الحلم.. فيغدو جسده خفيفًا لا يشعر بالألم، لا يمكن لأمراض الأرض كلّها أن تتغلّب على روح خنقها غبار العبودية، فاندفعت نحو السماء طلبًا للحريّة.

(*) هو مجموعة من الأصوات التي تجمع كافة الترددات التي يمكن للإنسان سماعها، يساعد على التركيز وراحة البال، والتخفيف من الصداع.

لـم يكد الرجـال الذيـن يقـودون المظاهـرة يطلبون من النسـاء مغـادرة السـاحة، حتّى وصل سـمعنا صـوت رصاص مـن الطرف الغربي. أسـرعنا الخطى.. صوت الدبابات يقترب، هديرها، صوت الجنازيـر الصدئـة، الدخـان الـذي تصاعد فـي الفضـاء.. كلّ ذلك سـرّع دقات القلب، وأنا أحاول أن أجتاز شارع الأربعين، وأنعطف يسـارًا صوب البازار.. الدبابات كانت تصعد أيضًا من صوب ساحة البازار! وبدأت القذائف تهز الشارع والأبنية.

تعثـرت أكثر من مرّة قبل أن أصل مدخل جامع الفتح الخارجي، وأقـف وراء البـاب، أنتظر مرور الدبابـات وصعودها صوب حاجز التل!

الدبابات القادمة من الغرب والشـرق لـم تغادر الشـارع.. وقلبي يرتجف خوفًا!

أكثـر من سـاعة بقيت محاصـرة في مدخل الجامـع، حتّى ارتفع أذان المغـرب مرسلًا في قلبي طمأنينة إلى سـير الحياة العادي على الرغم من كلّ شيء!

مـع حلـول العتمـة غـادرتْ الدبابـات الشـارع، وهـدأ صـوت الرصـاص. عبـرتُ السـاحة إلى «زقاق بيـت عبد الكريـم». الظلام دامـس فـي الأزقـة القديمة. لمحـت «الدومـري» يخرج مـن عباءة حكايـة قديمة حاملًا سـلّمه على كتفه، يخبّ علـى الدرب الصاعد

نحـو «قرنة حناتـو»(*)، ليمـلأ القناديل بالكاز! ابتسـمت للمشـهد، فـي أيّ عصر نحـن؟ هاهم الناس يعبـرون الأزقـة وبأيديهم قناديل عتّقـت إيقـاع الزمـن، فعـاد قرنًـا إلـى الـوراء.. لا كهربـاء، لا ماء، لا غـاز، لا مازوت! بالضبط الأحياء تبدو كما كانت على أيام جدي رحمه الله في أوائل القرن العشرين أيام الاحتلال الفرنسي لسوريا. النـاس عادت لاسـتخدام مدافئ الحطـب، وتعبئة المـاء عن طريق الآبار، والغسـيل على اليـد.. والطبخ على نار «الأثفيـة» منظر رأيته علـى قناة المشـرق! ثوار الجبل في البيـوت الطينية يطهون طعامهم على نار التفية! كنت في صغري أراها مهملة في غرفة القبو في بيت جـدي، كانت نظيفـة، وحيطانها مطلية بالكلس، تسـتخدمها جدتي كمسـتودع للأشياء التي لا تصلح للاسـتعمال. كثيرًا ما صوّرت لي مخيلتـي أنّها تحـوي العديد من الأشـياء الثمينة، فكنـت أدلف إلى القبو، وأبقى هناك ساعات طويلة بين أكياس الزبيب واللوز والجوز والتيـن اليابـس، وجـرار الزيـت والزيتـون، والجبنـة الغارقـة بمياه الملـح.. المنظر لا يبـرح ذاكرتي، أراه الآن بوضـوح، الدود الناعم وطبقـة العفن فوق سـطح مـاء الجبنـة المالـح! أوراق العنب بطبقة خفيفة من الحبيبات البيضاء تعلو سطح الماء المالح، وطرمبة الماء!

(*) قرنة حناتو: زاوية حارة في القسم الجنوبي من أريحا، منسوبة لدكان الحاج نعمان حناتو الذي جاء ذكره في روايتي جبل السماق، الجزء الأول «سوق الحدادين».

في المستودع المطلي بالكلس كانت جدتي تضع قناديل من دون بلورات، مفاتيح قديمة من الحجم العائلي، مصابيح يدوية وأقفالًا صدئة، صحونًا نحاسية، أباريق، غضارة لصنع الكبة، هونًا نحاسيًّا ثقيلًا، ضرفًا، وأشياء لم أكن أعرف لأيّ شيء كانت تستخدم!

ولأنّ الكهرباء انقطعت حين وصولي للبيت، وشحن اللاب توب انتهى، اضطررت لإشعال القنديل، والكتابة على ورق.

*****

«ماما حُوّل نورس إلى المحكمة في إدلب مع كلّ معتقلي المحافظة، أرجو أن توكلي محاميًا للدفاع عنه ومتابعة قضيته». قال كلماته على عجل، واعتذر بأنّ لديه عملًا، وسيغلق هاتفه!

اتصلت بالمحامي، فاعتذر لأنّه مشغول بتشييع شهيد من أقاربه، ووعدني بمتابعة القضية في الغد عند المحامي العام.

في اليوم التالي اتصل بي ليقول بأنّه لا يوجد معتقل بهذا الاسم بين المحتجزين في إدلب! وأنّ الباص الذي جاء أوّل البارحة فُجّر على الطريق قرب المسطومة!

لم ألتقِ بنورس سوى مرّة واحدة.. كان لقاءً سريعًا، شربنا قهوة، وتحدّثنا حول مستقبل سوريا بعد الثورة.. كان متفائلًا جدًّا، وإن بدا أقل حماسًا من نور وأكثر حذرًا وريبة ممن يدّعون معارضة النظام

وهـم بالحقيقة أتباع له. ترك نورس في نفسـي أثرًا عميقًا، ليس لأنّه صديق ابني، بل لكونه يحمل فكرًا تنويريًّا استغربت أن يحمله جيلٌ كنّـا ننظـر إليه باسـتخفاف، ونظنّ أنّه جيـل مائع لا يعنيـه من الحياة سوى القشور والمظاهر!

نـورس.. دقات قلبـي العنيفة اضطرتني إلـى الجلوس ومحاولة تهدئة نفسي.. ماذا سأقول لنور؟ كيف سأخبره بالأمر؟

أرّقني الخبر، لن أسـتطيع نقله إلى ابنـي، ذلك فوق طاقتي، ولن أستطيع الكذب عليه.. ماذا سأفعل؟!

*****

فـي محاولة للتغلب على الخوف واكتشـاف كـم الرهاب الذي أعانيه مذ كنت طفلة وحتّى هذه اللحظة نزلت إلى الشارع. أوّل شيء شـجّعني ذلك الضجيج الذي يحمل ملامح طفولة بعيدة، حيث كنّا نحمل التنكات ونقرعها ونحن نسـير وراء مواكب الحجاج، ووراء المجانيـن فـي البلـدة، أو نختـرع مناسـباتنا الصغيـرة البريئـة إن لم نجد مناسـبة للسـير في البراري قاطعين الدّرب التّرابي المؤدي إلى الشـارع الرئيس الذي يقسـم البلدة إلى قسـمين، غربي يسكنه أكابر البلدة، وشـرقي فيه الحارات القديمة حيـث بيت جدي القريب من الحمّام الوسطانية.

أهـل أمّي لـم يتبقَّ منهـم أحد هنـا.. تقريبًـا كلّهم تركـوا البلدة، وسـكنوا في حلب. كان بيت العائلة الكبير مصيفًا، يأتونه في موسم الكـرز، فيغـصّ بالأبنـاء والأحفـاد والضجيج، وننحشـر فـي غرفه وسـطوحه وأرض الديـار، ننام بطريقة عشـوائية محببة تحت دوالي البيـت التي تتدلّـى عناقيدها الخمرية اللون كأنّهـا ثريات في الليالي المقمـرة، لا أنسـى طعمه الخـاص، وأحنّ إلى حبّاتـه المغبرّة حتّى هذه اللحظة!

لم أشعر بالوحدة طيلة الطريق إلى المقبرة.. كانت المرّة الأولى التي أنزل فيها ليلًا إلى الجبّانة، لم يكن السـبب فقط أنّ الاتصالات المقطوعة عن البلدة منذ شهرين مع الإنترنت متاحة في المقبرة، بل أيضـا كنت أبحـث عن مواجهة حقيقية مع الخـوف بعد أن تخطيت أوّل مرحلة له بالنزول إلى الشارع والتظاهر طلبًا للحريّة.

كان قلبي يرتجف وأنا أصل منعطف المنطقة الصناعية، وأنحدر فـي الطريق المباشـر المـؤدي للمقبرة.. الضجيج مـن حولي يرتفع معانقًـا الفضـاء الرحـب في ليـل ندي بـارد إلى درجـة لا تحتمل.. قلت لنفسـي: «هو البرد». وضعت يدي في جيب المعطف، وبقيت الأخرى مقيدة بمحفظة اللاب توب.

تجنبـت المـرور قـرب غرفـة حـارس المقبـرة التي ينـوس فيها ضـوء لمبة كاز، ويتصاعد دخان الحطب من نافذتها المواربة. كنت

أخشى أن أتعثر بالشواهد المرمية أرضًا بانتظار انتهاء النحّات منها، وبانتظار ضيف جديد!

اقتربت من أوّل القبور، وسرت في الطريق المسفلت تجنبًا للوحشة التي بدأت تنخر روحي. ارتفع صوت الضجيج - أبواق سيارات، قرع بأدوات نحاسية، طبول، تصفيق، وصراخ - مجنبًا أذنيّ سماع ضربات قلبي العنيفة وأنا أعبر بين القبور، حتّى وصلت قبر أمّي وأخي. جلست على المقعد الخشبي أمامهما.. تخايل لي أنّ وراء شجرة التين الكبيرة - في المساحة التي تفصلها عن شجرة الزيتون التي تظلّل قبر أخي - نورًا خفيفًا صدر عن مصباح يدوي خفيف الإضاءة. تماسكت، وفتحت الكمبيوتر.. دخلت صفحتي على الفيس بوك.. وبدأت الكتابة...

كنت غارقة تمامًا في ضجيج أبيض تصدره روحي وأنا أكتب تعليقات على ما كتبه أصدقائي، حين فوجئت بضوء ساطع أنار المقبرة من حولي، وأجبرني على إغماض عينيّ. لم أنتبه مباشرة أنّ الضوء كان صادرًا عن ألعاب نارية أطلقت من مكان قريب جدًّا داخل الجبّانة، وحين استطعت تحديد المصدر، كانت أقدامٌ تسير بحذر على الدّرب المسفلت الذي يقسم المقبرة إلى قسمين، القديمة الغاصة بشجر السرو الذي يحجب السماء لكثافته، والجديدة التي تنوعت أشجارها وورودها حتّى لتظن عندما تدخل من أوّل

الدرب أنّك تسير في حديقة! أنصتّ جيدًا لصوت الأقدام الحذرة، واستطعت التقاط أصوات تتكلّم في الهاتف، على الرغم من شدّة الضجيج الذي يسود البلدة، فهمت منه أنّ شخصًا ما يتحدّث إلى إحدى الفضائيات! كدت أضحك لولا أنّي انكمشت بسرعة لأنّ عينيّ ما زالتا تحدّقان في شاهد قبر أخي! أحسست بغصة، مسحتُ دمعًا باغتني.. ونشجت بصمت.. أغلقتُ الكمبيوتر، ونهضت، فقد انتهت ساعة الضجيج، وستبتعد الأقدام، وسيذهب الناس إلى بيوتهم.. ولن أستطيع حينها السيطرة على ضربات قلبي الخائفة! لم أجرؤ على الاقتراب من قبر الشهيد محمّد لأقرأ له الفاتحة.. قرأتها وأنا أعبر بين القبور، وأتّجه صوب الشارع الصاعد إلى المدينة. لم يكن غباءً مطلقًا منهم أن وضعوا برجًا للتغطية قرب الجبّانة، فقد اضطروا لذلك لأنّ الحاجز الرئيس لهم في مدخل البلدة تصادف وجوده على بداية الأوتستراد الموازي للمقبرة!

*****

انطلقوا من جامع الفتح وانعطفوا جنوبًا في شارع الأربعين.. كانت عيون السماء مفتوحة حتّى آخرها، تَجْلدُ المتظاهرين بسياطها.. ثيابٌ سوداء تنسجم مع الطقس الرمادي البارد.. مظلاتٌ فاحمة كبقايا جمر أُضيع بصيصه، تقي بعض الرؤوس غضبة السماء... عند قرنة الحائك حيث تشتدّ الرّيح، وتدوّم بعنف. كانت

السيول على أشدّها تغمر الأقدام، وتدفع الأجساد إلى الخلف. الريح والمطر والسيل مندفع من الطريق الجبلي، والمتظاهرون يتقدّمون بإصرار ترافقهم سيارة المراقبين العرب! عند المفرق المتفرع عن الشارع الرئيس المؤدي إلى قرية نحلة، كان الحاجز الأمني بعتاده الكامل في انتظارهم!

لم أدرك للوهلة الأولى أنّ ما أسمعه هو صوت الرصاص، تهيّأ لي أنّ السماء أصرت على إرهابنا بإرسالها صواعق تثنينا فيها عن التقدّم، وترغمنا على العودة إلى بيوتنا، لنتقي شرّ هذا الطقس السيئ.. لكنّ ما أدركته حين رأيت سيارة المراقبين تستدير بسرعة لتدخل طريقًا فرعيًا هربًا من الرصاص كان أشدّ إيلامًا من هبوط صاعقة، أو حدوث زلزال! المتظاهرون لحقوا بالسيارة، الأمن انتشر خلال دقائق على طول الشارع، والقذائف طالت السماء والشجر والبشر وكلّ ما يتحرّك.. حتّى انشطرت حبّات الماء، وانفجرت، وتشظت، وتحوّلت إلى بركان مائي وصل السماء بالأرض، ولم يعد بالإمكان رؤية ما يجري على بعد أمتار! تخيّلت أنّ المتظاهرين حملوا الجرحى، وفروا إلى بيوتهم.. أقفلت هاتفي الجوال، لم يعد بإمكاني تصوير المشهد.. تابعت طريقي، وقد علقت دمعة في العين مسحها المطر بسرعة، وغسل وجهي بماء صافٍ ولفحته الريح ببرد قارس نخر صدري، وأشاع فيه فوضى السعال.

اختصرت الطريق بعبوري المساحة الترابية خلف مدرسة هنانو، لأصل جامع الفتح. وجدتُ المتظاهرين هناك وقد تجمّعوا ثانية، وراحوا يكبّرون، وهم يقودون أمامهم سيارة الجامعة العربية! ويصيحون بمكبرات الصوت أنّ التجمع سيكون عند مستشفى المجني.

ضرب قلبي بعنف وأنا أسرع الخطا لاعتقادي أنّ النداء يخص الجرحى، لكن عندما وصلت رأيت الناس وقد تجمّعوا هناك واستضافوا بعثة المراقبين داخل المستشفى.

عدت إلى البيت وملابسي تقطر مياه المطر.. عصرتها، ونشرتها. نظرتُ إليّ، حدّقتُ في روحي التي لم تبتل بماء المطر منذ ثلاثين عامًا، حين كنت أفتح ذراعيّ له كي يخترق عظامي.. ولا يهم بعدها إن أسلمني للفراش والمرض! كم مرّ من العمر وأنا أعاني من التصحر! كنت في تلك الليلة بحاجة إلى شيء يوازي بلل المطر في إيقاظه لحواسي، لم يستطع الشاي السخن منحي إياه، كما لم يستطع الكتاب الذي أقرؤه، فجاء صوته عبر الهاتف ليشعرني بتلك الخفة التي لا ترفع الروح وحدها إلى عالم آخر.. بل الجسد أيضًا!

*****

طيلة الطريق إلى حلب، كنت أتخيّل أنّي سأعود بخبر سعيد أبشّر به ابني. لم تكن رحلة شاقة بالمعنى الحرفي، فقد رافقني المحامي

إلى القصر العدلي قرب القلعة، وأخبرني عن استبدال النائب العام المتعاطف مع المعتقلين بآخر متشدد لا يعطي إذن زيارة لأحد، وأنّه يفضّل لو ادّعيت أنّي قريبته، وبمثابة أمّه!

استطعت الحصول على الإذن من النائب العام، ووصلت سجن المسلمية قبل موعد انتهاء الزيارة بساعة ونصف. ولحسن حظي كان اليوم الأربعاء، وهو يوم زيارة المعتقلين السياسيين. المسافة الطويلة التي مشيتها، وإرباك الدخول من متاهة القضبان الحديدية التي تطبق على الروح قبل الجسد، والتفتيش الشخصي الدقيق، وساحة السجن الواسعة التي قطعتها بصعوبة، كلّ ذلك لا يساوي شيئًا أمام الردّ البارد الذي فاجأني به السجّان المكلّف بالحراسة داخل غرفة صغيرة على يمين الشبك الذي يقف خلفه المعتقلون: «لا يوجد أحد بهذا الاسم». كدت أنهار أرضًا من التعب والخيبة.. طلبت منه مراجعة القائمة ثانية، نظر في وجهي بلا مبالاة وقال: «لا داعي، قلت لك لا يوجد أحد بهذا الاسم عندنا».. غلبني الدمع، كان عليّ أن أرجع إلى البلد محمّلة بخيبتي، وأتصل بنور لأخبره أنّ نورس ضاع في مكان ما، ولم يحوّل إلى سجن المسلمية كما أخبره المحامي الذي يتابع قضيته!

لفحني الهواء البارد في الساحة، وأدمع عينيّ، حدّقت في الغيوم السوداء التي سدّت الأفق.. وقرّرت العودة إلى الداخل.. اعتذرتُ

من امرأة تتحدّث إلى ابنها من خلف الشبك، وطلبت منها أن تسأله إن كان يعرف نورس. الشاب خلف الشبك سألني «من أين هو؟». قلت: «من إدلب».. قال: «انتظري يا خالتي معنا شخص من إدلب سآتيك به، ربما يعرفه». لم يغب طويلًا، عاد ومعه رجل في الأربعين، متوسط القامة، لحيته تغطي معظم وجهه، وطاقيته الصوفية تحجب جبينه. سألني عن تفاصيل اعتقاله، وحين أخبرته، نفى أن يكون هناك شخص بهذا الاسم في المهاجع كلّها. وابتعد خطوات، ثمّ عاد ثانية ليقول: «انتظري يا خالة، سأسأل عنه في الأمانات إن كان هناك، سأدخل مكانه، وأرسله إليك». لم أفهم ماذا قصد بـ«الأمانات»، ولم أفهم لماذا عليه أن يكون مكانه! خمس دقائق مرّت عليّ وكأنها ساعات، أطل بعدها شاب طويل القامة واللحية، يرتدي دشداشة بيضاء قصيرة، ويسحب بيده شابًّا ضئيل الجسد حليق الرأس، لم أتعرّف عليه. وقف أمامي، وقال: «هذا هو يا خالة؟». لدهشتي وأنا أتأمل ملامح نورس لم أجب مباشرة، بلعتُ غصتي وهو يسعل بشدّة، ويضغط صدره بأصابعه النحيلة. أعاد الشاب الطويل القوي البنية سؤاله بطريقة أخرى: «ليس هو؟». قلت: «نعم.. هو.. ألف شكر لك». تركه من يده، وابتعد عنا. كنت متلهفة لسماع صوته ومعرفة أخباره.. تأملته طويلًا وهو يحكي لي كيف جاء إلى هنا، يقطع حديثه السعال ورجفة اليدين، ورعشة البرد..

لـم ينبهنـي الرصاص إلـى أنّنا وصلنـا حدود سـراقب، بل تلك الروائـح المعتقـة بنسـيم جبل الزاوية. مـن قال إنّ الريـح لا يمكنها اختـراق الجـدران الحديدية لسـيارة فان مغلقة! بضع دقائق اسـتمرّ الاشـتباك بيـن حراس سـيارتنا ومسـلّحين في الخـارج، وربّما كان اشـتباكًا بيـن آخريـن ولا علاقة لحرّاسـنا به، فالحقيقـة لا يمكن أن تصـل آذاننا داخل الصنـدوق الحديدي المحايـد بوقوفه على حافة الطريـق الدولي قرب قريتي الصغيرة الواقعة بالمصادفة على يسـار القلـب! لم نسـتطع إدراك ما حدث، ابتعد صـوت الرصاص فجأة، وتابعت السيارة طريقها إلى حلب.

لم نسـلك الطريق المعتاد نفسـه الذي كنّا نقطعـه لنصل حلب. سـلكنا طريقًا آخر. طريقٌ طويل يعبر قـرى ومدنًا لا أعرفها، ويقطع مسـافات قاحلة لا يوجد فيها سـوى الريح والبـرد وأطياف لمواشٍ كأنّها أشباح تعبر جانبي الطريق بحثًا عن مرعى! كنت أراه من خلال مربع صغير جدًّا أشـبه بذلك المربع الذي أراه من خلال سـلويت(*) الفيلم. المربعات المتلاحقة التي أرى فيها تقاطيع الفيلم هي نفسها مربـع البـاص الـذي يمـرُّ منه شـريط الطريـق من دمشـق إلى حلب مـرورًا بسـجن «البالونة» بحمص. كلّ المسـاحات التـي مررت بها من منفردات المعتقلات لمنفردة باص نقل المسـاجين تحاصرني،

(*) الشريط الخام.

وكأنّه كتب عليّ أن أبقى ضمن مربع صغير يقيّدني كي أبقى سجينًا ضمن إطارات تشبه إطارات الشريط السينمائي الخام، أو المربع الذي اتّخذته ليكون شكل الإطارات الفيلمية بفيلمي ليدل على التقييد والتحديد.. لقد عشت عمق الحالة في فيلمي الذي أوصلني إلى أن أعيش الحالة كواقع لا كتصور.. يبدو أنّه من المفيد أن نحوّل المخيّلة إلى واقع أحيانًا بدل تحويل الواقع إلى مخيّلة! كي نلمس بأحاسيسنا كلّها الفرق بين قسوة التجربة، ورفاهية المخيّلة. وهكذا وجدت نفسي محبوسًا في فلسفة الفيلم «مربعات داخل مربعات» تفضي إلى سجن حقيقي داخل ألوان وذاكرة وأصوات! تكرارٌ للكلمات للتأكيد على خصوصية الحالة الصورية. آخذ لقطة عامة لأحدّد الزمان والمكان، وأقرّبها لأؤكد على الحدث. مربع أضيق.. أضيق.. يكاد يطبق على عنقي.. لكنّه في الوقت ذاته ينفتح على مشهد طريق أخضر.. طريق طويل. الكثير من الأشياء الدخيلة على اللقطة القريبة التي لم أضعها في تصوري للمشهد بل دخلته عنوة.. الدبابات.. الحواجز.. الوحشية في الوجوه.. رأيتها بوضوح. كانت لقطة الفيلم قريبة جدًّا.. وجوه هؤلاء المتمترسين وراء الحواجز التي مررنا بها.. في تلك اللحظة كرهت نفسي، كرهت كوني سوريًّا. صدمني سؤال الهوية الذي كثيرًا ما حاصرني في الفترة الأخيرة.. «من أنت؟ ما الذي يعنيه الوطن لك؟». المربع الصغير في باص

المنفردات لا يذكّرني سوى بالقيد الذي يفرضه الواقع عليّ.. وكي أخفف من وقع العنف الذي يمارسه الواقع على روحي وعقلي، صرت أنظر إلى الجانب الجمالي لتلك الحالة التي أعيشها.. المربع هو إطار لصورة تحوم بي بعيدًا كعين الله على الأرض.. أدخل شريط السينما، أرى الواقع كما أتمنّاه.. مربع صغير يريني العالم، يأخذني في رحلة لاكتشاف الوطن، بعد كلّ ذلك الزمن لم أكن أشعر بالانتماء إليه أو امتلاكي هوية خاصة.

طيلة فترة الثورة اجتاحتني رغبة شديدة بالعودة إلى منزلي، إلى قريتي، للجلوس تحت شجرة السرو التي احتوت ذاكرة طفولتي.. إلّا أنّ ملايين المسافات الزمنية والنفسية تظهر لتحجب عني رغبة العودة. كنت أفهم حلم العودة لدى المبعدين عن أوطانهم، لكنّي لم أشعر به بهذا العمق لأنّي لم أجرّبه من قبل. فرقٌ كبير بين أن تكون خلف الكاميرا لتصوّر ما تتعاطف معه، أو أمامها لتمنحها ما تعيشه!

وصلت سجن حلب بعد أن مرّت أمامي ألوان الوطن، الذي بدأتُ أشعر بانتمائي لكلّ ذرة تراب فيه.. فأنا الآن منه وإليه. السلاسل التي أجرّها بقدميّ، والقيد في معصمي، وحقائبي الثلاث كأنّها لعنات الدّنيا الّتي أحملها بين كتفيّ «سلطة ودين وقوانين»، ليست فقط كتبي وأقراص الـ«دي في دي» التي تحوي أهم أفلام السينما التي جمعتها على مدى سبع سنوات.

الـدرج النـازل إلـى عمـق الأرض يسـحب الحلـم إلـى خلفيـة الصورة حدّ التلاشـي، خمس عشـرة درجة - وربّمـا أكثر - وصرنا فـي مواجهـة الطبيب الذي كان يفحص المسـاجين فحصًا سـريعًا، ويسجّل ملاحظاته بلا مبالاة.. مجرد روتين لا طعم له.. تقدّم أقربنا إليه، فحص شعره، وجسده، وسأله بحياد:

- تهمتك؟ ومكان اعتقالك؟

- كنت معتقلًا في فيلا.

ساد صمت واستغراب من الجميع، نظر الطبيب في عيني الشاب مكذبًا. لكنّ الشاب تابع بحرقة:

- لمـاذا تسـتغرب؟ ولمـاذا تنظـر هكذا إلـى آثـار التعذيب على جسـدي؟ ألا تـرى أصابعـي المقطوعـة؟ قطعوها فقـط لأنّي قلت لهـم: «لا أعرف شـيئًا». كان يجب أن أعرف، ولأنّـي نفيت، قطعوا أصابعي.. أنت تستهين بكلمة «لا أعرف»؟ هم يكرهونها.. هم...

صاح به الطبيب:

- خلص.. اسكت.. أنت ما زلت في السجن! اللي بعده.

تقدّم شاب آخر، وهمس بإعياء:

- كنت في الأمن الجوي.

تساءل الطبيب:

ـ تقصد الأمن الجوي بساحة الأمويين.. آمرية الطيران؟

ردّ المعتقل:

ـ لا ، آمرية الطيران شو؟ كنت في المدبح، في المخابرات الجوية بالمزة.. تهمتي تشييع.. كنت في تشييع طفل من حارتنا.. وأصلي إدلبي.. حدّاد على باب الله، بس ابن بلد.. بعجبك.. عند بتحق الحقيقة بكون بأوّل صف.. وحوّلوني لحلب لأنّهم فجّروا باص المعتقلين اللي سافروا قبلنا لإدلب، ما سمعت فيه؟ الظاهر ما سمعت...

قال الطبيب بضيق:

ـ يكفي.. اللي بعده.

تقدّم شاب أشبه بالجثة، لم يكن الصوت الجهوري الثابت الذي خرج من حلقه يتناسب مع جسده الضئيل النحيل المتهافت، وكأنّه عود قمح سينقصف من شدّة جفافه، قال بثبات:

ـ الأمن الجوي، بحرستا.

قال الطبيب بذهول حقيقي:

ـ ولسّاك عايش؟ وكيف طلعت منه؟ الحمد لله على السلامة، انكتب لك عمر جديد! اللي بعدو.

لم أرَ وجه المعتقل، لكني شعرت بكم السخرية المرة التي تكلّم بها.

ـ فرع فلسطين، تهمتي إرهابي سلفي.. جرّبت كلّ شيء.. الكرسي الألماني، الشبح، الدولاب، بساط الريح، لا تسألني «في مشاكل بظهرك؟».. اسألني إذا في مشكلة ليست موجودة في جسدي.. ولا تكتب شيء يرضى عليك.. يعرفون كلّ شيء، يعني لا داعي للتقرير.

تمرُّ أسماء الأماكن بسرعة.. أماكن اعتقال غريبة لم أسمع بها من قبل «السفارة الإيرانية، السفارة الروسية، الفرقة الرابعة، الملعب البلدي! مدرسة ابتدائية، بالباخرة... يا إلهي!». الشاب الذي أمامي ابن العشرين عامًا والذي كاد يقع أرضًا ريثما وصل الدور إليه، كان سجينًا في باخرة! كنت أعتقد أنّ الأمر مجرد إشاعة.. لكنّ الشاب تحدّث بمرارة عن رفاقه الذين أرسلوا إلى إيران.. لكنّ الطبيب قال له: «إنّهم يخوفونكم فقط، لا أظن أنّ الأمر حقيقة». الشاب كان مصرًّا أنّه سمعهم، وأنّهم لا يتّبعون أسلوب الترهيب، بل يعملون ما يريدون، لكنّ الطبيب صرفه بسرعة، وكأنّه يتخلّص من تهمة ستوجه إليه، معلنًا أنّه مجرد سجين مثله، ولا يحقّ له مناقشة أحد المعتقلين، ونادى على التالي. لم أنتبه أنّه دوري حتى وجّه إليّ الكلام:

ـ وأنت؟ اسمك وتهمتك ومكان اعتقالك.

اسمي! تهمتي! ومكان اعتقالي! غريب حقًّا.. كنت أظنّ قبل سماعي لرفاق الرحلة أنّه لم يبقَ مكان لم أزره.. «الأمن الجوي في

القصاع، أمن الدولة بالخطيب، المخابرات العامة، الفرقة الرابعة، سجن عدرا، سجن حمص.. نجهة» تساءل الطبيب عن «نجهة» لم يسمع بها من قبل.. لم يعرف أنّ هناك مقبرة اسمها نجهة لتدريب أمن الدولة، لم يعرف أنّ هناك معتقلات سرية في دمشق غير التي يعرفها العامة من الناس.. لكنّ عملي وتهمتي هما الأغرب بالنسبة إليه.. «لستَ سلفيًّا! ولم تؤخذ من مظاهرة! فيلم! تهمتك فيلم!».

لعلّه بعد الكشف على جسدي فهم معنى أن يكون الإنسان مخرجًا سينمائيًّا، وأن يعتقل بتهمة صناعة فيلم عن الديكتاتورية!

كنت أتأمل نوافذ الجدران العالية باستمرار، النوافذ بوابة الحريّة، والجدران سُلّم الوصول، وسبورة اختطفها الكبار من ذاكرة طفولتهم، فأعادوا إليها الوهج بتسطير أحلامهم وتطلعاتهم عليها. تمنيت لو أحصل الآن على «بخاخ» يساعدني على رسم حلم صغير، أتأرجح من خلاله خارج النافذة، وأتدحرج في الحقول بعيدًا عن نظرات السجناء الذين يحدّقون بي بفضول، وهم يمسدون لحاهم الطويلة! الإنهاك الذي طحن جسدي منعني من مبادلتهم تلك النظرات، أو الردّ عليها بالزجر. بقيت عيناي معلّقتين بالنوافذ حتّى بعد اضطجاعي فوق حقائبي التماسًا لبعض الراحة! سألني زميلي المستلقي بجانبي، ونحن نتأمل قطرات الماء المتساقطة من مواسير مجاري مراحيض طوابق السجن فوقنا،

والتي شـكّلت لوحة من زوايا متقاطعة لا بداية لها ولا نهاية.. الدقة التي رسَـمتْ بها المياه تلك الأشـكال توحي بيد خفية ساهمت في صناعة حروف متداخلة تحاكي على نحو غريب النقوش الدمشـقية على خشـب البيـوت العتيقة! قد تكـون عيناي اللتـان تتحوّلان إلى كاميرا في لحظات هي من شـكّل المشـهد، وقد يكون الأمر حقيقة عارية لا تحتاج لعين فنان، بل يلتقطها أيّ مشـاهد عادي لتلك البقع المتشـابكة.. سؤال هزّني به زميل السجن المستلقي بجانبي، وأبعد نظراتي عن السقف:

ـ هل سـتنتقم من الذين ضربوك وسـجنوك، ومـن الذين أخبروا السلطات عنك؟

سقطت قطرة ماء على جبيني، فاجأتني كرصاصة، رجّت رأسي، لأعيد صياغة السؤال بيني وبين نفسي «هل الانتقام حقٌّ مشروع من حقوق الإنسان؟ هل هو فعل إنساني أم صبغة حيوانية بدائية؟».

كان أبي يعلّق على أسـئلتي بالصمت، وكأنّه يطلب مني الاكتفاء بطرح الأسئلة فهي بحدّ ذاتها إجابات حقيقية لما يجري على أرض الواقـع، فالإنسـان القـادر على اسـتنتاج سـؤال من عمـق واقعه هو بحدّ ذاته أمرٌ عظيم، يشـبه إلى حدّ ما اكتشـاف عالـم لقضية علمية أو فلسفية عن طريق طرح أسئلة حول ماهية الكون والأشياء من حوله! هـذا مـا اعتقدته في ذلك الوقت، ولم أشـكّ أبـدًا أنّ الصمت دلالة

عجز عن إيجاد إجابة شـافية، أو عدم رغبة في إشباع فضولي بسبب اعتقاد شائع لدى الكبار بأنّ الصغار يطلقون أسئلتهم من دون وعي، أو لمجرد فضول آني سينتهي في اللحظة ذاتها التي ينطقون فيها...

قطـع حديثـه عودة الشـاب الملتحـي، قال بـودّ: «خالتـي تعالي إلى شـبّاك غرفة الحارس، تسـتطيعين من هناك التحدّث معه بشكل أفضـل». وجـرَّ نـورس قبـل أن يسـمع جوابـي.. سـرت خطوات، وصرت مقابل شـبّاك صغير.. تنحّى الحارس جانبًا، وأفسح المكان لنـورس، الذي دفعه الشـاب برفق ليصبح أمامي، وقـال له: «قبّل يد أمّك، وخذ رضاها». أضحكني الموقف، فقد شعر نورس بالحرج، ولم يكن يستطيع نفي كوني أمّه ولا الامتناع عن تقبيل يدي، فبادرت بمسح رأسه بسـرعة، وقلت للشاب: «لا حاجة لذلك أنا راضية عنه دنيا وآخرة!».

*****

هـذه الليلة طغى الخوف على كلّ شـعور آخر.. أهو الخوف من الموت الذي كشّـر عن أنيابه بأبشـع صورة؟ لا أسـتطيع أن أجزم.. دقـات قلبـي تـكاد تتوقف.. أنـدس تحت أغطيـة الفـراش محاذرة البقعـة المبلّلة حيث اندلق كيس الماء السـاخن حيلتي للتدفئة. هذه الليلة جاءت على عكس توقعاتي، فقد وضعت كيس الماء الساخن في الفراش كالعادة قبل أن أنام بساعات، وحين دخلت تحت الغطاء

اكتشفت أنّ الكيس فارغ والماء قد تسرّب إلى الفراش! وقتها ارتفع صوت المآذن بالتكبير! ما أعرفه أنّهم قبل صلاة الفجر يقرؤون بصوت هامس سورًا من القرآن أو دعاء، ثمّ يرتفع صوت الأذان! خلال لحظات ردّ الجنود من الحواجز بإطلاق قذائف المدفعية!

القذائف التي تمطر البلد لم تُسكت الشباب الذين بدأوا بالتكبير من جميع مساجد البلدة تضامنًا مع حمص التي كانت تقصف في ذلك التوقيت! بل خرج الشباب بعد انتهاء صلاة الفجر إلى الشوارع، وغطّت أصواتهم على أصوات المدافع والرصاص.. كنت أرتجف في فراشي وأنا أسمع صوت القذيفة ورد الشباب بالتكبير.. لم يقشعرّ جسدي خوفًا من صوت الرصاص، بل رهبة من أصوات التكبير! لم أكن أعرف قبل هذه اللحظة أنّ للتكبير هذه القوة في إثارة الفزع، هزّ وجداني بالقوة نفسها التي ردّت المدفعية فيها بقصف عنيف على أصوات الهتاف. «الله أكبر» رفعت وتيرة القصف مما يدلّ على أنّ الجنود قد فقدوا أعصابهم، كانوا يريدون إسكات أصوات التكبير بأيّ طريقة حتّى لو اضطروا لتدمير البلد فوق رؤوس أهلها.. الأصوات تنبئ عن حرب طاحنة من طرف واحد! حرب على الكلمة، الصوت، الناس العزل!

عندما لاح الصباح تلاشت الأصوات، وخف القصف.. غفوت وأنا أردد: «جايين نخطب بنتكم يا عمّار العمّارة»، ويردّ صوتٌ من

الطفولة البعيدة «ما منعطيكم هيّ إلا بألف ومية، وإلا بدق الألماس دوّار الصينية». فأقول: «منفوت على داركم ومنكسر أبوابكم والشمع دوّاركم، وهاي عروستنا هي»!! ويا حريّة يا حريّة هي عروستنا هي...

في طفولتنا كنا نخطف العروس غصبًا عن الفريق الآخر.. ونبقى هكذا نتقدّم، ونتراجع في صفين متقابلين، يخطف أحد الفريقين عرائس من الفريق الآخر حتّى ينتصر بقوة العدد!

كانوا بين أخذ ورد، من سيخطف من؟ ومن سيقبض على من؟ ولمن ستكون الغلبة؟

إنّها ليلة الأربعاء الثامن من شباط 2012.. استمرت ندائف الثلج بالهطول حتّى المساء وقطعت الطرقات، مما جعلني أؤجل سفري إلى دمشق للقاء نور!

مساء السبت.. كنتُ أحضر نفسي للسفر صباح اليوم التالي حين رأيت ما كتبه حنظلة على صفحتنا المشتركة: «صديقي الذي رافقني في جسر الشغور، وحماة، وحمص، ودمشق.. تركني إلى أجل، وترك لي طريقًا قابلًا للانفجار بمن يسلكه في أيّ لحظة. لكنّي سأسير فيه، لن أخيّب ظنّه.. صديقي الذي خاطر بحياته مرارًا ليكون دليلي إلى الحقيقة. ترك لي مهمة البحث عنها.. لكن.. إلى أجل!».

***

الداكونة

ليس غريبًا أن أشعر أنّي لم أغادرها بعد منذ كنت هنا في الربيع الماضي.. الغرفة الضيقة نفسها، الجدران البيضاء المائلة إلى الرمادي لكثرة ما تراكم عليها من دخان، السرير، تفاصيل صغيرة متشابهة في كلّ فنادق العالم تقريبًا، لكنّها هنا تعني لي ألفة غير محدودة...

صديقتي صباح أوّل من قابلتهم بعد وصولي دمشق.. جاءت إلى الفندق بعد وصولي بساعة.. كنّا نخطط لهذا اللقاء منذ أشهر، لكنّه جاء في ظرف حالك لكلينا.. لم نكن في حالة صفاء نفسي، مع هذا تبادلنا البوح حتّى طلع الصباح، وغلبنا النوم.. صباح نفضت عن روحها كلّ الغبار الذي تراكم خلال سنوات التصحر التي عاشتها وحيدة على الرغم من كونها متزوجة. قالت:

الآن أتخيّل الكم الهائل من الخيبات والانكسارات والدموع والقلق.. الساعات والأيام التي عشناها معًا تحت سقف واحد.. تذهلني تلك المقدرة على الصبر والتحمل التي ابتليت بها. صدقيني صبري لا يعود إلى خوف ممن حولي، فكلمة مطلّقة تكاد لا تعني

لي شـيئًا. لكنّه خمـول جعل روحي تتآكل تدريجيًّـا، ودخلت حالة اكتئـاب اضطرتنـي لتناول أدويـة تتركني في حالة انعـدام وزن ونوم دائميـن. حتّى تلك النصوص البائسـة التي أكتبهـا بين صحو وآخر، لا أجد الوقت لإعادة قراءتها وتدقيقها! كنت أدفعها عني بنشرها في مواقـع الإنترنـت، وكأنّي أتخلّص من إثم، أو هـم أريده أن يتزحزح عن صدري.

طاقـة نـور صغيـرة لكنّهـا كافيـة لدخـول الشـمس إلـى روحي فُتحت حين سـمعت صوتـه على الهاتـف يقول لـي: «خالة نحتاج مسـاعدتك». انتفـض جسـدي كمـا روحي، وشـعرت خـلال أيام من لقائي الأوّل به أنّي أسـتعيد شـبابي! ليس العمـر بالضبط.. لكن صدقينـي حتّـى لون بشـرتي تغير في أيـام. في البدايـة كنت أخجل مـن دخولي إلـى المحـلات أو الصيدليات لطلب المسـاعدة. لكن بعد تجربتيـن محرجتين تخلّصت من خجلـي، وأيقنت أنّي أطالب بحق الوطن على هؤلاء تجاه شـباب يضحـون بأرواحهم، ويبذلون دماءهم في سبيل الحريّة.

تعلمين؟ لم أتوقع أنّك سـتضحكين حيـن أخبرتك بالحالة التي انتابتنـي لحظة سـماعي خبـر اعتقالـه.. صدقيني وقع خبـر اعتقاله علـى روحـي كصاعقـة شـطرتني نصفيـن، خوفـي عليـه، وخوفي على نفسـي! نعم خفت.. ماذا سـأفعل الآن؟ ببسـاطة أخذت حبوبًا

مهدئـة، ونمت. هربـت مرّة أخرى مـن مواجهة ألمـي.. هربت من مواجهـة الحيـاة.. لماذا اعتقلـوه؟ لماذا كلّما وجـدت طاقة من نور تعدنـي بحيـاة متوازنة صحية وطبيعية يسـدونها بالمزيـد من الحقد والوحشـية؟ لا أتسـاءل عـن جدوى مـا فعلته خلال زمـن قصير لم يتجاوز أسبوعين، كان الأهم بالنسبة لي شعوري بجدوى وجودي، وأنّ الآخرين يحتاجونني، وأنّي أسـتطيع مدّ يد المسـاعدة. بالتأكيد تعرفين هذا الشعور، كيف لا وأنت أمّه؟! هنيئًا لكِ به، على أيّ حال هـو ليـس ابنك فقط، أنا أيضًا لي حصة فيـه.. هو ابني أيضًا. نور ابن سوريا، ابن الشمس! يا إلهي كم كان اختيارك لاسمه دقيقًا وحقيقيًّا. سـتضحكين إذا قلـتُ لكِ إنّـي تمنيت لو عدت صبيـة بضفائر حين رأيته، وتمشـينا في حواري وأزقة دمشـق القديمـة.. كان يقف على بعد أمتار من المحل التجاري، ويتركني أدخل لأتفاوض مع صاحبه حول إمكانية دعم الثوار. في الحقيقة كنت أخشى كلمة «ثوار» أقول المنكوبيـن، النازحيـن.. لا بـأس.. لكن «الثـوار» كانـت الكلمة - الجرم، تشـعرني أنّي عدت إلى أيام جدتي، تضعني داخل الحدث، في قلبه تمامًا. الآن أشـعر برغبة عارمة للعودة إلى الطفولة للاختباء هناك في بيت «سـتي».. بيتٌ صغير في حارة «سد» في زقاق الرماح بقبر عاتكة... كنت أعشقه كما أعشق جدتي.. ما تزال رائحة فستانها عالقـة بأنفي وأنـا أختبئ وراءها بعـد هربي من أبـي عندما يلمحني ألعـب في الحـارة! كنت أتعلّـق بأذيال الثوب، وأبكي: «سـتي بدّي

أبقى عندك كرمال الله».. ما يزال طعم «عروسة» السمن والسكر تحت لساني.. يا الله! ورائحة المليسة الخضراء تفوح من الشاي الساخن على طرف البحرة أمام عمتي.. التي تتناول فنجانها كأميرة من أميرات القصص الخرافية. رائحة عطرها تسكن أنفي وهي تحكي مع العصفور في القفص مقلّدة صوته! العصفور المسكين أكلته القطة في ذلك الصيف عندما كنّا في عين الخضرا! كنت ألمح دمعة في عيني عمتي، لم تحاول إخفاءها، بكته كما لو كان حبيبًا. ربّما الآن أفهم سرّ تلك العلاقة، وأدرك حجم الألم الذي يتركه الفقد. ليس الفقد المادي لجسد عصفور، بل الفقد المعنوي لوجود كائن يملأ الفراغ! هذه العلاقة الغريبة تركت أثرًا عميقًا في روحي، جعلني أبحث دائمًا عن رجل غير قابل للفقد.. رجل يزرعني في غوطة قلبه شجرة حور.. لا أريد أن أكون ياسمينة قابلة للذبول حين يدخل الشتاء!

ما لا أنساه الفستان الأخضر المقصب الذي خاطته عمتي للعبتي على آلة الخياطة «سنجر» التي تركت بصمتها على أصابع أطفال العائلة - وأنا أوّلهم - في كلّ مرّة يعبثون فيها بالآلة رغبة في الاكتشاف وتقليد الكبار. ما تزال رائحة الصابون الأبيض عالقة بأصابعي.. صابونة جدتي ومياه الفيجة الباردة التي تجعل جلدي يقشعرّ، وقلبي يتقلّص وأسناني تتراقص.. رائحة خشب الخص المطل على الحارة، رائحة عطر ملابس زوجة عمي العروس الشابة

مختلطة برائحة الشـمس.. في بيت جدتي حتّى الشمس لها رائحة! وللرائحـة علاقـة بالاطمئنـان.. بالأمـان.. بأشـياء لا يمكن وصفها تُحـس فقط. كنت أسـتلقي هناك على «الفرشـات» باليـوك، أحدّق بشغف في تقويم ياباني، تمثل كلّ شهر فيه صبية وضاءة الوجه ضيقة العينيـن.. تلك العيون كانت تثير دهشـتي، فأمـدّ أصابعي إلى زوايا عينيّ، وأشـدهما متخيلة أنّي صرت أشـبه تلك الفتـاة في الصورة.. وأنّي أبتسـم مثلها لشـمس لا تبـدو في الصورة، لكـنّ ظلالها دائمة الحضور.. أتسـلّل بخفة إلى شـبّاك المربع «مسرحي الأول» أختبئ وراء سـتارته وأبدأ بغناء «زهرة المدائن» وحين أنهي الغناء بـ«آتٍ.. آتٍ.. » أملك اليقين أنّ الغد آتٍ حاملًا معه النصر والعودة، وأسمع التصفيـق من عمـق الصالـة البعيدة.. صالة مسـرح كبيـر أغني فيها لجمهـور لا نهايـة لـه.. آه يا «سـتي» الغد لـم يأتِ.. ونحـن لم نعد ننتظـر لأنّه رمانـا إلى انتظار آخر.. غصنا فـي تفاصيله حدّ تلمس الـدم النـازف في شـوارعنا. لم يكـن حبي للغنـاء الهوايـة الوحيدة التي نُهيت عن التفكير فيها، بل الرقص أيضًا! لا يمكن أن أنسـى ما حييـت الصفعة التي تلقيتها على وجهـي من أبي حين صرّحت أمام أصدقائه يومًا بأنّي أحلم أن أصبح راقصة! والدي لم يُخرس الحلم، بل جعلني أنتظر فرصة مناسـبة للتمرد على إيذائه روحي أمام جمع من الجيران، الذين تواطؤوا معه برمي سهام نظراتهم المستنكرة في قلبـي. إن كان مجرد حلم يُعالج بصفعة تتـرك آثارها طيلة العمر في الروح، فما بال الفعل؟ بالتأكيد لم أجرؤ على امتهان الرقص، لكنّي

امتلكت حريّة تقرير مصيري الدّراسـي أولا واختيار شـريك حياتي ثانيًا!

لـم يكن اختيارًا موفقًـا.. بل هو الاختيـار الخاطئ الذي جعلني أقـدّم الكثير من التنازلات، وأتحمّل النتائج المترتبة عليه. للأسـف لـم يكن الاختيـار الخاطئ الوحيد. قبل حصولـي على الطلاق بعد ربـع قرن من الحياة المشـتركة بيننا، وقعت في حـبّ رجل آخر لبّى بعضًا من الأحلام النائمة في روحي. يكتب لي الشعر، يدلّل الطفلة الغارقة في النوم داخل جسدي، يحنو عليها، ويداعبها طويلًا.. تلك الطفلـة التي لم تتخـطَّ مراهقتهـا المبكرة أبدًا.. عـرف ذلك الرجل كيـف يتعامـل معها في بدايـة تعارفنا مما جعلني أستبسـل في طلب الطلاق حدّ التنازل عن كلّ شـيء مقابـل حريتي! هل أنا حرّة الآن؟ ما تغيّر في حياتي فقط انتقال صك العبودية من رجل إلى آخر، لكنّي لم أعد قادرة على الخروج من تحت النير ثانية لأنّه لم يبقَ في العمر متسـع للبحث عن رجل آخر! كلّ مـا أحلم به الآن هو الحفاظ على الطفلة النقية داخلي بالعودة إلى بيت جدتي!

كنت أتشـبث بالبقاء عندها عن طريق إغرائها بقضاء حاجياتها.. أشـتري لها الخبز المشـروح الطازج من الفرن، وآكل نصف رغيف فـي الطريـق! أعبئ لها سـطل العرقسـوس، وأمد يـدي وآخذ قطعة ثلـج منه، أتركهـا تذوب بين أصابعـي! منظر الثلج وهـو يذوب من

حرارة يدي، ويقطر على ملابسي، ينسيني أنّي تأخرت على البيت، وأنّ جدتي ستهدّدني بإبعادي إلى بيت أبي. لكنّها تنسى تهديدها كالعادة «وربّما تتناساه»، وترسلني لأشتري صحن مسبّحة من عند «الصعب».. لا أعترض على الرغم من أنّي لا أعرف الطريق، وقد ضعت أكثر من مرّة، وأرسلتْ ورائي أحد أولاد الحارة ليبحث عني!

حين أعود أختبئ بالداكونة تحت الدرج. ليس خوفًا من العقاب، فقد كنت أدرك تمامًا أنّ جدتي تعمل بقول جدي: «عصاية العز هزها ولا تضرب فيها». آه لو أستطيع الآن أن أكوّر جسدي هناك قرب برميل المازوت وأحذية عمتي «ذات الكعب الرفيع» و«رائحة الرطوبة والأمان»! في بيت «ستي» كلّ شيء حلو.. مثل الحلويات الشامية.. أذكر من ذلك الزمن حادثة أثّرت على تفكيري مدّة طويلة.. سمعتُ طرقات خفيفة على «سقّاطة» الباب، فتحتْ جدتي، وعادت وبيدها صحن حلو مشكّل. عندما سألتها من أتى به، نظرت إليّ بصرامة وقالت: «الستيتية»!. ستيتية جدتي كانت الساعة أو المنبه الذي أنام على توقيته، وأستيقظ أيضًا على توقيته. كنت صغيرة، وصدّقتُ جدتي التي لا تكذب، وليس من المناسب أبدًا أن أشكك بشيء تقوله. عندما كبرت بقي السؤال يلح عليّ.. وأعدته على جدتي بعد عشرين عامًا: «يا ستي بتتذكري صحن

الحلو المشكّل؟» جدتي للأسف كانت قد نسيت الحادثة! رحلت بعد ذلك.. وبعدها بسنة رحل أبي، وبعده رحلت أمّي.. أحباب كثر رحلوا.. «ويمكن أنا صار لازم روح»... وريثما أصل إلى هناك.. ليت جدتي تتذكّر من جلب صحن الحلو في ذلك الصباح!

أنهت حديثها بتلك العبارة، ونشجت بصمت! وجدتني أربت ظهرها ورأسها، وأشدّها إلى صدري.. وأدركنا معًا أنّنا استطعنا التحايل على مشاعرنا بتجنب الحديث عن اعتقال نور!

*****

بعد اعتقال نور بأيام تسعة طلبت من حسام أن يبحث لي عن غرفة مناسبة لأسكن فيها لأنّ الإقامة في الفندق مكلفة خاصة أنّي مضطرة للبقاء مدّة طويلة، فقد هيّأني الشباب نفسيًّا لاحتمالات كثيرة، منها أن يطول اعتقال نور أكثر من شهر وقد تصل المدة إلى شهرين! كما اعتادوا في مثل حالته، وكنت ما أزال أتابع مع المحامين قضية نورس في سجن المسلمية بحلب، وأدرك جيدًا أنّ الاحتمالات السيئة قائمة وطبيعية. اتصل بي حسام بعد يومين من البحث، وأخبرني أنّه وجد لي بيتًا مفروشًا عند عائلة «غرفة منفصلة معها حمام ومطبخ»، وأنّه سيمر بي مساء ليرافقني إلى هناك.

انطلقنا في الساعة الثامنة، كنت أفكّر بالعزلة التي ستساعدني على إنهاء بعض الأعمال أثناء ملاحقتي لقضية اعتقال نور. المفاجأة أنّي

حين دخلت المنزل هبّ للترحيب بي ثلاثة شبان، امتدحوا الغرفة، وتمنّوا أن تعجبني. عرّفهم حسام بأنّهم أصدقاء نور، لكنّي فوجئت أنّه لا يعرف أسماءهم، وأنّه يراهم لأوّل مرّة! فيما بعد عرفت أنّ نور كان صلة الوصل بين هؤلاء جميعًا، وأنّهم لم يلتقوا قبل قدومي إلى دمشق! أبو المجد الدوماني كان مفاجأة لي بحضوره الجميل مما جعلني أقرأ المعوذتين له في قلبي، وأصلي على النبي خشية الحسد. أذهلني أنّه كان قائدًا ميدانيًّا في الجيش الحرّ! وأنّ عامر الشاب الآخر كان مسؤولًا في تنسيقية أطباء، والثالث اختصاصه إغاثة «أغذية وحليب!» أمّا حسام فقد كان مسؤولا عن تأمين أقمشة لمعمل في عربين يخيطون فيه بدلات للثوار وملابس للنازحين!

أعجبتني الغرفة، وحين سألت عن الأجرة، نطق الثلاثة معًا: «أعوذ بالله» ما هذا؟ كيف؟ أنا لا أقبل.. أبو المجد تولى الحديث، قال بهدوء: «هذا أقل ما يجب يا أمّي، نحن لا نمنُّ عليك معاذ الله، نحن نردّ لنور جزءًا مما قدّمه لنا.. نريد أن نرفع رأسنا أمامه حين يخرج بالسلامة، هل تضنين علينا بذلك؟». تمتمت: «من يستطيع؟».

البيت الذي سكنت في غرفة على سطحه يقع في حي الإخلاص خلف مستشفى الرازي، وهي منطقة مكتظة بالسكان.. ينتهي الحي بحواكير مليئة بالصبّار والأشجار المثمرة، ويحاذي شمالًا مشاتل

الورد الجوري الدمشقي والقرنفل! البيت لقريب «أبو المجد» العم أبو جمال كما ينادونه هنا، وهو رجل في السبعين من عمره تقريبًا، لكنّه ما زال يعمل بهمة ابن عشرين. يستيقظ باكرًا ليذهب إلى سوق الخضار، ويعود ليفتح دكّانه البسيطة، يساعده ابنه الأصغر محمّد بعد عودته من المدرسة. أمّا جمال وحسن، فيذهبان بعربة الفول والذرة المشوية إلى أوستراد المزة بعد عودتهما من الوظيفة. أناس بسطاء يقتنصون لقمة عيشهم من فم السبع ليحيوا بكرامتهم.

في الصباح الباكر سمعت نقرات خفيفة على باب الغرفة، نهضت بسرعة وقلبي يدق بعنف، من سيأتيني في هذا التوقيت؟ ولمَ لمْ يتصل بالهاتف قبل قدومه؟ فتحت الباب فإذا بي وجهًا لوجه أمام صبية ممتلئة الجسد ذات قوام متوسط، ترتدي ثوبًا طويلًا، وتضع شالًا صوفيًّا على رأسها، وجهها يتدفق بالصحة والإشراق. عيناها العسليتان نظرتا إليّ بارتباك، وهي تقول:

ـ آسفة، أيقظتك باكرًا؟ لا أعرف متى تستيقظين بالضبط، لكنّ «أبو المجد» قال إنّك تشربين قهوة من دون سكر قبل الإفطار.. قهوتك.

وناولتني الصينية التي احتوت صحنًا من الفواكه وقطع بسكويت وركوة قهوة ممتلئة وفنجانًا واحدًا وكأس ماء! هل يعقل أنّ أبا المجد يعرف كلّ هذا عني؟ وقفت ذاهلة عما حولي حتّى انتبهت

إلى الصبية التي نزلت الدرج مسرعة، فناديتها أسألها عن اسمها. التفتت، وقالت بابتسامة جميلة أظهرت استدارة وجهها الأبيض الشديد الحمرة: «حلا».

طلبت منها أن تشاركني شرب القهوة، فاعتذرت بأنّ لديها أعمالًا هامة.

جلست أشرب القهوة، وأنا أفتح الكمبيوتر لأتابع ما يجري على الفيس بوك. على صفحتنا المشتركة ترك لي حنظلة ملاحظة «أنتظرك في القيمرية الساعة السادسة مساء». لماذا في القيمرية؟

لم تترك «حلا» لي فرصة للتفكير في مخطط ليومي. دعتني لتناول الفطور معهن.. كانت هي وأختها «هلا» وأمّهما. لم يكن في البيت رجال، فقد ذهبوا إلى أعمالهم، ومحمد ذهب إلى مدرسته. الفتاتان أنهيتا أعمال المنزل كما يبدو من الترتيب والنظافة التي يتمتع بها البيت.. خصّتاني بمكان قريب من المدفأة، ولم تسمحا لي بالجلوس بعيدًا، مع أنّي شرحت لهما أنّي لا أحبّ الاقتراب من المدفأة. الفطور كان احتفاليًا بالنسبة لي بعد أن قضيت الأيام السابقة بتناول الفلافل والفطائر والشاي البارد تقريبًا. خبز مشروح ومسبّحة وفول ومربيات وجبنة وإبريق شاي ومكدوس! هذا كثير.. أشعرني الكرم الزائد بالحرج.. قيّدني كثيرًا، وجدتني متورطة في جوّ عائلي صرف.

عندمـا انتهـى الفطـور، جلبن أنابيـب الأراكيل وعـدّة مؤلفة من أقمشـة على شـكل كشاكش ملونة وأسـلاك وخيوط مذهبة ومقص ومـواد لاصقة. لـم أفهم في البداية السـبب، لكنّ حلا شـرحت لي أنّهن يسـاعدن والدهن بالقيام بهذا العمل، تزيين أنابيب الأراكيل.. وأخبرتني أنّها مهنة تمارسها معظم النساء في الحي! جلست أستمع لأحاديثهن بفضول ممزوج بالحرج، لم أسـتطع الاستئذان أمام كرم الحديث والجلسـة الدافئة الممتعـة. أخبرتني حلا أنّ أبا المجد قال لهـم إنّي أحتاج جـوًّا هادئًا للكتابـة، وأنّهن سيسـعين بكلّ جهدهن لعـدم إزعاجـي! ماذا يعـرف أبو المجـد أيضًا؟ أذهلنـي الأمر، ولم يكن بالإمكان الاتّصال به أو التحدث إليه، فأنا لا أعرف رقم هاتفه، ولم أفطن لسـؤاله عن حسابه على الفيسبوك أو أيّ طريقة للتواصل معه! كما أنّ النساء هنا لا يعرفن وسيلة للاتصال به! أم جمال نهرت ابنتيهـا، وطلبت من حـلا تحضير القهوة لي مرّة ثانيـة. حلفتُ يمينًا أنّي لا أرغب في شـربها، لكنّها ابتسـمت ابتسامة العارف، وأومأت لابنتها بالذهاب. أم جمال حدّثتني بما يشبه البوح أنّها من الجولان المحتل، وأنّها سـتذهب إلى هنـاك - كعادتها - في الربيع لتحضر الفطر، وسـتطبخه، وتطعمني منـه، لأعرف كم هو مختلف عمّا يباع في الأسـواق ولذيذ. قالت لي إنّ أباها رجـل عجوز، لم يغادر قريته كمـا فعلوا هم، بـل بقي هناك. جمـع دواب الجيـران ودجاجاتهـم، صنـع حظيـرة، واعتنـى بالحيوانات. لـم يرهبه الإسـرائيليون، ولـم تقهره الوحدة.

لـم نشـعر بمـرور الوقـت حتّـى دخـل أبـو جمـال، خلع سـاقه المسـتعارة، ورماهـا بعيـدًا، وشـتم حافظ الأسـد واليهـود. البنات ضحكـن، وخبّأن ضحكاتهن بكفوفهـن. وفهمت أنّ هذه عادته منذ فقد سـاقه فـي حرب «73» وتـرك الجولان، ولجأ إلى دمشـق، ولم تعوضه الدولة عن خساراته سوى باستعباده بهذا الشكل المهين. أم جمال كانت طيلة تلك السنوات، تركض لتحمل الساق الاصطناعية، تضعها في مكانها، وتغلق الباب جيدًا خشية أن تصل شتائمه أسماع الجيران. وتسـتعيذ بالله من الشيطان الرجيم، لكنّها لم تستطع تغيير عادتـه تلـك! أم جمـال منذ بدايـة الثورة، صـارت تقول لـه والباب مفتـوح: «يا رجل حافظ فطس، الدعاء لا يجوز على الميت، الدعاء الآن على الجحش الذي خلّفه». وجدتها فرصة لأستأذن بالذهاب، لكنّ أبا جمال أصرّ على أن أتناول الغداء معهم. ما هذه الورطة؟

فـي الخامسـة غـادرت المنـزل، وأنـا أتنفـس بملء رئتـي هواء الشـارع. ركبـت تاكسـي إلى باب تومـا، ودلفت في الأزقـة الضيقة بحثًا عن المكان الذي وصفه لي حنظلة.

هنا كنّـا معًا في أواخر الربيع الماضي أوان تفتّح الياسـمين، نمرّ معًـا في هذه الأزقة الحميمة، نتمهّل أمام واجهات المحلات، نرمق الأبنيـة العتيقـة بعيـن الرأفـة والرعاية لزمـن مضى، وخـطّ بأصابعه فـوق ملامحـي تجعدات الرمل، ولـم يعد له من الشـباب ما يحميه

من الهشاشــة والكسر.. كدت ألمســه بأصابعي المتجمدة وأنا أعبر «دروب الهوى» وأرى الياســمين المتطاير في مشهد كان من العمر، ولــم تزل ذاكرتي تختزنــه مصحوبًا بعبير يديه. الهواء الشــديد وقتها طيّـر الياســمين، ودوّمت قوافله حول جســدي، واســتقرّ بعضها في شـعري.. حينها أغمضت عينـيّ على نوّار اللوز والكـرز في الجبل البعيد والريح تحمله في كلّ نيسان، فيتساقط كندائف الثلج، ويكسو وجه العشــب ببياضه النقي... تنفستُ بعمق: «آخ يا نور»... الجليد صفع عظامي، فارتجفتُ بشـدّة، وتجمّد الدم في قدميّ، فجررتهما بصعوبة. ما الحكمة من اللقاء في هذا المكان؟!

المفاجئ أنّي لـم أجد حنظلة بانتظاري.. بل كان حسام هناك على الناصية أمام مرســم الفنان علي جوهر، هتف مندهشًــا من وجودي «معقـول! مـاذا تفعلين هنا يـا أمّي؟». قلت: «نعـم جئت أبحث عن طيفه هنا». شدّ على يدي، وقال: «سيكون بخير لا تقلقي، هو رجل، ويعـرف مـاذا يفعل.. لقد ربيتـه لمثل هذا اليـوم، أرجو أن لا تخيبي ظنّه بكِ». لم أجد ما أردُّ به، فتابع قائلًا:

ـ أحـبُّ أن نتمشـى قليلًا فـي أزقـة الشـام القديمـة، لكنّـي أراك متعبـة، هـل نجلس في مكان عـام؟ هنا قريبًا في المقهـى المجاور، يمكننـا أن نتنـاول فنجان قهوة، ونتحدّث. هل أخـذتِ أغراض نور من المخيم؟

ـ ليس بعد.

ـ ماذا ستفعلين بفرش البيت؟

ـ لا أعرف، أفكّر أن تسكنه إحدى العائلات النازحة من حمص.

ـ فكرة حسنة، غدًا أراك هناك، وأعرّفك على شخص مسؤول عن تأمين السكن للعائلات النازحة.

حين وصلت البيت كان بانتظاري مفاجأة.. على الرصيف قرب الباب كان يتمشى بخطوات سريعة وجسده يرتجف من البرد، حين رآني تلكأت خطواته، وابتسم مرتبكًا، وهمس بصوت مرتعش «أمّي». اندفعت نحوه، احتضنت كفيه، وسألته: «متى جئت؟ لماذا لم تتصل بي؟ كيف صحتك الآن؟». لهفتي أنستني أنّه لا يستطيع الكلام.. دخلنا إلى الغرفة، أشعلت المدفأة، وجلست قربه أتأمل ما فعله به الجلادون طيلة فترة اعتقاله. همس «كيف حالك أنتِ؟ أنا خجلٌ منك يا أمّي.. لا أعرف ما أقول.. لكن لا تخافي على نور، سيخرج قريبًا.. لا تخافي.. هل كنت بحاجة لكلمات نورس الواثقة لأملك اليقين بعودة نور؟

مرّ الوقت بسرعة ونورس يحكي لي عن تفاصيل ما جرى له في سجن المسلمية بعد زيارتي.

القبـو يغـص بالأجسـاد التـي تجمّعت لصـق بعضهـا، ورائحة العفونـة والرطوبـة تطبـق على الأنفـاس، وتخز الصـدور المتعبة.. هنـاك مـن يحكّ جسـده وهو يكاد يبكي مـن ألم الحكة مما خلّفته أقبية السـجون من آثار القمل، وآثار الحروق والتعذيب بالكهرباء.. وهنـاك من يهلـوس بجلاده.. وآخر لف جسـده كجنيـن يحاول أن يحمـي نفسـه من ركلات متوقعة فـي أيّ لحظة! وأصوات السـعال ترتفـع لتغطي أصوات الأنين الهامسـة والكلمات العابرة، وتخرس أصـوات الكـون الضاجّـة بالاحتجـاج علـى التواطـؤ المريب ضدّ المعتقلين.

قُـرع البـاب، ودخل الشـخص الملتحي الذي أخـذ مكاني أثناء زيارتـك لـي.. أوّل ما لفت نظـري في هيئتـه لحيته الطويلـة وعيناه المكحلتان.. ألقى السلام، وقال:

ـ أراك مستيقظًا؟

توقـف الحديث عنـد التعارف.. كنت منشـغلًا بلوحـة الغروب المرسـومة بدقة في مخيلتي.. بيتي.. قريتـي.. رائحة الهواء النقي.. الناس البسـطاء في تعاملهم مع الأشياء وعلاقاتهم الاجتماعية التي تشبه أشكال بيوتهم ببسـاطة هندستها المعمارية وطرقاتهم الممتدة بيـن البيوت والقلـوب. كيف اعتنـوا بالزاويـة القديمة مـن القرية؟ الأماكـن القديمة هي ذاكرتهم بقببهـا الطينية وبيوتها المفتوحة على

بعضها كأنّها بيت لعائلة واحدة! قبل أن تصبح للبيوت أسوار عالية تحجب عن الجار ما يجري في بيت جاره.. وقبل أن تبعد الطرقات الفسيحة المنازل عن بعضها، وتترك مساحة باردة بين الناس.. والقلوب! انتبهت على صوت الرجل يقول:

- أترغب في إبريق شاي؟ بمئة وخمسين ليرة.

مئة وخمسون ليرة! لم يكن معي منها ليرة واحدة، مع أنّي أشتهي كأس شاي، أتشهّى لونه وحجمه في الكأس، الانعكاسات الضوئية التي يخلّفها حوله، وعلى الوجوه أثناء شربه. لكأس الشاي عندي ذاكرة - ألوانه المتدرجة، البخار المتصاعد بكثافة، حرارته- تشبه ذاكرة تاركوفسكي(*) الذي بنى ذاكرة عبر زجاجات البيرة الخضراء والبنية، ربّما لأنّ لون الشاي يشبه تراب بلدتي الأحمر حين تنعكس شمس الصباح عليه، فيبدو بريقه خاطفًا، ويعكس من أحشاء الأرض صورة المرأة الجنية التي تختفي في الطبقة الرقيقة بين الصخر الأحمر والتراب، وتنبت شقائق نعمان في الربيع، وتفوح ندًى في ليالي الصيف.. ومع بداية الخريف تعد بمواسم قادمة! لا مقارنة بين ذاكرتين تلتمسان روح الزجاج وانعكاس اللون

(*) مخرج سينمائي روسي. آخر أفلامه قبل أن يغادر روسيا «ستكلر»، 1979. لم يكن في أعماله منافقًا، ولم يمدح النظام السياسي الشمولي. مات فقيرًا في باريس، 1986.

فـي حدقة العين. ليـس تقليلًا من ذاكرة تاركوفسـكي.. لكنّه انحياز طبيعـي لفطـرة الأرض وتجلياتها في جبل الزاويـة، ولولا اختلاف البيئة الصارخ بيننا كمخرجين، لكانت فكرة تاركوفسكي صرعتني، وسدّت أفق المخيلة المفتوح دائمًا على براري الأمس.

لـم أنتبه ليدي الممسـكة بقوة بقضبـان الزنزانـة حتّى تصاعدت رائحـة الصـدأ والبرد من أصابعـي! الصدأ الأحمر الـذي ترك آثاره على يديّ نبّهني إلى أنّي أصبحتُ صدئًا بما يكفي!

ـ تعـال اطلـع معي.. أخـذت لك إذنًـا لتدخل الحمّـام، وبعدها نتحدّث.

لاحظتُ عند خروجي من الزنزانة أنّ الرجل يلبس جلابية قصيرة كلباس الأفغان المرتبطين بالقاعدة! نظر السـجانون إليّ، وتأملوني مـن فوق إلى تحـت، وكأنّهم أرادوا تصنيفـي.. لكنّي فوجئتُ بأنّهم يعرفون اسمي وتهمتي. قال أحدهـم بحزم:

ـ هذا صاحب مشاكل، ونحنا لسنا ناقصين، والله يا «أبو العدل» صعـب أتركه يروح علـى الحمّام، بـس كرمى لك هـذه المرة رايح خليه.

ابتسم أبو العدل، وقال بثقة:

ـ كرمـى للمصـاري، وليس لي. اتقـوا الله، وانشـقوا عن النظام المجرم الكافر.. أستغفر الله العظيم.. بس.

أذهلني «أبو العدل» بجرأته، وأذهلني أكثر صمت السجّانين! سرت في جسدي قشعريرة، أعادت إليّ الثقة بعد ثلاثة أشهر أمضيتها في أفرع الأمن المختلفة غارقًا في طين الذل واليأس والخيبة! الخيبة كلمة كان يجب أن تتصدّر الكلمات الأربع التي اخترتها لفيلمي «الحريّة والديمقراطية والثورة والوطن».

صعدنا عشر درجات إلى الأعلى، وفتح لنا بابًا من القضبان سجينٌ أوكلوا إليه هذه المهمة! روضوا السجناء ليقوموا بأعمال من اختصاص السجّان داخل السجن! إلى أين وصلوا في إذلال الناس وتطويعهم؟! السجناء يفتحون الأبواب، يغلقونها.. يتفقدون الحضور.. يشتمون السجناء الآخرين، ليس إرضاءً للسجّان أو خوفًا على السجين، بل ممارسة لدور السجّان المختبئ في داخلهم.. ذلك كلّه لم يُخلق فجأة فيهم، لم يفرضه جوّ السجن.. بل رضعوه منذ دخولهم الروضة وممارسة دور المراقب «العريف» الذي ينقل الأخبار للمعلمة، وكرّس ذلك في منظمة الطلائع، وتطوّر في معسكرات الشبيبة، ليأخذ شكل «مخبر» رسمي في صفوف «حزب البعث». ظننتُ أنّي فهمتُ الوضع جيدًا قبل أن أتعرّض فيما بعد للنوم على البلاط، وتتفاقم حدّة المرض لأنّي لا أملك أجرة السرير داخل السجن! استطعتُ تأمين خمسمائة ليرة أجرة الغطاء، لكن لم أكن أستطيع دفع ألفي ليرة لأنام أسبوعًا فوق السرير!

قال أبو العدل بلا مبالاة: «عادي، لا تهتم.. كم من الوقت صار لك في السجن؟». رفعتُ كتفيّ بلا مبالاة.. حدّثتُ نفسي ثانية: «ليكن.. لم يعد هناك أهمية لأيّ شيء.. ليس سيئًا أن يتحرّر الإنسان من كلّ السلطات الدّاخلية والخارجية، وليذهب كلّ شيء إلى الجحيم».

أبو العدل أحضر لي بيجاما، وسترة من الصوف.. كانت الألوان الرمادية الطاغية تمنحني إحساسًا أنّني أصبحتُ جزءًا من المكان... سكبتُ الماء فوق رأسي، فسرت قشعريرة في جسدي لم أشعر بها منذ زمن طويل. تحرّكت خلايا الجسد بمجملها، احتشد بذاكرة الماء التي أيقظت الحنين إلى الحياة بأشكالها المبهجة بعيدًا عن الجدران العالية والقضبان واللون الرمادي القاتل بحياده. الرمادي.. لون السجن، لون الحقد الذي يسكبونه فوق رؤوس المعتقلين بكلّ قوتهم وقدرتهم على الإلغاء والإقصاء والقتل. عاد الشريط بمشاهده البشعة ليظهر أمام عينيّ مع قطرات الماء.. أيّ حقد يملكون؟ راح السؤال ينخر دماغي من جديد. لم تعجبني كلّ الأجوبة المنطقية التي عثر عليها بعض علماء النفس، فأرجعوا تلك التصرفات إلى أسباب نفسية أو اجتماعية أو حتّى أنثربولوجية.

بعض النور المتسلّل من النّوافذ جعلني أتجاهل كلّ ما مرّ أمام عينيّ من مشاهد، وأمتلك الأمل بأنّ هناك ما يبشّر بالخروج

من عشـوائية الموت وفوضى الضياع والخيبات التي عشـتها جسدًا وروحًا.

ـ هم حلقوا لك شعرك؟

ـ وإنسانيتي أيضًا!

ـ عطشان؟

ـ حدّ الموت!

ـ سنأكل، ونشرب شايًا، ونسهر حتّى الصباح.

حتى الصبـاح! مرّة أخرى يعيد العبارة، ومـرّة ثانية ألمس طرف عينيّ اللتين تحاولان رؤية الطبيعة صباحًا، درجات اللون.. الأزرق النقي، وتدرجه نحو البرتقالي.. لون التفاح.. الزيتون.. يااااه كم من الأشياء أفتقد!

ـ أبو العدل.. هات ضيفك وتعال...

أبو العدل أخبرني أنّه مؤخرا أصبح في السجن جناحٌ للسياسيين بعد أن كانوا يوزعون على أجنحة السجن بين اللصوص والمزورين والمجرميـن.. محاولـة ذكيـة لزج هـؤلاء بيـن مجرميـن محترفين يسـتطيعون التأثير على السجين السياسي، وسحقه، ومسح إنسانيته عـن طريـق إقناعه أنّ من يسـعى لإيجاد وطن حرّ لهم لا يسـتحقون التّضحيـة.. مجتمـع صغيـر نمـوذج مـن المجتمـع الكبيـر خـارج

القضبان! مجموعة من اللصوص والقتلة يراقبون السجين السياسي، ويشعرونه أنّه كاذب ومنافق ويشبههم! فهم يؤكدون أنّهم شرفاء لم يقترفوا إثمًا، ودخلوا السجن ظلمًا أو عن طريق الخطأ!

كان السجناء السياسيون قد صنعوا خيامهم الخاصة بربط حبال إلى بعضها، وتعليق شراشف عليها، وجعلها غرفًا يعتزلون فيها عن الآخرين.. ومنهم من تشارك مع زميل أو اثنين في خيمة واحدة، حيث يقضون أغلب أوقاتهم في قراءة الكتب والنقاش في الدين والسياسة بشكل عام، ثمّ في أوضاعهم النفسية والاجتماعية داخل السجن.

الأرض في الفسحة المتروكة بين الخيام فرشت بالسجاد والإسفنج، وفي الممر الذي يصل بين المهاجع وزعت حبال الغسيل، وفتحت محال للبيع! تباع هنا المواد الغذائية التي يجلبها الأهالي في أوقات الزيارة، أو تشترى من الخارج بكتاب موقع من مدير السجن أو المشرف على الجناح، والذي يأخذ عليها ضريبة بطريقة استفزازية. كان الطعام شهيًّا لدرجة كبيرة، ذكّرني بطعام أمّي! رتّبوا سفرة الطعام، وحملوا الأواني، ووضعوها في المطبخ الصغير، الذي يحتوي الحمّام والتواليت أيضًا.. هناك تتوزع عملية الغسيل والطبخ يوميًّا على المساجين في قلب المهجع.. والمطبخ يحتوي على كلّ مستلزمات الطبخ ما عدا الأدوات الحادّة والتي تعتبر قطعًا نادرة جدًّا... مثل السكين التي يحصلون عليها من

الشرطة بدفع رشاوى كبيرة لهم.. وكذلك شفرة الحلاقة التي كانت تستبدل كلّ أسبوع بعد أن يستخدمها جميع من في المهجع!

يجري الزمن ببطء يقتل كلَّ أمل في انقضاء مدّة السجن! في البداية كنتُ أظنّها أيامًا قليلة ريثما أعرض على المحكمة؛ لينظر القضاء في قضيتي. لكنّ الوقت طال وأنا مرمي مع حقائبي في «الأمانات» كأيّ شيء مهمل لا فائدة منه.. كانت أمّي تقول عندما تلمح حذاء أبيها الذي خبّأته في الخزانة بعد موته: «سبحان الله كلّ شيء أحسن من بني آدم». كنتُ أستغرب قولها، وأربأ أن يقاس البشر الراحلون بحذاء باقٍ، لكنّي أدرك الآن أنّ أمّي كانت بعيدة النظر!

مع هذا كان لا بدّ أن يأتي اليوم الذي يحسم فيه البشر الذين يعيشون خارج جدران السجن أمر احتجازي في غرفة تحت الأرض «كأمانة» كان من المفروض أن تصل سجن إدلب لينظر القاضي هناك في أمرها، لولا تفجير الحافلة التي سبقتنا بليلة من سجن البولوني في حمص، وراح ضحيتها كلّ المعتقلين! حين وصلهم خبرها، حولوا خط السير تجاه حلب. ولأنّ القضاء في حلب رفض النظر في قضيتي، أودعتُ مع غيري في أمانات السجون ريثما يصبح الطريق سالكًا!

علمتُ أنّ الطريق لن يصبح سالكًا، فمرّة تسدّه الثلوج، ومرّة تسدّه الاشتباكات بين الجيش الحرّ والجيش النظامي، ومرّة

الانفجارات.. وأنا أنتظر وسط البرد والمرض.. والسعال ينهك جسدي، ويخرّش صدري.

قبل انقضاء الليلة العشرين جاءني الفرج، ونقلتُ إلى زنزانة تجمّع فيها حوالي مئتي معتقل.. لم يكن بإمكاني أن أعرف شيئًا عن هؤلاء، الصمت هو كلّ ما استطعته وسط عالم مليء بالتناقضات والحذر والترقب.

معتقلون سياسيون.. لا تجمعهم تلك الألفة التي اعتدتها في زنازين دمشق، ربّما لأنّ السجن يختلف عن المعتقل اختلاف دار الفناء عن دار البقاء، فالسجين هنا يعرف المدّة التي سيقضيها داخل السجن، وقد انتهى التحقيق معه، وثبتت تهمته، وانتهى عهد انتظار الحكم والترقب. هنا يبدأ عدّ الأيام المتبقية لا الأيام التي انقضت.. هنا يبدأ السجين بترتيب أفكاره حول ما سيفعله بعد أن يغادر السجن، ولا يهتم كثيرًا بإعادة إنتاج ما حدث إلّا على شكل حكاية كانت في الماضي، وربّما يرويها بتندر، وكأنّ أحدًا غيره هو من قام بالفعل! وجوه بلا ملامح تتشابه حدّ التطابق على الرغم من أنّ هيئات أصحابها تنبئ عن اختلاف جذري بالانتماء، فالبعض متدين بإفراط والبعض لا علاقة له بدين أو مذهب!

يبدأ النّهار بعد ليل مليء بكوابيس يحتشد فيها أناس بلا ملامح. لا أعرف السبب الذي يجعل كلّ من أراهم في منامي بلا ملامح!

في إحـدى الليالي فُتح باب الزنزانة، ورمى السـجّانان معتقلين إلى الداخـل، وأغلقـا الباب بعنف.. لم أسـمع صوتًا لهمـا.. ولم يجرؤ أحد على رفع رأسـه والنظر صوبهما، لكنّ الرائحة أنبأتني.. الموت كان قريبًـا جـدًّا. تذكّرتُ تلك الرائحة التي تنبعث من الأجسـاد بعد تغسيلها وتكفينها، رائحة أقرب إلى رائحة البخور.. واخزة ومخرّشة حرّضت بقايا السعال العالق في رئتي، ولـم أجرؤ على التخلّص منه خشـية أن يشـقّ الصـوتُ الصمـتَ المخيّـم على المهجع، فيسـتفز الحـارس المتأهـب دائمًا عند البـاب! مع هذا لم أسـتطع كبح نوبة السـعال، فأطبقتُ على فمي بكفي، ليخـرج الصوت أصمَّ مبحوحًا زاد من إحساسي بالفراغ الخانق داخل صدري.

اخترقت الرائحة أنفي.. متأكّدا أنّه ليس البرد ولا الرطوبة اللذين منحاها شكل شجرة ضخمة قُشر لحاؤها، وسال منها صمغ كثيف، تسـاقط علـى أصابعي حتّـى غدت بلون ذهبي يشـبه قرص عسـل، انعكسـت عليه أشـعة شـمسٍ صباحية. تأملـتُ أصابعـي.. حدّقتُ جيـدًا، كانـت ملتصقـة ببعضهـا، ترتجـف بشـدّة.. حاولـتُ تهدئة حركتها المضطربة، حاولتُ أن أبعد صورة الجثتين عن عيني، لكنّي لـم أسـتطع. كانت إحداهما لشـاب في العشـرين، رأيته بوضوح في الدائـرة المغلقة لأصابعي.. شـابٌّ تنتظره أمّـه عند باب مفتوح على الجنوب، تحاول ألا ترى القبور الصامتة خلف سورها الكبير!

الثانيـة كانـت لرجل فـي الأربعين ينتظـر مولودًا.. ربّمـا، وربّما تنتظره أمّ مريضة ترجو جرعة دواء ويدًا حانية!

لمحتها بوضوح.. «زاهية العلينة» حضرت بسرعة. وجهها الذي أنضجته الشـمس، فغدا كقرص عبّاد الشـمس. وجنتاها المرتفعتان اللتان تمنحانها شـبابًا دائمًا. نظرتها الحـادّة، وعيناها اللتان تغصّان دومًـا بآثـار الدّمـع.. صوتها يتـردّد في زوايـا المهجع. رأيتها تشـقّ جيـب الثـوب، تبدأ بنـواح خفيـف، ترتفع وتيرتـه حدّ النشـيج، ثمّ يهتزُّ جسـدها على إيقاع اللطم المصحوب بكلمات شـجية... تبدأ الموسـيقى خافتة.. ترتفـع تدريجيًّـا.. أدرك كلّ التبدلات الحاصلة على هيئتها.. والتقلصات في عضلات الوجه. أعرف أنّها تصل إلى مرحلـة لا تنوح فيهـا على الميّت، فهـي تنفصل تمامًـا عمّا حولها، لا تـرى، لا تسـمع، لا شـيء يمكنـه أن يعيدها إلى الواقع، لا شـيء يمكنه أن يعيد ذلك الجسد المنتفض مع إيقاع السيمفونية إلى شكله الإنساني الهادئ!

يهدّهـا التّعب في لحظة اسـتثنائية من انتفاضهـا المرعب، فتترك المجلـس، وتسـير حافية تجاه الغـرب.. عيناها داميتـان منتفختان، وجفناهـا يختزنـان ماء الحزن منـذ بدء الخليقة وحتّـى اللحظة التي غـادرت فيها صـوب الغـروب! يومها لم تكـن تبكـي، كانت تنوح بحرقـة ومن دون دموع. لمحتُ عينيها، وكأنّهما بئرٌ بلا قرار، يرجع صـدى الأصوات الغائبة لجماجم كانت تكتسـي لحمًا في يوم ما..

كانت شفتاها تصدران همهمات غريبة، ليس لحروفها معنى سوى ما رسخ في نفوس أهل القرية من معانٍ بقيت في ذاكرتهم على مرّ الزمن! تركت وراءها دهشة واستغرابًا عندما لم تحفل بيد زوجة عمي الممدودة إليها بالنقود... وقتها أدركتُ أنّ زاهية كانت ذاهبة نحو الغياب! ولن تعود مع الشروق من جديد!

هل كانت زاهية واحدة من هؤلاء الراحلين الذين يسكنون المقبرة في الجنوب؟ يخيّل إليّ أنّها كانت موجودة دائمًا في كلّ جسد يغادر الحياة، ويرقد هناك بانتظار من يبحث عنه يومًا ليعود! كنتُ على يقين أنّها عادت إلى الحياة مرارًا.. لمحتها في الربيع أكثر من مرّة تختفي في حبّات القندريس.. وتطلع من مياه البحر البعيد، تغتسل بالملوحة والزبد.. وتغطس في أقراصي المرنة، وتخرج من أصابعي على هيئة صورة تنبثق من زاوية فيلم أصوره... الغريب أنّها كانت تبتسم دائمًا.. ولم يكن أسفل عينيها يعاني الانتفاخ، وأنفها لم يكن محمرًّا! فقط كانت وجنتاها تحافظان على شموخهما، ووجهها كبيدر قمح! زاهية تحدّت الرجال يومًا بأن تنام في المقبرة.. ونامت هناك أسبوعًا كاملًا.. هكذا تآلفت مع الموت، فلم يكن يعني لها النهاية.. كانت تمتلك اليقين أنّ الموت بداية الأشياء!

في الصباح دخل سجّانان آخران.. جرّا الجثتين خارجًا، وأغلقا الباب بقوة، وهما يشْتُمان أمّ كلّ من تسوّل له نفسه الوقوف في وجه أسياده.. أخذا الجثتين.. لكنّ الرائحة بقيت!

لم يكن من السهل الانسجام مع مجموعة من السلفيين الذين راقبوني لأيام، وعرفوا أنّي لا أصلي، فاتهموني بالكفر، وابتعدوا عني. كنتُ ألمح كراهية عميقة في نظراتهم تصل حدّ الرغبة في قتلي! لم أكن أستبعد ذلك، فقد حدّثوني أنّهم حاصروا النقيب، ووضعوا السكين فوق عنقه عندما سمعوه يكفر، وقد أنقذه تكالب السّجانين عليهم. أحدهم كان يقرأ في كتب صفراء قديمة، وحين يرفع رأسه عن الكتاب، يأمرني بالصلاة بصوت خافت يمتزج بالتهديد المبطن.. حتّى أنّي صلّيت مرّة اتقاء لشره. لم أستطع مناقشته في السياسة طويلًا.. كان يعتقد أنّ الديمقراطية شرك بالله، لأنّها حكم الشعب نفسه بنفسه، والحكم يجب أن يكون لله وحده.. عن طريق كتابه وبيد من يراه المسلمون مناسبًا لذلك. وحين قلتُ له: «معنى ذلك أنّك تؤيد حكم الفرد الواحد.. ما الخطأ إذن في ترك بشار الأسد في الحكم؟» حدّق فيّ بحقد، ونطق بغيظ: «يبدو أنّك من ملّته».

فيما بعد حاول التقرب مني، ليهديني ببعض الأحاديث الشريفة، ونصوص من القرآن، وحضني على ترك عملي في السينما، أو على الأقل عمل أفلام تاريخية فقط، وفي إحدى الليالي جلس بجانبي من دون أن ينظر إليّ، بقيت نظراته مركزة على حبات السبحة بين يديه، قال بارتباك:

ـ أريد أن أسألك سؤالًا

لم يخطر ببالي أبدًا أن يكون السؤال ذاته.. لكنّه سألني عن القُبلة في السينما! وحينما أجبته أنّها حقيقية، قفز مبتعدًا، وهو يتمتم: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالله..»، ومنذ ذلك اليوم لم يعد ينظر في وجهي، أو يقترب مني، كأنّي سأنقل إليه الجرب أو مرضًا عضالًا!

حلمت قبل اعتقالي بيومين بأفعى تبتلعني حتّى الرقبة، ولم يعد بإمكاني تحريك يدي، سألت رفيق السجن هل بإمكانه تفسير الرؤيا؟

ضحك المهندس محمّد، وقال:

ـ رؤياك لا تحتاج تفسيرًا ما دمتَ ضيفًا هنا.

ضحكتُ أيضًا:

ـ ضيف؟ وأيّ ضيافة؟!

ابتسم المهندس محمّد بمرارة، وقال:

ـ معك حقّ...

وابتلع باقي الإجابة!

المهندس محمّد من دير الزور يعمل في حقول النفط، كان الصديق الوحيد لي في الغرفة العاشرة من الطابق الثالث للسجن

المركزي بحلب، حيث حللتُ أخيرًا، تاركًا قسم السياسيين. لم يكن ذلك طبعًا نزولا عند رغبتي، بل لغاية في نفس القائمين على السجن سرّني فيها أمران.. معرفتي بالمهندس محمّد، وممارسة هوايتي الصغيرة في اغتراف الدهشة وأنا على أعتاب عالم لم أكن أعرف عنه شيئًا.. فالغرفة كانت تخص «المزورين»! كلّ من له علاقة بفنون النصب والاحتيال والتزوير، لم أفهم العلاقة بيني وبينهم، لكنّي نظرتُ إلى الجانب المليء من الكأس، فكلّ ما واجهني في المعتقل والسجن كان مادّة خامًا لصور تراكمت بانتظار صياغة جديدة في فيلم!

أوّل ما فاجأني في الغرفة رقم عشرة أنّ فيها «تلفزيون»، ويملك رئيسها هاتفًا نقّالًا، وأنّ بإمكان أيّ سجين هنا أن يحصل على طعام من خارج السجن، ودخان، وكلّ ما يحتاج إليه. وعلى الرغم من أنّهم تعاملوا معي بحذر، ونظروا إليّ باشمئزاز، فإنّهم كانوا كرماء معي، وعرضوا عليّ أن أكلّم أهلي إن أحببت من الهاتف الذي يملكونه!

أكلّم مَنْ وإدلب كلّها مقطوعة عن العالم؟! ثلوج وحصار واتّصالات مقطوعة كما أخبرني أحد السجناء الذين يتواصلون مع الخارج باستمرار.

كان التلفزيون يبث مباراة «سوريا والبحرين» حين نزل أحد المشجعين إلى الملعب حاملًا علم الاستقلال، وصرخ الجمهور

«الشعب يريد إسقاط النظام». من دون أن أدري قفزتُ والمهندس محمّد، وتعانقنا والدّموع تغسل وجهينا. لم أستطع السيطرة على نبضات قلبي. أوّل مرّة أشعر بالفرح منذ اعتقالي.. فرح حقيقي شحنني بالأمل.. ثمّة أمل.. وانتبهنا فجأة إلى نظرات الذهول، والأفواه المفتوحة والعيون الجاحظة تحدّق بنا، وكأننا هبطنا من كوكب آخر! هل كان منظرنا غريبًا إلى هذا الحدّ؟ لم يكن الأمر كذلك، بل لأنّ المساجين بكلّ بساطة، لم يكونوا يعرفون أيّ شيء عمّا يحدث في الخارج! وربّما لم يكن ذلك يهمهم في شيء. مع هذا التفوا حولنا والأسئلة تتدفق من أفواههم «ماذا جرى؟ لماذا تريدون إسقاط النظام؟ هل أنتما من الإخوان المسلمين؟». يبدو أنّ «الإخوان» هي الجهة الوحيدة التي يظن هؤلاء أنّها تسعى لتغيير نظام الحكم.. أو أنّ معلوماتهم البسيطة في السياسة لا تتجاوز هذه المعرفة. أين يعيش هؤلاء؟ بعد نقاش استمرّ ساعات، اكتشفتُ عقم النقاش مع أشخاص لا يعرفون من العالم سوى لغة المال.. حتّى أنّ وسيلة الحصول عليه لا تهمهم في شيء!

تعرّت روحي أمام المهندس محمّد، ووجدنا نفسينا ملتصقين دائمًا، منفصلين عمّا حولنا، وكأنّ هؤلاء الذين يشاركوننا الزنزانة لا وجود لهم. تحدّثنا عن كلّ شيء وفي كلّ شيء.. وشعرتُ كأنّي أعرفه منذ زمن بعيد. لم تكن رغبتي بالبوح له تشبه شهوة الحكي – التي تتملّكنا في القطارات والمطارات والحافلات – للعابرين

مثلنا في لحظة قلق.. ليست شهوة عابرة للحصول على صديق مؤقت يؤنس عزلتي، ويسندني في محنتي. بل كان محمّد بما يملكه من أجوبة واثقة على أسئلة دقيقة ومحرجة قادرًا على أن يخرجني من أزمة الصداقة مع ذلك الغريب الذي التصق بجلدي منذ اعتقالي.
قلتُ له ضاحكًا:

ـ أتعرف أنّي كنتُ أصادق شخصًا وهميًّا اخترعته منذ اعتقالي؟ أتحدّث إليه دائمًا، وعندما أصمت يحثني على الكلام، ويسألني دائمًا أسئلة معقدة لا أملك لها إجابات.. لكنّي كنت سعيدًا بصحبته فقد علّمني أنّ سماع صوتي ينتشلني من العزلة، ويوحي إليّ باستمرارية الحياة. هل تعتقد أنّي جننت؟

ضحك المهندس محمّد، وقال:

ـ هذا ليس جنونًا.. كلّنا نكلّم أنفسنا. أحيانًا تحتاج سماع صوتك بالرغم من وجود الآخرين حولك. ليست المسألة مسألة خروج من العزلة فقط، لكنّها أيضًا سعي لفهم الذات، ومناقشتها بعيدًا عن ضجيج الآخرين. ألا تعتقد أنّ الرؤيا تصبح أوضح حين تقوم بشرحها لنفسك بصوت مسموع؟ ابنتي في الإعدادية تدرس دائمًا بصوت مرتفع، وتكلّم نفسها وتقول: «هكذا خطأ يا سارة، هذا هو الصواب، عليكِ أن تعيدي القراءة من جديد».

قلت:

ـ منذ كنت طفلًا أفعل ذلك، وأخجل أحيانًا من معرفة الآخرين للأمر. كثيرًا ما أحدّث نفسي حدّ الغرق في ذاتي، والابتعاد عمن حولي.. أحيانًا زوجتي تحدّثني في أمر فلا ألمح إلا حركة شفتيها، لأنّي في تلك اللحظة أكون مستغرقًا في حديث مع نفسي في أمر أعتقد أنّه أهم بكثير مما تقوله.

قال محمّد بثقة:

ـ أيضا الأمر عادي.. أنت مبدع، وهذا يحدث كثيرًا لأمثالك. لا أجد ما يحدث لك شاذًّا.. لكن لم تقل لي، عندك أولاد؟

قلتُ بسرعة:

ـ لا لم يحن الوقت بعد، ثمّ إنّي تزوجت منذ مدّة قصيرة، وليس عندي بيت.. السكن في دمشق مكلف جدًّا.

قال محمّد بجدية:

ـ ولماذا في دمشق؟ لمَ لا تعود إلى قريتك؟

القرية! لم يكن صعبًا أن أشرح لمحمّد ماذا يعني الرجوع للقرية، لأنّه يفهم ذلك بالتأكيد واقتراحه لم يكن جديًّا تمامًا.. لكنّي حدثته عمّا تعنيه دمشق لي. دمشق الغانية الممتلئة بالأسرار والتناقضات، التي منحتني الدفء في ليالي البرد، ثمّ سلبتني نعمته، ولفظتني

خارج أسوارها.. منحتني فرصة تحقيق الحلم، ثمّ سرقته مني، وتركتني للخواء، تتلاعب بي رياح سمومه، وتقذفني وسط عاصفة تنذر بموت قادم وغروب نهائي!

أذكر أوّل مرّة زرتها، قالوا لي: «اركب سيارة، وقل للسائق أن ينزلك عند جسر الرئيس». ولارتباكي سألت: «أيّ رئيس؟». لمحتُ الغضب في عيون بعض الحاضرين مصحوبًا بعبارة موحية تحمل في ثناياها الكثير من التهديد والوعيد: «الرئيس!». حينها صمت، وحملتُ حقيبتي، وانتظرتُ الحافلة القادمة من حلب عند الجسر الشرقي لسراقب. كانت الرّياح الساخنة المحمّلة بالغبار والدّخان تلفحني، وتبعدني خطوات عن الطريق، حين تمرّ الحافلات المسرعة غير آبهة بوجودي هناك بانتظار الفرج. وعلى الرغم من أنّ الجسور تصلني بالحياة، إلّا أنّ جسر الديكتاتور كان يخيفني حتّى مجرد التفكير في تسميته.. طيلة الطريق كنتُ أسأل نفسي ماذا سأقول للسائق: «جسر الرئيس؟ أم جسر السّيد الرئيس؟». ماذا سيفعل إن قلت له: «جسر الرئيس؟». تضخم الهاجس، وأقلقني السّؤال حتّى غفوت في مقعدي، ولم أستيقظ إلّا على صوت معاون السّائق: «ركّاب الشام» يحث الناس على النزول.

أوقفت تاكسي، وقلت بسرعة: «جسر الرئيس» وكأنّي أنزل جبلًا يجثم على صدري!

لهـذا أردت أن أتحـدّى الخـوف في داخلي بوقوفي على جسـر «الديكتاتـور» بعد زمن طويل لألبس حبيبتي خاتم الخطبة، وأُشـهد بَرَدى العجوز أسفل الجسر، والطرقات والناس والسيارات الذاهبة إلى الموت، والذاهبة إلى الحياة، والبشر الذين يتشاجرون في غفلة من لحظات غيابهم القادمة، والبشر الذين ينتظرون الشروق.

أشهد هؤلاء كلّهم على حبي ورغبتي في عودة الحياة أو اغتصابها من الغياب!

تكرّر الموت للمرّة التسـعين في سجن المسلمية، خيّم الصوت الخشـن كتلك الحجارة السـوداء المنذرة بالغضب والتوعد بمصير أسـود تـاركًا وراءه رجفة في الفضـاء مليئة بالقلـق والخوف.. عليّ أن أنـام إذن! أن أدخـل طقـوس الغيـاب المتكـرّر بلا نهايـة.. عليّ الآن أن أحفـر عميقًـا فـي التّربة الحمـراء كقرص شـمس دامٍ لأجد حفرة تناسـب جسـدي الضئيل.. هل حقًّا أسـتطيع أن أنبش التّراب في الشـروق القادم ليستقيم جسدي من جديد إنسـانًا مكتملًا خاليًا مـن الأخاديـد الصدئة التي خلّفتها جنازيرهـم في روحي وجلدي؟ مـن جديد أواجه قريني ثقيل الظـلّ، بعد أن أخذوا المهندس محمّد خارج الزنزانة إلى جهة مجهولة!

*****

استيقظتُ بشكلٍ مفاجئ، شيءٌ ما كان يطبق على أنفاسي.. شيءٌ ما كان يحبس سعالًا مخيفًا تجمّع في حلقي رافضًا الخروج. حاولت إخراج الزفير، وأخذ شهيق عميق بصعوبة. سددت أنفي للحظات علّي أستطيع دفع ما تجمّع في حنجرتي. فتحتُ النافذة.. كلّ ما حولي ملوّن بالرماد، وغاصٌّ بالكآبة حدّ أنّ الشمس كانت تتوارى وراء سحب رمادية خلّفها البارود مع رائحة واخزة.

فنجان القهوة وكأس الماء البارد لم يستطيعا إخراجي من حالة الاختناق، ولم تستطع رئتي أن تسحب الهواء النقي إلى أوردتي لأشعر ببعض التحسن.. مع هذا لم أتأخر في فتح صفحتي على الفيس بوك وأنا أكتم أنفاسي بسحب دخان السجائر المحترقة في المنفضة أمامي.

كما توقعت.. كان حنظلة قد غادر الصفحة تاركًا لي ملاحظة لأفتح بريدي، وأحمّل ملفًّا لم يشأ أن يتركه في الصفحة.

ما سأكتبه لكِ الآن لم أفكّر أبدًا أن يحدث في يوم من الأيام.. فرجال المخابرات السورية يمكنهم تحويل الخيال إلى واقع في غمضة عين. من فرع الخطيب إلى المخابرات الجوية غادرت برفقة مجموعة من المعتقلين، ومن ثمّ إلى الفرقة الرابعة...

في مهجع تحت الأرض وجدت نفسي بين مائة معتقل حشروا في غرفة على شكل حرف «ل» لا يتجاوز طولها عشرة أمتار

وعرضها خمسة. فيها حمّام وهذا بصراحة أفرحني! فقد كان علينا أن نخلع ملابسنا في المخابرات الجوية، ونقطع الساحة عراة في البرد كي نصل «التواليت»، وأجسادنا تحت رحمة السياط والبرد القاتل.. دقيقة واحدة تمنح لكلّ معتقل كي يفرغ أمعاءه، ويخرج تحت رحمة سياط السجّان. استقبلني المعتقلون وكأنّي هدية من السماء.. السؤال الذي لم يملوا منه «ماذا يجري في الخارج؟ هل تحرّرت إدلب؟ هل تحرّرت حمص؟ ماذا يجري في دمشق؟». كنت أجيب عن الأسئلة بتفصيل ودقة، وأعيد الإجابات كي يرتوي منها المعتقلون.. حين وقعت عيناي عليه!

لم يقترب مني، لم يسأل أيّ سؤال، بقي جالسًا في الركن يحدّق فيّ مبتسمًا.. كتمت صرختي ودهشتي، وتقدّمت منه، احتضنته طويلًا.. وهمست له: «أمّك بخير، كلّهم بخير، كلّهم ينتظرونك». ضحك، وقال: «انظر إلى بدلة السجن التي أرتديها، أليست مناسبة لرئيس دولة؟». ضحك زملاؤه، وأخبروني أنّه يخطب فيهم يوميًّا مقلّدًا الرئيس، ويخفف عنهم بما يحفظه من طُرف ملونًا جدران السجن بقوس قزح.

خمسة عشر يومًا أمضيتها في الفرقة الرابعة بصحبته، لم أشعر فيها بمرور الوقت. في السابعة صباحًا كنا نسمع صوت أقدام السجانين يهبطون الدرج، فنسرع بالاصطفاف ركوعًا ووجهنا

للحائط، وكلٌّ منا يضع عصابة على عينيه، حتّى ينتهي السجانون من توزيع حصص الطعام، بيضة مسلوقة ورغيف خبز.. أمّا الغداء فقد تناوب الأرز والبرغل يوميًّا ما عدا الأربعاء والأحد، يوم يضعون فيه قطعة لحم ويوم يضعون فيه قطعة دجاج. حين ننتهي من الطعام نجمع الأوعية ونضعها قرب الباب، ونأخذ وضعية الركوع ووجهنا للحائط. يومها قال لي نور: «أتعلم أنّ أم نور كانت تعاقبني بحبسي في «الداكونة(*)»؟». طبعا لا تقاس تلك العتمة، التي كانت تخيفني حين تتحرّك الفئران المختبئة داخل أنابيب المدفأة مصدرة خربشة مخيفة، تضخمها مخيلتي حدّ الرعب، بلحظة واحدة من العتمة في هذه الزنزانة.. هناك كان الخوف مصحوبًا بأمل العفو القريب إن أنا صرخت أو أعلنت التوبة.. هنا الصراخ والاستغاثة يعنيان المزيد من التعذيب، المزيد من الذل.

شروط الحياة السيئة تتشابه في جميع المعتقلات، لكنّها هنا أفضل قياسًا بما كنا نعانيه في الجوية والخطيب. الشباب يمضون الوقت في حفظ القرآن، وتبادل المعلومات. يوم الإثنين والخميس كان البعض يحتفظ بحصته من الطعام وينوي الصيام. أذهلوني بمقدرتهم على مواجهة الموت، والظروف السيئة للسجن. البطانيات التي يلتحفونها لم تكن تكفي لتغطية الجسد، الشباب

(*) غرفة تحت درج المنزل معتمة لا يدخلها الهواء، ولا الضوء، يحشر فيها كل شيء لا لزوم له، ويغلق بابها، وربما لا تفتح في السنة مرّة! وينسى أصحابها ما فيها.

وجدوا مسمارًا في حذاء أحدهم، خلعوه، وسحبوا خيوطًا من إحدى البطانيات، وخاطوها ببعضها، وغطوا أجسادهم مجتمعة.. كنا ننام رأسًا لعقب.. قال لي: «أمّي أخبرتني أنهم لم يكونوا يملكون سوى فراش واحد، فكانت جدتي تحشرهم في الفراش رأسًا لعقب، البنات في جهة والصبيان في جهة، والغطاء واحد، تحرص على تدفئتهم جميعًا. كان الأمر يضحكني. ها أنا الآن أضطر للنوم على البلاط العاري، وأقدام معتقل آخر قرب وجهي.. ليس الأمر بهذه السهولة.. لكن عليك أن تعتاد كلّ شيء، وتنتظر الأسوأ.. وليس أسوأ من كلّ هذا الذي نعيشه سوى الذل».

حين وصلت المعتقل كانت لحيته قد طالت كثيرًا وشعره قد غطّى جبينه.. أمّا اليوم فقد جاء دور الحلاقة.. لأقل جز الرؤوس، فقد خرج الجميع كما الأغنام في بداية الربيع.. لكنّهم كانوا يضحكون على هيئاتهم، ويتندرون بما صاروا عليه. البرد هو ما طحن عظامنا بعد الحلاقة بالرغم من كلّ المرح الذي افتعله المعتقلون للتحايل عليه.

في اليوم السادس عشر اقتادوني للتحقيق مرّة أخرى.. لم أصدق أذنيّ حين قال المحقق بقرف:

ـ تعال لهون، وقّع على اعترافاتك، وانقلع من وجهي، والله يطعمك أشوفك مرة تانية لخليك عبرة لأمثالك.

لـم أصدّق أيضًا أنّ السـجّان جرّني بالفعل، وسـلّمني لآخرين.. حشـروني في صنـدوق سـيارة، ورموني في طريق المطـار بعد ربع ساعة!

ملاحظة:

كنتُ دائمًا أحبُّ مهنة سـاعي البريـد، لاعتقادي أنّه حامل الفرح والأنبـاء السـعيدة للناس، فهو الـذي يطفئ الشـوق بكلمات الحبّ المرصوفة برسائل ملونة، ويبرّد قلوب الأمهات برسائل المغتربين، ويحمـل أختـام النجـاح والقبول فـي الوظائف، كم كانـت تبهجني تلـك اللهفة الممزوجة بالفرح التي ترتسـم على وجوه الناس عندما يستلمون تلك الرسائل! الآن أمارس هذه المهمة الصعبة، أحمل لكِ رسـالة من نور، لعلّها تحوي في طياتها بعض البهجة يا صديقتي. أم تُراها سـتزيد مسـاحة الألـم؟ حاولي أن تقرئيها وأنت بمزاج حسـن وبمنتهى الهدوء.

ارتجفت يدي، واندلق ما تبقى من فنجان القهوة على ملابسـي، وتساقط فوقه رماد السيجارة، لم أبالِ باتّساخ الأرض، لم أهتم بتلك الرعشـة التـي رافقتني وأنا ألمس لوحة الكمبيوتـر، وأفتح الملف.. نور كتب لي! أهي حقيقة أم مجرد مزحة من حنظلة؟

أوقفـت كلّ تلك الأفكار التي رحت أهـذي بها.. وعيناي تقرآن أوّل سـطر فـي الرسـالة.. أعـدت العبـارة مئـات المـرّات، محاولة

استحضار صوته وهو ينطق بها، كنت أودّ سماعه يحدّثني، تخيّلت ذلك.. لا ليستا عينيّ اللتين تقرآن السطور، إنّه قلبي، بل روحي، بل هو صوته.. نور.. هنا على المقعد المجاور يحدّثني بنبرته الحبيبة...

صباح الخير يا أمّ نور.. صباحك قلبي.. كيف حالك بعدي؟

مرّ عيد الثورة وعيد الأم، وما زلت ألملم جسدي في مربع لا يتسع لطفل في السادسة.. أتذكّر كيف كان هذا الجسد يتمدّد على أرض الصالة في بيتنا الذي تسطع ملامحه مخترقة دماغي للحظات، ثمّ تنطفئ فلا أستطيع القبض عليها ثانية.. مجرد رماد في حلقي، مجرد رماد بين أصابعي.. أيعقل أن أتحوّل إلى مستحاثة كهؤلاء الذين يحيطون بي؟ ما شكل وجهي يا ترى؟ أحاول أحيانًا أن أرسم شكلًا لوجهي لأستطيع أن أعرف على أيّ هيئة صرت؟ على مرّ الأيام التي أحصيها بمنتهى الدقة تحوّل هذا الجسد - الذي كثيرًا ما عشقت كماله وانحناءاته واستقامته - إلى شكلٍ بدائي يجعلني أعتقد أنّ داورن لم يخطئ في نظريته.. قد لا أعرف بالضبط من خلال انحنائي وأنا في طريقي إلى التحقيق إن عدت إلى هيئة القرد التي كان عليها الإنسان البدائي، لكنّي ألمحه من نظرة جانبية إلى هؤلاء الذين يسيرون أمامي في الممرات الضيقة القذرة.

أستيقظ كلّ يوم، لا شيء يشير إلى الزمن، أصواتهم وحدها ما يعطي شكلًا ليوم جديد، تحضرين أمامي كما دائمًا، تحثينني على النهوض: «نور، كفاك نومًا.. أريدك أن تشتري لي بعض الأغراض من السوق». أغفو من جديد ليوقظني صوتك: «نور.. انهض.. أريد بطاقة إنترنت.. الهاتف مقطوع.. نور.. استيقظ.. كفاك كسلًا، انهض أريد أن تصلح لي الحنفية.. نور.. نور.. نور... لون الشمس، وشوارع دمشق، وجبل الزاوية.. رفاق المدرسة والجامعة.. والحلم.. المستقبل الذي بترت ساقاه و... الانتظار

أنتظر صوت السجّان ينادي اسمي لأذهب إلى المحاكمة من دون جدوى! أعلم أنّ ملفي عندهم مليء بكلّ التهم التي تثبت إنسانيتي وولادتي حرًّا.. مع هذا آمل أن يكتفوا باعتقالي كما حدث لبعض رفاقي - ستين يومًا...

أرسم كلّ صباح - في مخيلتي - شجرة خضراء، أوزّع عليها لافتات صغيرة «الأمل.. سوريا.. المستقبل». يمرُّ الوقت ثقيلًا.. محتشدًا بأصوات الجلّادين وشتائمهم ولسع سياطهم على أجساد عارية تنزف في سمعي أنينها وألوان الدّم الحار.. بركة من دم، تتسع وتتسع.. وتنقلب صحراء واسعة.. في وسطها يلوح سراب يعشي العين.. ما بين ضوء وظلّ يتشكّل النهار.. لا أحتاج إلى مخيلة لأراه فثمّة أشياء تبقى أقوى من ذاكرتنا ومخيّلتنا، ثمّة أشياء تسكننا، وتتجسد خارج ذواتنا كما الحقيقة لا لبس فيها.

يصرخ السجان يأمر السجناء بالنوم مع ملايين الشتائم يوزعها على كلّ المهاجع.. نهار آخر قد ولّى مخلّفًا وخزة في القلب وحسرة تحرق الحلق.

يجافيني النوم، صورٌ جديدة تستيقظ في رأسي المثقل بالماضي.. ما قبل العتمة.. الطريق إلى بيتنا، رائحة الأمكنة، شكل الأبواب المفتوحة على لحظة الشروق، النهر لحظة الفيضان، وصوتك لا يني يناديني.. يا نور...

يا أمّي...

تذكرين ليلة الخامس عشر من آذار؟ لا أشكّ أنّها برحت مخيلتك يومًا.. لأنّها تعنيك كما تعنيني. تلك الليلة التي لم ننم فيها، أنا على حافة النهاية وأنت على حافة الانهيار من الألم. كيف أعتذر لروحك عن تلك الليلة يا أمّي؟

في الثانية عشرة ليلًا كنتِ تلفين الشوارع في جولة للتعرف على أفرع المخابرات في المدينة.. لا ألومك على ذلك، وإن كان تصرّفك قد أرهق روحي، وحمّلني فوق طاقتي لأنّي لم أستطع حينها أن ألتمس وسيلة أخبرك من خلالها أين أنا. توقفتِ في البرد وهدأة الليل أمام فرع الخطيب.. أبعدتْ الريح الماطرة شالك عن وجهك.. ولسعك برد ارتجفتْ له ضلوعك.. وهمست روحك «لستُ متأكدة.. ليس هنا». أدرك ما الذي جعلك تذهبين إلى فرع

فلسطين، اعتقالي الأول هناك جعلك تعتقدين أنّك ستجدينني.. كلّ تلك المسافة من الترقب التي قطعتها بلهفة لم تكن ذات فائدة.. لأنّ روحك شعرت بالفراغ والبرد والصمت الذي تقطعه السيارات العابرة بسرعة جنونية لتوقظ فيك حدسًا لم يخطئ «ليس هنا.. بالتأكيد ليس هنا». حين تلكأت خطواتك ونبض القلب قريبًا من «آمرية الطيران» كنتِ تشمين بقايا من رائحتي.. لم تستطيعي التأكيد أنّي موجود، لكنّ قلبك خفق بشدّة.. «كأنّه مرّ من هنا!». لم تخطئي يا أمّي.. كنت قد غادرت المكان عصر ذلك اليوم.. كنت آمل - كما أخبروك فيما بعد - أن يفرجوا عني ذلك اليوم كما أفرجوا عن عدد من رفاقي في المعتقل. أعرف أنّك لم تستطيعي النوم في الثانية صباحًا، وأنّ قلبك بدأ يخفق بعنف، وأنفاسك تضيق، وجسدك يرتعش بقوة.. لم يكن بيدي يا أمّي أن أوقف جنونهم ليستقر قلبك مكانه ويرتاح.. لم أستطع أن أصعد الدرجات، وأغادر ذلك القبو القذر. للأسف يا أمّي ما شعرتِ به كان حقيقة، نعم.. كنت أخطو إلى الغيبوبة تحت التعذيب في اللحظة التي شعرتِ فيها بالاختناق، وشهقتِ، ولم تستطيعي التقاط أنفاسك.. شعرتُ بهذا يا أمّي.. قاومت الغياب لأجلك.. قاومت الموت لأجلك.. خرجت من غيبوبتي، امتلكت الصحو في الثالثة صباحًا، لأمسح الدّمع عن عينيك، وأربّت قلبك لتهدئي وتنامي.

نعـم يـا نـور.. ما حـدث في تلـك الليلة أنّـي نزلت في الشـارع الهـادئ.. تلفتُّ حولـي.. تأملت العتمة في المـكان المحيط بمبنى المخابرات.. كان كلّ شيء يوحي بالترقب والحذر.. رائحة الموت قريبـة مـن أنفي حـدّ تعطن الجـوّ.. على الرغـم من البـرد القارص والصحو التام. ضغط على أنفاسي شـيء ثقيل جدًّا.. جعلني أتقدّم بخطوات سريعة وخفيفة صوب المبنى.. توقفت في وسط المسافة، راقبت الجدران جيدًا والأسـطح والنوافذ.. بدت لي أضواءٌ كثيرة.. تسـاءلت بحرقـة: «تـرى وراء أيّ نافذة هـو؟». لم أنتظـر حتّى أفكّر بنتائـج الخاطـر المجنون الـذي اقتلعني من جسـدي، وحوّلني إلى صوت علا صارخًا وسـط السـكون: «يا نووووور». خلال لحظات شـعرت بحركـة غريبة دبّت فـي المبنـى الضخم، أضواءٌ سـطعت، وأخـرى أطفئت، وحراس تراكضوا في الممرات، وأسـلحة تأهبت علـى سـطح المبنى، وفي السـاحة، وخلف السـور.. ويد أمسـكت معصمـي بقـوة، وجرّتنـي بعيدًا.. خـلال دقائق كانت السـيّارة تطير مبتعدة وحسـام يقول بصوت مرتجف: «ماذا فعلتِ؟ اسـتغنيت عن حياتك أم حياته؟ ألا تعلمين ما سـيفعلون به الآن لو فهموا الموقف جيدًا وعرفوا من أنت؟».

لـم أكـن أمتلـك الصحـو الكافي لأعرف مـا حدث لـي.. لكنّي متأكـدة مـن أمـر واحـد.. أنّـك لو سـمعتني في تلـك اللحظـة لعاد

الصدى بصوتك صارخًا: «أنا هنا يا أمّي». كم وددت لو أنّك سمعت صوتي.. وبعدها ليستقرّ رصاصهم في صدري.. يكفي أن تعلم أنّي أحبّك وراضية عنك، وأنّي هنا قريبة جدًّا.. لن أتركك لهم وفيّ رمق.. ماذا أنتظر؟ ما الذي أنتظره بعد؟.. التفت إلى حسام، وقلت: «أنا الآن مكانه، لن أخذله أبدًا».

***

دامسكو(*)

بصحبة عدد من الصبايا انحشرن في المقعد الخلفي في سيارة حسام توجهنا إلى «حزة». لم أكن أعرف طائفتهن أو انتماءهن السياسي، لكنّ حسام أراد أن يضعني في الصورة الصحيحة لشباب الثورة بقوله: «أودّ أن تعرفيهن عن قرب.. نورا مسيحية تعمل معنا في نقل الملابس من عربين. بتول علوية اختصاصها أدوية وحليب. زينة تجمع تبرعات وهي درزية من جبل العرب.. رباب سُنّية بالتأكيد عرفت ذلك من كنيتها. في المرة القادمة ستكون معنا ماجدولين، سأعرّفك على أروع فتاة مختصة فقط بالحليب!».

لم أعلّق، كان يكفيني أنّ الصبايا كلّهن يعرفن نور، وعملن معه! شعرت في إحدى اللحظات أنّهن أيضًا يعرفنه أكثر مني! ربّما عرفته جيدًا في مرحلتي طفولته ومراهقته، لكنّي لم أعايش تفاصيل حياته

(*) نسبة إلى دمشق، قماش من الحرير الطبيعي تدخل فيه خيوط الذهب والفضة، يصنع منه تشكيلات رائعة. اشتهرت دمشق في أنحاء العالم بصناعته، مما جعل ملكة بريطانيا إليزابيث تصنع ثوب زفافها منه.

وهو شاب جامعي.. الآن وبشكلٍ مفاجئ تتكشف لي شخصية ابني من خلال أصدقائه ومن عمل معهم طيلة سنة من عمر الثورة. لم يكنّ وحدهن.. حسام رافقني إلى أكثر من مكان؛ ليعرّفني على شباب وصبايا، وحتّى نساء متوسطات الأعمار كنّ على اتّصال به أثناء عمله في الإغاثة. كان السؤال الذي يقلقني، ويذبح روحي «هل سيصمد نور أثناء التعذيب ولا يعترف على هؤلاء الشباب؟!».

كنت أدعو خفية في الليل والنهار، وكلّما مددت يدي لمصافحة شخص جديد ممن يعرفون نور بأن يثبّت الله قلبه، ويحميهم! السيّارة تقف كلّ مسافة في الطريق أمام أحد الحواجز، والصبايا يرفعن صوت مسجل السيارة بأغنية هابطة استفزتني في البداية، ثمّ اعتدت سماعها حدّ الألفة! الجنود على الحواجز كانوا يحدّقون في الصبايا ولا يطلبون الهويات. يكتفون فقط بابتسامة وإشارة من أيديهم لمتابعة السير. بتول كانت تضحك، وتقول لي: «رأيت يا خالتي كم هي مفيدة الأغاني الهابطة التي تثير أعصابك؟».

مازحتها: «بل رأيت تأثير ملابسك على الجنود». تضحك بطفولة، وتقول لي: «والله يا خالتي لولا ملابسي هذه لما استطعت تمرير حقيبة الأدوية هذه التي توازي قنبلة موقوتة والمرور بها أمام الحواجز، وإيصالها إلى المشافي الميدانية». قلت بجدية: «فعلتها قبلك جميلة بوحريد.. الحرب خدعة، صحيح أنتن لا تحاربن،

لكـن حتّى عملكن هذا أخطر بالنسـبة لهم من حمل السـلاح، وإلا مـا اعتقلوا من يعمل في الإغاثة، وحاكموه مثل من حمل سـلاحًا». فـي حـزة زرنـا بعـض العائـلات النازحـة، وسـلّمنا المـواد الطبية والمسـاعدات لمجموعـة شـباب مسـؤولين عن تأميـن احتياجات النازحين في المنطقة.. وعدنا قبل المساء.

خلال أسـبوعين من العمل مع الشـباب، تغيّرت نفسـيتي تمامًا، وتحوّل الانتظار المرّ إلى أمل أتشبث به ريثما يمرّ الوقت المنصوص عليـه في قانونهم الذي لا يعترف بقانـون! صباح الحادي والثلاثين من آذار اتّصل بي حسـام، وقال لي: «هناك شـابة من الهلال الأحمر تودّ التعرّف عليك، سنلتقي الساعة السادسة مساءً في كافيتريا نور». أكملت ما بين السـطور.. سـامية شـابة تعمل في الهـلال الأحمر.. سـتفاجئني - كما فعلت باقي الصبايا - بأنّها تعرف نور، وأنّه مدّها بأدويـة وتبرعات وأدوات طبية. لـم أعد أنتظر معلومات يضيفها لي أصدقاء حسـام. حتّى تلك السـيدة التي تسـكن فـي المالكي والتي قصدناهـا مـن أجـل أن تتبـرع بمبلغ مـن المال ثمـن مولـد كهرباء للمستشـفى الميدانـي، فاجأتني بأنّهـا تعرف نور، وأنّه مـرّ بها يومًا، أخـذ بعـض المـال ومـواد عينيـة. وحكت لـي كيف حمل سـجادة «تسـعاوية» مـن الملحق الذي تسـكن فيـه إلى «السـوزوكي» الذي ينتظره في الشارع. كانت تصلي على النبي وهي تروي كيف طواها،

ووضعها على كتفه، ونزل الدرج مسرعًا لعدم وجود أسانسير في البناية! صرت أنتبه حتّى إلى أشجار الطريق، فتقول لي همسًا إنّها تعرفه، وقد مرّ بها يومًا، ومسّت أصابعه لحاءها بحنان! هو هنا في كلّ مكان في دمشق.. الأزقة والشوارع والمقاهي ووجوه العابرين. مع هذا أفتقد وجوده!

مدّت يدها، وصافحتني من دون أن تبتسم.. اكتفت بعبارات ترحيب جافة لا تنبئ عن موقف إيجابي أو شعور بالتعاطف أو المعرفة. كدت أندم لقبولي الدّعوة. شربتُ قهوتي بصمت.. قطعه حسام بتوجيه بعض الأسئلة لسامية.. تحاورا قليلًا.. ثمّ خيّم الصمت ثانية. كنت أراقبها فقط، ملامحها الحيادية، جسدها الضئيل النحيف، صوتها الخافت الملول.. عباراتها المبتسرة.. كلماتها القليلة تترنح عند شفتيها، وتختفي قبل أن تكتمل! استأذنتْ بعد ربع ساعة من دون أن تخبرني شيئًا! نهضتُ أنا أيضًا، وقلت لحسام: «سأعود إلى البيت. أريد أن أرتاح. إن لم يكن لديك عمل في الغد سأذهب لرؤية المحامي من أجل نور». ردّ بسرعة: «لكنّنا لم نجلس بعد، بتول ستأتي الآن». سامية - ومن دون دعوة - جلست مرّة ثانية وهي تقول: «حسنًا نسلّم على بتول ثمّ نمضي». لم أنتبه مباشرة إلى أنّها تكلّمت بلساني أيضًا، وأنّها بذلك تشير إلى أنّي سأرافقها. ببساطة كانت تعني أنّها ستوصلني! بتول دخلت بخطوات سريعة

كعادتها، أثارت حولها زوبعة من الفوضى وهي تخلع معطفها، وترميه على كرسي، وتسحب آخر لتجلس، وترفع بلوزتها الصوفية إلى أنفها، وتشمها بعمق وهي تقول:

ـ خي ما أحلى رائحة المازوت! آسفة تأخرت عليكم.. كنت في طريقي إلى هنا، فاجأني في أوّل الشارع بائع المازوت.. يا إلهي وقعت على كنز، ركضت إلى البيت، تعرفون معنى ركضي أربعة طوابق إلى الأعلى! أحضرت «كالون»، ملأته، وصعدت ثانية، ولوثت ملابسي، ولم أجد وقتًا لتغييرها، لكن لا يوجد مشكلة، بالتأكيد رائحته أفضل من العطر.. ليس أيّ شخص يستطيع أن يحصل عليه، أليس كذلك؟ كيفك سامية؟ صحيح أنّك تعملين الآن في الزبداني؟ قال تعرضت لحادث؟ -أي حسام- شفت صديقك أحمد؟ الله لا يعطيه العافية.. تركني أنتظره ساعتين على الرصيف، ولم يجلب الدواء، وراحت على الشباب. يخرب بيته كمان موبايله خارج التغطية، أتصل به ولا يردّ ابن... لن أتعامل معه ثانية.. الله يرحم أيام نور كانت مواعيده على الدقيقة.. شفتِ يا خالتي؟ والله ما بيجوز.. في ناس بتموت بفرق دقيقة بالموعد.

لم تكد بتول تتوقف للحظة لترشف قهوتها، حتّى نهضت سامية، وقالت: «خالتي أنت على طريقي، سأوصلك، وأذهب إلى

عملـي». قلت باسـتغراب: «عمل في هذا الليـل؟!». قالت: «عملنا ليس حكوميًا كما تعلمين».

فتحـت لي باب السـيارة، ثمّ ركبـت هي. في الطريـق قالت لي: «خالتـي أنـا لا أجيد الكلام. الله يفكّ أسـر نـور كان مثل أخي. قال لي حسام إنّك ترغبين في مرافقتي لتري بنفسك كيف نعمل في هذه الظروف، وأنا مستعدة لأخذك معي إلى أيّ مكان تريدين. سأمرُّ بك غدًا صباحًا».

في الصباح لم تتأخر سـامية، قبل أن أنهي قهوتي كان هاتفي يرن معلنًا عن وصولها. لم تكن في سيارتها، بل في سيارة الهلال الأحمر.. السائق الصامت ردّ على تحيتي بتحريك رأسه، وشغّل راديو السيارة على محطة الإف إم.. أكثر شيء يثير أعصابي عندما أركب مع سائق تاكسـي هـذه المحطة التي تذيع أخبـارًا من العهد البائـد، وكأنّي لم أغادر الثمانينيات من القرن الماضي.. اللغة الخشـبية ذاتها، الكذب الفاضح نفسه، الموسيقا لا تتغير، ثمّ يخرج صوت لا يمكن تصنيفه تحـت أيّ بنـد غير «أنكر الأصوات» ليجعـر من حبك يا كبير! لم أعرف مـن الكبير المقصـود بالضبط.. فما أعرفه مـن صفات للفأر لا يمكن أن يجعله كبيرًا في حال من الأحوال. ابتسمت سامية لأوّل مـرّة منـذ تعرّفت عليها، وقالـت، وكأنّها قرأت أفكاري: «سـامحينا خالـة نحن مضطرون.. سـنمر على حواجز كثيرة لا نريد أن نخسـر

أبا أحمد. الأسبوع الماضي فقدت خيرة المساعدين، أحدهما استشهد، والثاني اعتقلوه، والآن كما ترين.. أعمل مع فتاتين متطوعتين تعلّمتا التمريض على عجل، والوضع سيئ أكثر ممّا تتصورين». بالتأكيد لم تكن مخيلتي تستطيع رصد الأسوأ، فقد كنت أظنّ أنّ ما رأيته، وسمعته منذ وصولي دمشق، هو الأسوأ، بعد أن عايشت الواقع بعيدًا عن شاشة التلفزيون!

كانت النسمات الباردة على مدى السهول والجبال تلامس وجهي بلطف، كم كنت أودّ لو أنّ زيارتي الأولى للزبداني مصحوبة بذلك الجوّ الحالم لأغاني الستينيات، قطار الغوطة.. أغاني الصباح لفيروز وإنعام صالح و...

لا أعرف كيف برز الحاجز على الطريق، وأومأ لنا بالتوقف. سامية اعتبرت الأمر عاديًّا، فالكثير من الحواجز «الطيّارة» تنبت فجأة على أطراف الطرق، ثمّ تغادر بسرعة بعد مهمة مستعجلة! أبو أحمد شتم بصوت خفيض، وفرمل بسرعة كي لا يتجاوز الحاجز. فتح أحد الجنود الباب بعنف، وأمر السائق: «انزل». لم يسأل عن هويته، ولا إلى أين يتوجه.. ضربه بعقب البندقية، ورماه على الأرض مع شتيمة طالت أمّه وربّه وطائفته. كيف عرف طائفته؟! استدار أحد الجنود، وفتح الباب من طرفنا، وأمرنا بالنزول. لا أنكر أنّ ضغطي انخفض فجأة، وشعرت بجفاف حلقي ودوار بسيط

تحايلت عليه بالاتكاء على الباب. أحدهم سخر مني: «شو يا خالتي طالعة مع الجيش الحر وأنت ما بتقدري تمشي؟». ردّت سامية بثبات: «لسنا مع أحد. نحن من الهلال الأحمر نسعف الجرحى أينما كانوا». قال ساخرًا: «أي بعرف أنكم من الهلال الأحمر، شايف السيارة ولا شايفتيني أعمى؟ خدهم.. سأبول عليكم وعلى هذا الهلال»، وأومأ لأحد الجنود الذي جعلنا أمامه بقوة رشاش صوّبه إلى رؤوسنا. ماجدولين وزينة كنّ يرتعشن، ارتعاشهن تسرّب إلى قلبي.. قلت لهنّ بصوت مسموع: «لا تخفن يا بنات، الجندي أخ لكنّ، مجرد إجراءات احترازية فقط». الجندي الموكل بمهمة اصطحابنا إلى فيلا بين البساتين، قال بصوت هامس: «معك حق يا خالتي، والله أنا مجبر لا تؤاخذيني كرمى لله». لم أعلّق، فقط شعرت ببعض الاطمئنان، وقلت لسامية بعد أن أصبحنا في الداخل، وأقفل الباب علينا: «ربّما يحتاجون السيارة، لهذا أنزلونا منها، أظنّها بضع ساعات، ويطلقون سراحنا مع السيارة». سامية لم ترد. جلست في ركن بعيد، ولفّت جسدها بمعطفها، وغفت! لم أكن أعلم حينها أنّها مرّت بمواقف مشابهة، وأنّها تعرف عادة أنّ الأمر سيطول ربّما أكثر من توقعاتي!

الوقت مرّ بطيئًا.. قضيناه في حالة قلق وتوتر أنا والفتيات الثلاث. ولم نجد بُدًّا مع تسلّل المساء من التسليم بأنّنا سنقضي الليلة في هذا المنزل المنعزل من دون طعام وسط برد يقرض العظام. سامية

كانت عملية أكثر منا، فتشت البيت، وعادت بوسائد وأغطية خفيفة، وقالـت: «يبدو أنّهم نهبوا كلّ شـيء، لم أجد في المطبخ حتّى ركوة قهـوة أو فنجانـا، تصوري.. حتّى الرخام اقتلعوه، كسـروا الأبواب، وحرقوها.. يبدو أنّهم كانوا يستخدمونها للتدفئة!».

الأغطيـة التـي أحضرتهـا كانت قـذرة لا تصلح حتّـى للجلوس فوقهـا.. فكـرة إشـعال الخشـب المتبقي مـن الأبواب كانـت فكرة معقولة هزمنـا بها البرد، وأضاءت لنا فسـحة الخوف، فطردنا جزءًا منـه خـارج جـدران الفيلا.. ولـم نشـعر، ونحـن في غمـرة أحاديثنا إلّا والصباح يمدُّ رأسـه من النوافذ الواسـعة المسـيجة بالحديد من الخـارج! حينها غلبنـا النوم، ولـم نصحُ حتّى المسـاء. لـم يكن البرد وحده ما وخزنا لنسـتيقظ، بل الجوع أيضًا. في حقيبة كلّ واحدة من الفتيات بضع بسـكويتات وأصابع بطاطا استهلكنها البارحة.. اليوم مـن أين نأتـي بالطعام؟ لم تجرؤ إحداهن علـى التصريح برغبتها أو جوعها.. كنا جميعًا نفكّر بأمر واحد كيف سنخرج من هنا؟

مـع دخول الليلـة الثانيـة، تضخم إحساسـنا بالخـوف مصحوبًا بالجـوع والتوتر. إحـدى الفتيات صارت تضـرب النوافذ، وتصرخ مسـتغيثة بـأيّ مخلـوق.. فـي الثامنـة مسـاءً وصل سـمعنا أصوات رصاص مـن الجهة الشـمالية. صرنا نتسـلّى بتحديد نوع السـلاح،

ونخمّن إن كان للجيش الحرّ أم لقوات النظام؟ إحدى الفتيات صعدت إلى سطح المنزل، وعادت مذعورة وهي ترتجف. قالت: «ظننت أني سأحصل على تغطية كي أستطيع الاتصال بأهلي؛ لكن لا يوجد تغطية في المنطقة كلّها على ما يبدو، والسماء تشتعل من كلّ الجهات.. هناك قصف مدفعي، الأمر لا يقتصر على اشتباكات بأسلحة يدوية». جدران المنزل تثبت ذلك فهي ترتعش مثلنا! ماذا يحدث هناك؟ ما مصير «أبو أحمد»؟ هل سيقتلوننا؟ أم أنّهم نسوا أمرنا بعد أن أقفلوا الأبواب علينا؟ الفتيات لم يتوقفن عن طرح الأسئلة، وأنا لم أجد جوابًا شافيًا لأيّ سؤال، فاكتفيت بالدّعاء فقط.. ولم تعد بي رغبة لتبادل الحديث معهن. الوهن بدأ يتسلّل إلى أطرافي، ليس دوارًا ما أشعر به، بل جسدي يغوص عميقًا في لجة، تبعدني عمّا حولي، فلا أكاد ألمح وجوه الفتيات.. أذناي تفقدان المقدرة تدريجيًا على التقاط أصواتهن. فجأة يهتز جسدي، وأسقط أرضًا.

في البداية شعرت كما في الحلم أنّي لن أستطيع النهوض، وأنّ صوتي المكتوم لن يخرج من حنجرتي، وأن لا أحد سيمدُّ يده ليسحبني من الهاوية. لكن ما حدث أنّ القذيفة التي سقطت قرب الفيلا.. جعلتنا جميعًا نبطح أرضًا رغمًا عنا، وأنّ الضوء الذي أبهر أعيننا للحظات، شقّ السماء مصحوبًا بمطر غزير لم يسبق لي أن

رأيته هـذا العام. الفتيـات المذعورات نهضن بسـرعة، واقتربن من النوافذ، ورحن يصرخن: «أخرجونا من هنا». كان الليل قد انتصف، والرعد لم يتوقف، ساهم أيضًا في إكساب الليلة المظلمة مسحة رعب إضافية. المشهد بمجمله قد يبدو منطقيًّا في فيلم تشاهده وأنت جالس قرب مدفأة في ليل شتائي تشرب شيئًا ساخنًا، وتتناول ذرة مشوية! أمّا أن تكون داخل الحدث فالشعور سينقلب من متعة المتابعة إلى الذعر من النهاية!

مع ساعات الصباح الأولى عدنا للتشبث بالأمل خاصة وأنّ أصوات القذائف والرصاص قد توقفت نهائيًّا. في العاشرة تقريبًا سمعنا أصوات أقدام تقترب من المنزل وأصوات جنود يتناقشون بأمر ما نقاشًا رافقه إطلاق رصاص! وصرخة اخترقت قلبي، فجمعتُ الفتيات ورائي بحركة تلقائية.. الأقدام توقفت عند الباب.. إحدى الفتيات همست: «هل سيقتلوننا.. أم...؟». كلُّ واحدة منا كانت تسمع دقات قلب الأخرى، وعيوننا تحدّق بالباب الذي اخترقته رصاصة، وانفلت قفله بسرعة، وانفتح مظهرًا عددًا من الجنود، قد صوبوا أسلحتهم إلى الداخل. يبدو أنّ منظرنا قد أذهلهم حتّى أنّ أحدهم رمى رشاشه أرضًا وهو يكبّر.

قائدهم أمر بإحضار ماء وطعام من دون أن نطلب شيئًا أو نتكلّم، وتقدّم ليسلّم علينا. كادت المفاجأة توقف دقات قلبي.. مددت يدي

وأنا أغالب دمعة نزلت رغمًا عني. همستُ: «يا بني». قبّل يدي، وهو يهمس أيضًا: «يا أمّي».. ثمّ استدار مسرعًا بالخروج، وهو يعطي تعليماته بتأمين سيارة ومرافقتنا حتّى أقرب نقطة من دمشق. كانت تلك المرّة الأخيرة التي أرى فيها «أبو المجد الدوماني!».

قبل أن نصل الطريق العام حيث أخذوا منا سيارة الهلال الأحمر.. رأيته. وللمرّة الثانية توقف قلبي عن الخفقان.. كانت جثته مرمية على أطراف البستان، وقد اخترقت جمجمته رصاصة من الخلف ويده تتشبث بكيس طعام! اقتربتُ منه.. قلبي أخبرني أنّه كان يحمل ذلك الطعام لنا.. ناديت أحد الجنود الذين أنقذونا، ورجوته:

ـ ادفنه يا بني تنل ثوابًا، أقسم كان طيبًا مثلك.. قال لي: سامحيني يا خالتي. أنا خالته.. وسامحته.. أرجوك ادفنه.

الجندي وضع سلاحه جانبًا وهو يقول:

ـ أمرك يا خالتي، سامحينا نحن أيضًا.. الله يسامحنا، هم أخوتنا يا خالتي، والله نحن لا ننوي قتلهم، لكنّنا مضطرون مثلهم. والله نحن لم نقتله.. خذي يا خالتي هذه هويته وموبايله ربّما تستطيعين إخبار أهله عن مكان دفنه.

لـم يكن مفاجئًا لي أنّ المجند الـذي قتله زملاؤه أو قائدهم كان من محافظة إدلب. مجرد مجند يقوم بالخدمة الإلزامية!

حين وصلتُ الحي كان جمال يتمشـى قريبًا من المشاتل مع ابنة عمه. ركض نحوي، سألني بلهفة: «أين كنتِ يا خالتي؟ شغلتِ بالنا. أمّي لم تترك أحدًا ممن تعرفهم إلّا وسألته عنك». أم جمال زغردت حين خطوت داخل البيت، ودمعت عيناها، وهي تحتضنني، وتقول: «الحمد لله على سـلامتك. شـغلت بالنا. اليوم طبخت ورق عنب، وقلت لنفسي، ستأتين حتمًا، وتأكلين معنا، لم يخب حدسي أبدًا».

في المسـاء الشـحيح الدفء نقرت نافذتي حبّات مطر خجولة، نهضت لاسـتقبالها.. تمشـيت قليلًا على السـطح. راقبـت البيوت الهادئة وسط جوّ مريب لا يثبت على حال. المشاتل البعيدة أومأت لي بتحية الخضار الذي لا تستطيع قوة القمع اعتقاله مهما حاولت. يغسلني المطر، أتعرّى من أحزاني، وأحتشد بكلّ الصور القادمة من زمن الحبّ.

قبـل أن أنـدس في فراشـي، وأستسـلم للنـوم، رنّ هاتفـي معلنًا عـن وصول رسـالة، حسـام كتب لي: «شـغلتِ بالي يـا أمّي عرفت أنّك وصلت بالسـلامة، أخبرني جمال. سـأمرُّ بـكِ غدًا لنذهب إلى المخيّم». عشرات الرسائل مع رسالته «بتول، زينة، نورا، صباح...

ورسالة من رقم غريب يقول: «خالتي أمّ نور، أريد أن أراكِ لأمر هام، أنا نائل كنت مع نور في المخابرات الجوية».

لـم يكن نائل أوّل شـخص خرج من المعتقـل واتصل بي حاملًا خبـرًا من الداخـل يطمئنني.. لكنّ قلبي غصّ، وتشـنجت عضلات صـدري، وضاق تنفسـي قبـل أن أكتب ردًّا لنائل. لم أسـتطع النوم. قلبي حدثني أنّي سأراه، سأرى نور.. كنت أرسـم صورة لنائل وكأنّه نـور! متناسـية أنّي فعلت ذلك حين اتصل بي أبـو أحمد الحداد منذ شـهر طالبًـا أن يلقانـي، وأخبرني أنّـه كان معتقلًا مع نـور في آمرية الطيـران. أبو أحمد قال إنّهم لم يضربوه كفًّا، وإنّه في أحسـن حال، وينتظر دوره فقط، وسـيفرجون عنه قريبًـا.. أبو أحمد الذي تحدّث عـن القمل والجرب والأمـراض الأخرى التي أصابتـه في المعتقل نسـي أنّه كذب في البداية حين كشـف عن سـاقه ليريني ماذا فعلت تلك الحشـرات الرهيبة به.. ورأيت حينها آثار «الكف».. ابتسـمت رغمًا عني.. وقلت: «حقًّا حشـراتٌ رهيبة.. لا شكّ أنّها بحجم ذكر يشـبه البشـر في شـكله!». أبو أحمد الإنسـان البسـيط الذي لم يقرأ كتابًا في حياته طلب مني أن لا أكتب شـيئًا غير حقيقي عن البسـطاء أمثاله من الحدادين والحرفيين، وطلب مني زيارة بيته المتواضع في جوبر. كان يشـعر بالخجل، وهو يقول إنّه لا يملك سيارة ليصحبني إلى هناك، لكن عنده «طرطيرة» وهي لا تناسـبني. ضحكت، وقلت

له: «بل هي عز الطلب، يشرّفني أن أزورك، وأركب الطرطيرة لأنّها بصحبة رجل مثلك ستكون أفضل من المرسيدس». لم يصدق ما قلته، كان يعتقد أنّي لا أتنازل وأصحب شخصًا مثله على الرغم من أنّ نور أخبره أنّي كتبت رواية عن الحدادين، وأنّي أعرفهم جيدًا. لم أبحث طويلًا في نقاط الشبه بين نور وأبي أحمد، يكفيني أنهما بقيا شهرًا كاملًا في مكان واحد يتقاسمان الألم والتفاصيل اليومية للحياة داخل المعتقل.

تقلّبت في الفراش كثيرًا، ثمّ خرجت من الغرفة. لسعني الهواء البارد، وأيقظ حواسي كلّها.. كيف سأنام؟ متى ستمضي الليلة؟ كيف سيكون شكله؟ ما هو الأمر الهام الذي طلب رؤيتي لأجله؟ لو أنّ الأمر يتعلّق فقط بخبر يستطيع أن يقوله على الهاتف.. أم تراه يخاف من الكلام على الهاتف؟ لا شكّ أنّ الأمر كذلك. أراحني التفسير قليلًا.. وغفوت بضع ساعات.

قبل الموعد بساعة كنت في نادي الصحفيين أنتظر نائل.. أمضيت الوقت في تأمل وجوه القادمين، وتخمين أيّهم نائل. خفق قلبي فجأة حين ظهر من المدخل المعتم شابٌّ طويل القامة نحيل الجسد. اختلط عليّ الأمر.. لا شكّ أنّه نور.. لو كان أكثر امتلاءً.. لو هو نائل بلا شكّ.. نهضت لأسلّم عليه.. ابتسم بارتباك:

ـ كيف عرفتني يا خالتي؟

هو قلبي.. كيف سأشرح لنائل الأمر؟ رحت أتأمل وجهه علّي أجد ملامح نور. أمسكت بيده، وغصصت بالكلمات.. قلت بثبات:

ـ اعذرني يا بني.. أودّ أن ألمس يد نور، لا بدّ أنّه وضعها على يدك طويلًا.

تنهّد الشاب، وهو يقول:

ـ طويلًا يا خالتي.. لم يتركها أبدًا. اعتقلت مرتين، في المرّة الأولى رأيته في آمرية الطيران. نظر إليّ أثناء التحقيق نظرات غريبة أخافتني. ظننته من رجال المخابرات حين سألني عن اسمي؛ لكنّه أخبرني أنّه رآني في مظاهرة المثقفين بالميدان. ارتحت له كثيرًا، وهوّن عليّ مدّة الاعتقال التي لم تتجاوز الشهر.. ثمّ أفرجوا عني.. الثانية كانت في المخابرات الجوية، بعد أن أنهوا التحقيق معي، ودفعني السجّان إلى الزنزانة. شعرت أنّ روحي ردّت إليّ حين رأيته.. تعانقنا طويلًا، وبكيت، فقد شعرت أنّي وجدت أخي وأهلي!

كنتُ أنصت لحديثه وقلبي يتمزق، نائل لم يحاول الكذب عليّ، لم يُخفِ الحقيقة. حدّثني أنّه عاد من جلسة التحقيق الأولى وهو

يبكـي، وقال له إنّه لا يبكي من التعذيب، بل من الذل الذي يعيشـه. ليلتها سهر بجانبه حتّى الصباح وهو يحاول التخفيف عنه. كما فعل نـور معه حين جاء دوره بالتحقيق.. قال وهو يحاول أن يبقي نبرات صوته ثابتة:

ـ بعدهـا نقلونا إلـى الفرقة الرابعة. كنا نظـن أن الموضوع انتهى عنـد هذا الحـد، لكنهم أعـادوا التحقيق معنـا من جديد. يـا خالتي كانـت الأمور هيّنة فـي البداية، لكنهـم أرادوا أن يفتح صفحته على الفيس بوك، ولم يسـتطع لأنّها مغلقة، واضطر لإعطائهم إيميله. لم يفطن إلى أنّ إيميله فيه رسـائل من تنسـيقيات، وأنّ ذلك سـيضره.. لـن أكذب عليك يا خالتي عذبوه كثيرًا لأجل ذلك. ولم يسـتطع أن ينكـر، ولهذا احتفظوا به.. حيـن جاء دوري بالتحقيق.. نلت نصيبي منهم، عدت محطمًا.. جسدي تورّم، ولـم أعد أستطيع الوقوف على قدمـي. وكنـت أرتجف من البـرد.. خلع بيجامته، وألبسـني إياها.. مسـح جروحـي، ودلّك أماكـن الورم.. كانـت أصابعه مثل بلسـم، هدّأ ألم جسـدي وروحـي. في الصبـاح التالي بعد الفطـور، جاءوا وسـحبوه مع تسعة شـباب.. وكانت آخر مرّة أراه! خالتي.. يؤلمني أن أقول لك ذلك.. لكن يجب أن تعرفي لترتاحي.

أضاف بارتباك، وهو يناولني كيس نايلون:

ـ خالتي أرجوك لا تفتحيه الآن.

حيـن أغلقت باب غرفتـي كان قلبي يرتجـف، وعيناي ممتلئتان بالدموع.. أصابعي المرتعشة فضّت الغلاف الورقي عن أغلى هدية وصلتنـي في حياتـي.. ضممتها إلى صدري، وبكيـت طويلًا.. متى ستخرج يا نور، وترتدي بيجامتك؟

*****

فـي العاشـرة تمامًـا رن هاتفـي معلنًـا عـن وصـول حسـام... كالعـادة كانت بتـول وزينة تنتظران في المقعـد الخلفي، وهما على أتمّ الاسـتعداد لمخاتلـة الصباح الرمادي بضحكـة من القلب. هذه زيارتي الثانية لمخيّم اليرموك بعد اعتقال نور، وقد قرّرت أن أصعد إلى البيت لأزور العائلة التي سكنته.

لمحته قادمًا من بعيد وأنا أغلق باب السـيارة. سـلّم على حسام، ووقفا بعيدًا يتحدّثان.. شـاب في الثلاثينيات، متوسـط القامة نحيل الجسـد، يميـل قليلًا أثنـاء المشـي، ويسـند سـاقه بيـده! قدّمـه لي حسـام على أنّه الشاب المسـؤول عن تأمين حاجيات النازحين من حمص إلى المخيّم. المفارقة المؤلمة.. نزوح سـكّان مدن مسـتقرة وعريقة داخل بلاذهم إلى مخيمات اسـتقبلت قبل عشـرات السنين الفلسطينين النازحين!

سـلّمت على الشـاب، وحدّقـت في ملامحـه الباهتـة الجامدة. قـال باختصـار وبشـكل آلـي: «نحتـاج الآن مبلغًا من المـال لأجل

ولادة سيدة في المستشفى القريب. كنت أخبر أخي حسام بذلك، تستطعن انتظارنا عند أم أيمن فوق ريثما نزور السيّدة، وندفع تكاليف المستشفى».

كنت أعرف أن حسام حتّى تلك اللحظة التي وصلنا فيها إلى المخيّم لم يكن يملك سوى بضعة آلاف لا تكفي تكاليف الولادة. سألته همسًا: «كم تحتاج؟». ردّ بابتسامة: «لا تشغلي بالك سأتدبر الأمر، سآخذ منك إن احتجت». لم أقتنع.. رافقته إلى المستشفى. هناك رأيت كيف يستمرّ أهل حمص في الحياة متجاهلين كلّ ما مرّ بهم! حماة الوالدة الشابة وأمّها استقبلتانا بالترحاب والحلوى. حماتها حلفت يمينًا كي نشرب قهوة! ولم تكف عن الابتسام والحديث عن الظروف القاسية، وكأنّها تحكي عن مسلسل يعرض على شاشة أو حدث عاشه آخرون في بلد بعيد. حملتْ المولودة، وأرتنا إياها، وسألت بتول عن اسمها، وقالت: «أحببتك، كنا سنسمي المولودة حلا، اسمك جميل.. سنسمي الصغيرة بتول». دمعت عيناي.. ليته كان صبيًّا ربّما أطلقت عليه اسم نور! قبّلت الصغيرة، وأنا أمسح دمعي.. وغادرنا المكان بسرعة على الرغم من إلحاح الأمّ والحماة بأن نبقى أكثر.

في الشارع كان حسام ينتظرنا برفقة الشاب الذي استأذن ليسبقنا إلى البيت. مرّة أخرى حدّقت في وجهه.. هناك شيء غامض يحيرني،

هل يشبه أحدًا أعرفه؟ لماذا يسند ساقه بيده أثناء المشي؟ سألته: «هل أنت مصاب؟». ردّ: «ليس مهمًّا، كلّنا مصابون. إصابتي ليست مميتة». قبل أن نصل البيت سألت حسام: «أين أصيب؟». قال لي: «تسع رصاصات يا أمّي في جنبه وساقه». شهقت: «يا إلهي!». أكمل حسام: «كان يعمل مسعفًا في «بابا عمرو»، أطلقوا النار على سيارة الهلال الأحمر، استشهد اثنان من زملائه، وأصيب هو. حملوهم إلى المستشفى، ووضعوهم في الممر، جثث فوق بعضها على عربة. ظنّوه ميتًا، لكن في الطريق إلى الدفن استطاع أن يهرب. رفاقه من الجيش الحر أسعفوه، وهرّبوه إلى دمشق. يحتاج الآن لعمل جراحي لاستبدال السيخ الحديدي في ساقه.. على ما يبدو أصابه الصدأ». ضحك حسام والصبايا على طرفة سيخ الحديد.. لكنّه انغمس في قلبي عميقًا.. إذن كنتُ أمام «أبو رامز» وجهًا لوجه، ولم أعرفه!

أم أيمن استقبلتني بترحاب، وأجلستني فوق «كنبة» صنعتها من ترتيب الفرش فوق بعضها. قدّمت لي برتقالة مقطعة بشكل جميل، واعتذرت عن تقديم القهوة لعدم وجود غاز! حدّثتني عن الظروف الصعبة لـ«بابا عمرو» التي جعلتهم يتركون بيوتهم، ويقصدون دمشق. قالت بنبرة خجولة: «الله يحمي لك نور، ويردّه بالسلامة. جهّزت لكِ حقائبه والأحذية.. وهنا في الكيس بضعة كتب». تناولتها من يدها، قلّبت صفحات رواية بالإنكليزية كان يقرأ

فيها على ما يبدو، ولم يكملها. وجدت فيها ورقة بيضاء كتب عليها بخطّ يده رسالة إلى حسام:

«حسام، في حال أتيتَ ولم أكن هنا، وكنتُ قد عَرَجْتُ .. قل لهم أن يملؤوا البيت أغاريد... وأنا سأقول لهم إنّهم كانوا عيدًا لنا ولكلّ من سيأتي بعدنا..

محبتي للجميع».

حبست دمعي، ربّما للمرّة الألف، لم أعد أهتم بالعدّ.. أغلقت الرواية، واعتذرت من أم أيمن، وخرجت مع الصبايا صوب نادي الصحفيين. هناك كانت صديقتي صباح تنتظرني.

***

اللبّون

فتحـت صفحتـي علـى الفيس بـوك لأكتـب لحنظلـة عتابًا على تخلّفه عن الموعد، فوجدت رسالتين..

الأولى من نورس، كانت تحمل تاريخين، أحدهما نسـخ ضمن الرسالة، والتاريخ الثاني يحوي ملاحظة يقول فيها:

أمّي سأسافر بعد غدٍ، كنتُ أحبُّ أن أراك قبل سفري.. لكن كما تريـن لم يبقَ لديّ الوقـت الكافي. التفاصيل في الرسـالة التي أعيد إرسالها لك اليوم، فقد تعذّر الإرسال في المرة الماضية!

(قـرّرت أن أصنع فيلمًـا يتناول الحادثة الأبرز فـي رأيي منذ بدء الثورة، مرسوم العفو الصادر بحق المساجين، كلّ من ارتكب جرائم بحق الإنسـانية والدولة، التزوير والقتل والسرقة والاغتصاب.. كلّ من لم تتلطخ أيديهم بالدماء! لم يطلق سـراح أحد من السياسـيين! الاعتصام في سجن المسلمية أثار حماسي، ودفعني لاقتراف مغامرة قـد تبدو حمقاء في نظر كثيرين. الصـورة التي رأيتها على اليوتيوب صفعتني بعنف.. صورة زملائي في سجن حلب!

لـم تكـن يد الجريح أوّل شـيء أراه فيها، بل إبريق الشـاي الذي كنّا نتحلّق حوله لنشـرب من فوهته! إبريق الشاي ارتبط في مخيلتي بصـوت صفير القطـار الذي حملنـي مرارًا خارج جدران السـجن، فرافقتـه عبر الحقول الشاسـعة والمدن الصغيرة المنسـية حتّى يعبر الحـدود التركيـة! لـم أكـن أعرف تلـك المـدن ولم أركـب القطار مـرّة إلى تركيا، لكن كنت أرسـمها بدقة؛ تلك المسـافة التي يجري فيهـا خارج حدود الوقـت الذي حاصرنا، والزمـن الذي نحاول أن لا نرتهـن إليه، بل نعيشـه بكلّ تفاصيـل المتعة المفقـودة! أن تفتقد الحيـاة فـي الخـارج، ولا تسـتطيع خلـق عالـم يوازيهـا، تلـك هي المصيبة الكبرى داخل السـجن، والتي لم أعانِ منها بسـبب حضور الذاكرة الحادّة والمخيّلة التي تسبغ على الوقت الممل كلّ التفاصيل التـي حاولوا خطفها مني، حين زجونـي داخل تفصيل صغير لمربع لا يتسع للحلم، ويضيق به الجسد. همسَ الصفيرُ الأخير للقطار بأنّ موعـد غياب الشـمس قد حان.. إنّه المسـاء بألوانه الدافئة.. سـيبدأ الليـل، سـنخلد إلـى النوم، سـنحمل أطيـاف العالـم الخارجي إلى أحلامنا.. وسـننهض من جديد على صفير القطار ليقول لنا: «ها قد عدت.. بدأ نهار آخر».

أوّل مرّة سـمعت صوته قمـت مفزوعًا من نومي. كنت وقتها في القبـو، أتقلّـب فوق البلاط والبـرد يقرض أطرافي، والسـعال يخلع

أبواب الصدر، ويتركها مفتوحة للريح الباردة والألم.. صفير رافقه صوت سيارة إسعاف! دقاتٌ عنيفة رافقت كلمات لا أدري كيف صرخت بها: «أوقفوا ذلك القطار».

يوم غادرت القبو إلى قسم المساجين السياسيين صار لصفيره إيقاعٌ مختلف.. كان الوقت صباحًا حين عبرت الباب الأوّل، وأصبحت في فسحة يحتلُّ يسارها أسرّة السجانين ويمينها الحلاق.. سحنة السجّان تكاد تكون واحدة في كلّ السجون! أمّا الحلاق فلا يختلف عن الصورة الكاريكاتورية التي رسمها حسيب كيالي له في أجمل قصصه. العجيب أنّ هؤلاء الأشخاص لا يتطورون مع الزمن، بل يحافظون على التراث وإن اختلفت أدواتهم التي يستخدمونها في جزّ الرؤوس!

خلف الباب الثاني كانت المهاجع تحمل ترتيبًا غريبًا بحسب أجناس قاطنيها.. أوّل مهجعين للسجناء الأكراد، والباقي للإسلاميين السياسيين، وفي الصدر فسحة استخدمها السجناء مسجدًا ومكانًا للاجتماعات يلقون فيها الخطب. هنا عرفت أنّ ثورتهم أقدم من ثورتنا، وأنّهم يتمتعون بصبر يتفوّق على حياة السجن والسجانين، هنا لمست كم هم ثابتون وأقوياء لم تُلن عزيمتهم قضبان الزنازين ولا ما تعرضوا له من اضطهاد.. إنّه الإيمان. بمقدار ما يكون الإيمان قويًّا بقضية ما، يكون التحمّل. لم يقتصروا على الخطب

والصلاة والنقاش، بل كانوا يلصقون أوراقًا تحوي اليومي من الأحداث ومقالات عن الظلم والاضطهاد، وتعليمات عن احترام الآخر. كانوا يتحدّثون في كلّ شيء.. الدين، والدولة، والمجتمع.. لم يكونوا يهتمون بالسجانين، ولم أشعر أنّهم يخشون أحدًا، بل على العكس كانوا يتصرّفون بحريّة لا تتوفر خارج السجن، ربّما لأنّهم كانوا يعرفون مصيرهم، وقد صدر الحكم بحقّهم، وانتهى كلّ شيء بالنسبة لهم! ولهذا السبب أيضًا كان مدير السجن والسجّانون يغضون النّظر عنهم! كنت بينهم خارج المكان والوقت، أعيش ذاكرتي، محاولًا استعادة ذاتي، ومعرفتها بشكل أعمق.

الذاكرة جزء حقيقي من وجودي كشخص. هو جزء من الآخرين الموجودين في تلك السجون، حتى أنّ تلك الذاكرة المتعبة اللعينة، هي ما يجعلني أغوص في مقاطع معينة من الزمن، أتجاوزها أحيانًا، فأحلّق خارجه تمامًا.. أعوم في بحيرة لزجة ساكنة، حتّى الحجارة لا يمكنها أن تحرّك ذلك المستنقع اللزج.. لا حجارة الأفكار، ولا حجارة الوقت.. مع أنّي مؤمن أنّ الإنسان يمتلك - بالتذكر - جزءًا من وعيه ويعيد إنتاجه. لذاكرتي خصوصية، تجعلني أتعمّق في ذاتي كثيرًا، وأحبّها.. ذلك الحبّ هو الذي ينتجني في صور متعدّدة تخدم الكاميرا والنص الذي أخرجه.. فأراني أعتمد - وبشكل خفي - على تلك الأحداث التي عشتها في صباي والأماكن الّتي مررت بها.. أحيانًا يتشكّل الشارع والجسر بصور متعدّدة تأخذ

ملامح مـن الواقع وأخرى من الذاكرة التـي تخدعني أحيانًا بإضافة لمســات خفيفة، فتضيف شـجرة أو ظلًّا، أو ترفع منسوب الماء في النّهر تحت الجسر. هذا المكان الذي كان في الواقع شاحبًا ولا روح فيـه، تمنحـه الذاكـرة المخاتلـة ألوانًا دافئـة وظـلالًا، وتضفي عليه توهجًا يبـدو لي حقيقيًّا مع يقيني المسـبق أنّه لم يكـن كذلك.. فأنا أعـرف جيدًا أنّي حين مررتُ هناك كانت السـماء صافية لكنّها جافة تمامًا، الأرض سـاخنة من بقايا حرائق الحصاد. الجسر البعيد مقفر من الناس، والنّهر شـحيح الماء، ورائحته مزعجة، وكمٌّ لا يسـتهان به من البعوض متراكم على الصفحة اللزجة للشـاطئ. حين صورت الفيلـم كان الحنيـن الطاغـي لذلـك الزمن يرسـم لونًا أبيض وسـط السّـماء، وآخر بنيًّا دافئًا عند خطّ الأفق، وفتاة تعبر الجسـر وشـعرها يطير مع الريح، وثوبها الأخضر الداكن يرسـم خصرًا نحيلًا وشفتين عامرتين بالنّدى.. وأسـفل الجسر تتدفق مياه النّهر، وسمكة مشاكسة تمدّ رأسها الفضي معلنةً تحديها للفضاء! حتّى الحقل المحروق زيّنته بقايا أعشـاب خضراء، ونبتت فيه أزاهير الجيجان في غفلة من النار! تمامًا كما أعيد الآن إنتاج الطريق الذي قطعناه من دمشق إلى حلب!

كان واضحًـا مـن خـلال محاكمتي لكلّ مـا مضى أنّ المشـكلة الحقيقية بالنسـبة لجيلي هي مشكلة الهوية، فلم يكن لدينا إحساس بالوطن، كنّا منفصلين عن الواقع، لا نعرف شكلًا للوطن، بل أشربنا عبادة الأشخاص والمسميات كأنّها قدرٌ لا فكاك منه!

صار قدرًا أيضًا لا فكاك منه أمر العودة إلى الوطن بعد أن جاءت الثورة لتنسف كلّ تلك المفاهيم، وتبيّن لنا تلك الخديعة الكبرى التي أجبرنا على العيش فيها منذ وعينا على الحياة.

حين وصلت إلى مشارف إدلب غيّرت رأيي.. سأذهب إلى حلب فيما بعد، فقد شدّني الحنين إلى قريتي، وطغى على كلِّ ما عداه من مشاعر ومخططات كانت في رأسي. هنا.. وعلى مدى سنوات طفولتي وصباي، حفظ جلدي شكل النسيم ورائحته وألوانه المبهرة. هنا بالضبط.. عبرتُ الطريق إلى الطرف الآخر، ومشيتُ في الدّرب التّرابي ذاته.

في صباي كان عليّ أن أقطع يوميًّا الطريق الدولي الذاهب إلى دمشق كي أصبح في الطرف الآخر حيث مدرستي الإعدادية. هناك عند المفرق كان الأولاد من قرية «معردبسي» يقفون لنا بالمرصاد، يرموننا بالحجارة، فنركض بكلّ قوتنا أنا وثلاثة من أبناء قريتي، هم كلُّ من تبقّى من الطلاب الذين أرادوا أن يكملوا تعليمهم! كنت أركض بطريقة مضحكة، أحمي رأسي بيد، وأضع الأخرى وراء ظهري بعد أن أعلّق حقيبتي في عنقي. أحني جسدي أحيانًا، أنتصب أخرى، أتلوى كأفعى يمينًا و شمالًا، كي أتفادى الحجارة الطائرة.. مع هذا لم أكن أنفد يومًا من إصابة تُسيل دمي، وإن استطعت أن أنفد منها أصل مدرستي ممرغًا بالأوحال أو التراب حسب الطقس، وأنال جزائي من مدرب الفتوة! كان لا بدّ من العقاب اليومي

بالضرب سواء بالحجر أو العصا، مع هـذا بقيت مصرًّا على إكمال تعليمي!

كانت حدود البيت الشرقية المزروعة بالسرو الشاهق الخضرة تحضن الشمس وهي تتهادى كأميرات الحكايات عند الصباح، حاملة الندى وروائح الفل والياسمين والحبق والريحان وكلّ أصيص خصّته أمي بعنايتها. أمّا الغرب فمفتوح على الغياب! الجهة التي كانت تخيفني دائمًا، جهة الجنوب، حيث تجثم المقبرة! أذكر أنّ أبي كان يملك إجابات غريبة عن أسئلتي المتكرّرة، في كلّ مرّة يخترع لي إجابة تحشد مخيلتي بالصور والمشاهد التي أحرّكها كدمى صغيرة، وأخلق منها عالمًا يخصني. لكنّي لم أستطع التغلب على خوفي من جهة الجنوب التي أتجنبها تمامًا، على الرغم من محاولة والدي لجعل الأمر بسيطًا بقوله: «الأموات طيبون. فقط حين تمرُّ بهم قل لهم «السلام عليكم» فيتركونك وشأنك».

كنت أمشي بطريقة جانبية، رأسي صوبهم وظهري للبيت. حين أتجاوز السور أركض صوب الباب، وكأنّي تخلّصت من الموت، وكتبت لي الحياة! ربّما لم يكن خوفًا من الأموات بحدّ ذاتهم بل من فكرة الموت. كنت أخشى أن أضيع، فيكون مصيري بين هؤلاء، وأفقد أهلي! فقد قال لي أبي مرّة حين سألته عن سبب غياب الشمس: «إنّها تذهب للبحث عن الأولاد الضائعين الذين لا أهل

لهــم». وحين ســألته عمن فــي القبور، قــال: «هم الضائعــون الذين لا أهل لهـم!».

ســاحة البيــت الخارجية كانــت مليئة بـأوراق الأشــجار الميتة، وأكيــاس النايلــون الفارغة، وفضــلات الطيور والدجــاج! منذ متى كانت أمّي تهمل تنظيف الساحة؟ مكنسة «اللبّون» كانت متكئة على الجدار الداخلي لســور الحديقــة.. وبجانبها ســلة مهملات فارغة، لونهــا الأصفــر أحالته شــمس المغيب إلــى برتقالي كئيــب. ها هي الشــمس تغيب مــن جديد منبهة حواســي إلى حضــور الموت! كلّ غروب بالنسبة لي موت، وكلّ شروق عودة إلى الحياة.. وقد ارتبط ذلك الأمر بمجنون قريتنا الذي وجدته يومًا هناك على صخرة سوداء ينظـر إلى البقعة التي غاب فيها أحمــد، وعيناه متحجرتان، نظرتهما الزجاجية الفزعة أدخلت الرعب في قلبي.

علــى ضفــة بعيــدة لحقــل حنطــة كان يقــف حاملًا روحــه على كفيه الخشــنتين. في اليــوم الذي عرف فيه الموت، عاشــه بتفاصيله المرعبة.. كان يراقب الجسد الصغير بذهول وارتباك، يحرّكه بعنف فترتجــف ذراعاه بقوة.. لكنّهم ســحبوه من مكانــه، أبعدوه، حملوا الجســد الصغيــر، وذهبوا به إلى المقبــرة. لم يتبعه إلــى هناك.. بقي فــي مكانــه ينظر إلــى البقعة التي ســقط فيهــا، يلمس بحنــان موضع جســده، فيحسّ بدفئه.. ترابٌ دافئ، أحمر.. أحمر.. دافئ.. كلمتان

كانتـا تترددان في روحـه.. لـم ينبس بهما.. لـم يكـن يعرف من اللغة إلا بضع كلمـات يحتاجها للتعبير عن جوعه، فرحه، حزنه، وامتنانه للشمس التي تشرق في الصباح، فتهبه عمرًا جديدًا!

راقبتـه كثيرًا من وراء السـور.. كنت طفلًا لـم أعرف وقتها معنى تلـك الحـركات المفاجئة التي تهز جسـد مجنـون القرية، فترتجف يـداه، وكأنّه يهزّ شـخصًا ميتًـا، يريد أن يعيـد إليه الحيـاة، لكنّ يديه تقعان على فراغ!

لـم يكن هناك سـوى الريح وتربة حمراء تلعبان كالأطفال، تغطي التربة المكان زمنًا.. وتكنسـها الريح ثانية... وهو يحدّق باسـتمرار في تلك البقعة بالذهول نفسـه المليء بالتساؤل والألـم. لـم يتغيّر في ملامحه شيء على الرغم من مرور زمن طويل.. ربّما أكثر من سنة، لا يعرف على وجه الدّقة، لكنّه زمن طويل يناسب إحساسه الطفولي بالأشـياء مـن حوله. كنـت أراهـم كلّ يوم، يأتـون إليه، يسـحبونه، يذهبـون به إلى البيت، ينظّفون جسـده وملابسـه، يطعمونه، ثمّ يفرُّ منهم عائدًا إلى المكان الذي فَقَد فيه رفيقه الصغير! الولد الذي كان يرافق مجنون القرية دائمًا لـم يكن بحاجة لكلمات ليتفاهم معه، كانا منسـجمين متحابين من دون حاجة للتعبير عن ألفتهما، شكّل لزمن طويل جسـر حماية له مـن أولاد القرية العابثين الذيـن كانوا يرمون المجنون بالحجارة، ويكيلـون له الألقاب البذيئة.. لكنّ أحدًا منهم

لم يهتم به كإنسان.. وحده ذلك الولد الأغبر الشعر، القوي البنية وقف في وجههم يومًا، وتأبط ذراع المجنون، وجلسا معًا على الصخرة ذاتها.. لم يهتم لكونها سوداء خشنة.. فقط اهتمّ بإطعام المجنون وحمايته.. ومنذ ذلك اليوم لم يعد أحد يجرؤ على رميه بالحجارة، ولم يعد يفكّر بالذهاب إلى طريق دمشق ليعبر إلى الطرف الآخر من العالم كما يعتقد.. اكتفى برفقة أحمد وارتبطت روحه بتلك الحكايات التي يسردها الولد عن بطولات وخرافات ترتبط بأزمان لم يزرها لكنّها كانت حاضرة في أحلامه! في تلك البقعة بالضبط، في الأرض الجرداء وبين الصخور السوداء، ظهرت نبتة جيجان، شقّت التربة.. أزهرت.. زهورها الصفراء ملأت جسده نشوة برائحتها الذكية.. التقطها.. فركها بين يديه.. سال حليبها السام على شفتيه.. خلال دقائق تورّمت شفتاه، وجحظت عيناه.. وراح في غيبوبة لم ينتبه إليها أحد! لكنّ الرائحة القوية للجيجان اقتحمت بيوت القرية في عصر اليوم التالي ممزوجة برهبة الموت، فخرجت النسوة يبحثن في البريّة عن سبب الرائحة!

«عبادي» مجنون قريتنا يصرّ دائمًا على الحضور في إطار الصورة التي أحملها تحت جفني لطفولتي. لم تفارقني صورته في أقبية التحقيق، خاصة عندما وصلوا جسدي بأسلاك الكهرباء.. شعرت به وكأنّه يلبس جسدي.. وذراعاي ترتجفان كذراعيه عندما أراد أن يعيد الحياة للطفل الذي أحبّه، لكنّه بدل ذلك ذهب إليه راضيًا!

بقي المغيب مرتبطًا بالموت والفقد حتّى تفتحت أحاسيسي على جمال ما يحيط بي من برية وأشخاص وألوان أخرى.. شغلتني عن الغرق مع قرص الشمس في مشاعر الكآبة واقتراب النّهاية.

أكثر ما كان يبهجني ملابس الرجال، الجلباب بلونه الرملي القريب من بهجة اللبّون، فكنت أتصورهم حقلًا من الزهور الصفراء اخترق الأسمنت الصلب لأسطح المنازل عند مغيب الشمس ليشكّل لوحة الحياة التي لا تنتهي! أمّا النساء المنتشرات على الأسطح بمناسبات عديدة فقد كنّ كفيلم قديم باللونين الأبيض والأسود.. لا يبرحن تراثهن المغرق في عزلته!

ثمّ أغوتني الحجارة الملساء بلونها الأحمر الدافئ، وملمسها العذب، فكنتُ أجمعها، وأخفيها في علبة صغيرة أحتفظ بها في غرفتي، أغمرها بالتّراب كي لا يلمحها أحد.. لم أكن وقتها أعرف ماذا تعني، لكنّي أدرك بحواسي كلّها، أنّ روحًا تختفي هناك تحت التّربة ستحوّل تلك الحجارة الحمراء الملساء إلى أنثى جميلة، قد ألتقيها يومًا ما في مكان من هذا الكون الفسيح. أدرك أنّي لن ألتقيها هنا في قريتي، لكنّي أمتلك اليقين أنّها كانت يومًا هنا.. أنثى استثنائية، تغطّت خجلًا من العيون بتراب أحمر، وحوّلها الزمن إلى حجارة ملساء.. حمراء اللون، سأهديها لحبيبتي، ستضعها قرب سريرها، فتراني من خلال تفاصيلها كما ترى الساحرة الكون من بلّورتها السحرية! كانت أجمل بكثير من بلورة الساحرة.. لم أكن وقتها

أعرف حكاية الحجارة في قريتي الصغيرة، لكنّي أدرك بحواسي أنّ اللون الأبيض يعبّر عن الصفاء والمودّة، كما يعبّر الأسود الخشن عن الغضب والحقد، والأحمر عن الدفء والحبّ... لهذا لم أحمل في علبتي يومًا حجرًا أسود، حتّى وإن كان أملس!

توهج لون محبوبتي يومًا في زهرة حنون نبتت في تلك البقعة التي مات فيها مجنون قريتنا.. كانت قبعتها الخضراء تتضاءل في حرّ الشمس، وتلتصق أوراقها الرقيقة ببعضها مخلّفة لونًا داكنًا يوحي بانصهار كامل مع المغيب. وقتها امتلكت يقيني أنّ أنثاي خرجت من مخبئها تحت التراب الأحمر، وتشكّلت زهرة، تضوّعت رائحتها في صباح رطب.. ونادتني كي ألحق بها قبل المغيب! في ذلك الوقت كنت محتشدًا بالدهشة الغضة تجاه الأشياء التي أكتشف جمالها، دهشةٌ لا تلبث أن تتلاشى كفقاعة صابون أمام اكتشاف جديد.. فاجأني البشر أنّ لديهم ما هو أكثر إدهاشًا من الطبيعة الغامضة التي أحاطت بي في طفولتي وصباي.. فهم ما يزالون يملكون القدرة على تركي غارقًا في الذهول والأسئلة التي لا إجابات لها، واللعب بالزمن حتّى انعدم إحساسي بالوقت الحقيقي.

ما رأيكِ يا أمّي؟ الفيلم الأبقى سأصوره هنا، وستكونين معي، نجوب جبال الزاوية، ونستفتي حجارتها الخالدة عن التاريخ الذي مرّ من هنا، وأرسل للعالم نبوءة الحريّة).

الرسالة الثانية كانت من حنظلة، كتب لي:

أعتـذر عن عدم حضـوري، والله رغمًـا عني يا حبيبـة.. التقيت نـورس البارحـة في نـادي الصحفييـن، وأخبرنـي أنّه سيسـافر إلى الأردن، فرافقته.. أكتب لكِ الآن من مخيم الزعتري.

أقـوم بتصويـر النازحيـن من أجل فيلم سـيخرجه نـورس.. قرّر أن تكون الصور باللونين الأسـود والأبيـض.. أدرك تمامًا أنّ اللون سـيأخذ طابعًـا باهتًا لا حياة فيـه، ولن يقدّم لقطة تفصـح عن معاناة أطفال الزعتري! اللون الأسود الذي ربّما أستطيع من خلاله وصف حالـة هـذه المخلوقات صاحبـة العيـون الضائعة! التي لا تسـتطيع أن تنظـر في وجهي بطريقة تشـعرني بها أنّها لإنسـان ملـيء بالحياة والأمل.. عيون منطفئة.. يسـكنها أخوةٌ شـهداء.. أقرباء معتقلون.. منـازل محترقـة.. بقايـا حجـارة تسـدّ ملاعـب الطفولـة والأزقـة الحميمـة التي كانت تحتضن طفولتهـم! أرفع الكاميرا لأصورهم.. لا يبتسـمون، يرفعـون أصابعهـم بإشـارة النصـر.. يخاطبونني بلغة الإشـارة: «نحن موجودون من أجل النصر».. إصبعان يشكّلان رقم سـبعة، سـبعة أرواح، سـبع سـماوات.. إنّهم يريدون الوصول عند خالقهم في السماء السابعة ليشكوا إليه ظلم الحياة لا عدالتها.

وجّهت عدسة الكاميرا نحو طفل صغير في المخيّم لفت انتباهي جلوسـه وحيدًا بعيـدًا عن رفاقه.. ينظر إلى البعيـد غير مبالٍ بألعاب

الصبيان وضجيجهم. انتبه لعين الكاميرا، قال لي بحكمة كهل أثقله الحزن:

(صوّر.. أنا بدر.. من كرم الزيتون..

وعمري بعمر جدي.. أخي بطل في الجيش الحر، وأختي ناشطة تحمل الكاميرا، وتصوّر وجوه القتلة. أبي يعلّم أخوتي معنى الصبر والصمود! أبي علّم أخوتي الصغار قصائد جديدة ليؤنسوا وحشة الليل - عندما تنقطع الكهرباء - بحفظها وإنشادها بصوتٍ مسموع يرتفع فوق أصوات المدافع، التي قال لنا أبي إنّنا سنعتادها إن تخيّلناها فرقعات بوشار، حينها ستكفُّ عن إخافتنا! قال لنا: «إنّ البوشار سينضج قريبًا، ونأكله بمتعة، ونحن نشاهد فيلمًا للأطفال!». أنا أحبّ الشمس.. أنتظرها كلّ يوم في رحلة عودتها بعد العتمة.. ستجلب لي معها قوس قزح، وكيس بوشار، وفيلم كرتون. ألا تستطيع أن تفعل ذلك؟ انظر إلى بيجامتي.. أحتفظ بالشمس هنا في لونها، فقد يمنعها شيء ما عن المجيء.. هكذا أحتال عليها فلا تفارقني. هل تسمع صوت النول؟ أَنْصت جيدًا.. هناك في البعيد.. قال لي أبي إنّه النول الوحيد المتبقي في حمص. يعتقد أبي أنّه نول بيت الندّاف. النول كان في الماضي ينسج الحرير، اليوم صار ينسج الحكايات.. يحفظ حكايات أهل «بابا عمرو» وكرم الزيتون وباب السباع. يهمس بها للريح وهي تنقلها

إلى الدّنيا كلّها.. هل تسمع؟ كلّ يوم أنتظر منه حكاية جديدة ترويها الريح على عجل، وتغادر إلى مكان آخر).

حكايات ذاكرة موجوعة.. تتبع النازحين من سوريا إلى هنا. أبناء كرم الزيتون يتحدّثون عن الذبائح البشرية، وأنا أكتفي بالذهول! أتفرّس وجوههم.. أعينهم محدّقةٌ باتّساع كالأعين التي يرسمها لؤي كيالي في لوحاته. عيون محتشدة بدمع ذاكرة الخوف الذي لا ينتهي!

أبناء «بابا عمرو» يبحثون عن حياة هادئة، ويشتمون بشّار الأسد، وأحيانًا يهمسون لي: «هل تستحق الثورة كلّ هذه التضحيات؟». أراقب عيونهم والشكّ يتأرجح فيها.. لا أملك إجابة محدّدة لأسئلتهم، فأنا لا أستطيع التّصريح بالحقيقة، فأختار الشتائم مداراة لعجزي، وكي لا أستخدم تلك الكلمة الهاوية «لا أعلم!». نظام عاهر ابن عاهر.. يلتقط محدثي تلك الكلمة، وكأنّها حبل سحري سيخرجه من عتمة البئر: «علوي». أجدني أنفي بسرعة: «لا، لا أريد أن أكون طائفيًّا». يصرّ: «بل علوي».. يبدو أنّنا نساق كالنعاج نحو الطائفية كما ساقونا نحو التسليح، وكما ساقونا خلال خمسين عامًا نحو الذل والعبودية. قد يكون محقًّا.. هل أصبح طائفيًّا إن قلت ذلك؟

عـن مـاذا أردت أن أحدّثـك؟ آه.. نعـم كنـت أحكي عـن بدر.. الطفـل الرجل.. قالت عنه فتـاة أردنية: «هادا مو طفـل هاد زلمي». لكنّـه طفل.. مليء بالنشـاط لا يـكاد يثبت أثنـاء الحديث، روى لي همسًـا أنّه شاهد وحوشًا على شـاكلة بشر، يحملون سيوفًا تبرق من كثـرة نظافتهـا، تلمع في عين الشـمس، وكأنّها خرجـت للتوّ من يد صانعها.. غابوا قليلًا في الحي، وظهروا فجأة كالأشباح، وقد اختفت ملامحهم البشرية وسيوفهم تقطر دمًا! اشتم رائحة الخوف والقذارة والرعب.. فهرب بعيدًا، وهو يسدّ أنفه.. لم تكن رائحة بشر.. أقسم لـي، وأعاد القسـم مرّات، وهـو يرتجف: «لم تكـن رائحتهم رائحة بشـر». أدرك بحدسـه أنّ المـوت كان وراءهم أو ربّمـا أمامهم.. لم يعرف تمامًا ما الموت؟ لكنّه أحسّ به في نظراتهم والدّم الذي لطخ ملابسهم وسـيوفهم! تذكرين حديثنا عن ذلك الطفل الذي اكتشف «مـا هـو المـوت» بين أشـجار الزيتـون وفي هـدأة الغيـاب، وجاءه المـوت ناعمًا لطيفًا كهبوب نسـمة ربيعيـة مصحوبًا بعزف صرصار الليـل؟ بدر اكتشـف الوجـه الآخر للمـوت.. المـوت المصحوب بالرعب، بالألـم، بالفقد، بالتشوّه. موت مشوّه تنفذ رائحته النتنة عبر الأزقة، وتسـحب الأوكسـجين من الأجواء، عندهـا يموت ما تبقى مـن الأحياء، إمّا بسـبب الألم على من ماتـوا أو برائحتهم الخانقة.. وإن شـاء أن يسـدّ أنفه ليبعد صورة الموت سـيموت اختناقًا! لماذا

يعيش طفل مثل بدر هذه التجربة القاسية؟ لماذا أجبروه على رؤية بشاعتهم؟ الموت عند بدر لا ينتهي كما ماتت جدته بعزاء ودموع تذرفها أمّه، وطعام يوزعه الجيران، وباقات ورد توضع على قبر.. الموت عند بدر يعني أن تحشر مع جثث أخرى في مقبرة جماعية، وأن يأتي أحد شبيحة الأسد لينبش جثتك، ويمثل بها، وينتقم منك إلى ما لا نهاية.. الموت كما يراه عذاب وراء عذاب، وخوف وراء خوف، وسلسلة من الألم لا تنتهي.. وفي كلّ مرّة سيدوسون قلبه ورأسه، ويقتلعون حنجرته، ويسألونه: «بدّك حريّة؟». يتخيّل بدر أنّ شبيحة الأسد قتلوا الملائكة، وارتدوا ملابسهم، وأنّهم يقبضون الأرواح، ويحاسبونها، ويعيدون قتلها داخل القبر، وينهشون الجثة وراء الجثة، ويقطّعونها أشلاء، ولا يسألونها من ربّك؟ وما هو دينك؟ كما علّمته أمّه، بل يسألونها سؤالهم اليتيم: «بدّك حريّة؟».
يقول لي بدر هامسًا: «لا تخبر أبي، لكن اصدقني القول، أليس ملائكة الموت هم شبيحة الأسد؟». جمّدني سؤاله.. وتيبس لساني في حلقي.. أنا مثل بدر، لا أملك إجابة، وأريد أن يخبرني أحد ما: «هل ملائكة الموت هم شبيحة الأسد حقًّا؟». قال لي بعد صمت قصير: «هل تعرف أنّهم لحقوا بنا إلى هنا؟ نحن هنا في سجن كبير.. نعيش أذلاء كما يعيش القرباط(*) على أطراف المدن، يستعطون

(*) قوم من الغجر.

الناس، ويشحذون لقمتهم.. أبي يقول، إنّ علينا أن نحتمل ريثما يحين موعد العودة. هل حقًّا يجب علينا أن نحتمل؟ آخ.. ما أجمل أن تنام على صوت الرصاص! ما أجمل الخوف والرعب قياسًا بما يفعلونه بنا هنا. هل تدرك أنّ المصيبة تكمن بأنّ هؤلاء وهؤلاء أخوتنا وليسوا أعداءنا؟ أنا أستطيع احتمال الجوع والبرد واحتمال السجن الكبير هذا، لكن أختي الصغيرة لا تستطيع!

كلام بدر الطفل الرجل جعلني أشعر بعدم الجدوى من بحثي الدائم عن الأمان، جعلني أشعر بالخزي حين أفكّر بالأمل تبعثه زهرة قرنفل، أو عطرية تزهر على شرفة في بلادي. المشكلة لا تكمن في التفاصيل الصغيرة، بل فيما أحمله في ضلوعي من أمنيات مستحيلة. لماذا لا أعود أنا أيضًا؟

بعض القرارات لا تحتاج إلى تفكير عميق وتدبر كي ننفذها، بل لمزيد من الاندفاع والثقة بأنّ أقدامنا تقودنا إلى الدرب الصحيح!

في المساء دخلنا الخيام، سهرنا على ضوء الشموع، أسرة بدر لم يكن لديها قنديل كاز ليضيء سماء الصحراء من حولنا. على أطراف المخيّم خرجتُ ألتمس من الليل سترًا للدمع والحسرة التي تركتها تلك الظلال التي رسمتها الشمعة على جدران الخيمة.. تذكرت أصدقائي، حفلة عيد ميلاد مجنونة، الملامسات الخاطفة والمسروقة في لحظة إطفاء الشمع.. شتان ما بين خوف.. ولهفة،

وما بين بحث عن الدفء مصحوبًا بلمسة حبيب في مكان آمن، والبحث عن دفء إنساني في فضاء مليء بالخوف والقلق من الأسوأ القادم! كم من الفروق تكمن في التفاصيل لجوّ يبدو لعَيْن مراقب من بعيد من خلال صورة.. يرى الظلال والعتمة، فيشعر أنّه في جوّ حالم تحمله مخيلته لكتابة تقرير.. تصحبه قشعريرة ليست بسبب برودة المكان المظلم لكهف حشرت فيه الجثث، بل لكأس افتقده وأنامل صديقة هجرته منذ زمن! فهو في المطلق لا يشمّ الرائحة، ولا يرى حقيقة عيون القتلة كما رآها بدر. بدر الذي أيقن أنّ الوطن لا يمكن أن يكون في خيمة، بل هناك حيث رفات الأجداد.. وملاعب الطفولة ودفء الجدران.

***

على درب الجلجلة

صوب مقهى الحجاز توجهنا أنا وحسام والصبايا. كانت بتول أكثرنا حماسًا، وهي التي اقترحت أن نذهب قبل الموعد بساعة كي نتناول قهوتنا هناك على إيقاع النسيم الصباحي البارد متمتعين بشمس خجولة تمدُّ رأسها من شبابيك الغيوم، وتختفي.

بانتظار وصول زينة وماجدولين شربنا الفنجان الثاني من القهوة، وتبادلنا وجهات النظر حول المخطط العام لما سنفعله بصوت هامس لم يطغَ عليه صوت فيروز البعيد، ولا صوت النادل الذي يدفع عنه آثار النوم بتثاؤب مستمر.

لم أكن قد التقيت «الخال» قبل الآن، وإن كنت على تواصل معه عبر صفحته على الفيس بوك ومحادثات سريعة على الهاتف. فاجأني في آخر مكالمة لنا البارحة برغبته في لقائي اليوم مع الصبايا والشباب. قد يبدو أمر اللقاء عاديًّا بين شخصين تعارفا افتراضيًّا، وأرادا أن يحوّلا ذلك إلى واقع، لكنّ المفاجأة أن دعوة الخال إلى فنجان القهوة الصباحي لم تكن دعوة عادية!

بعد ساعة بالضبط رأيته وهو يقطع الشارع صوب المقهى، لم يكن مختلفًا عن صورته التي يستخدمها على الفيس بوك. نهضنا بسرعة، حاسبنا النادل وخرجنا من المقهى. بصحبة الخال بضعة شبان، وصبايا.. لم يتسع الوقت لنتعرّف عليهم جميعًا، فقد كان مقررًا أن نبدأ العمل بسرعة، وننتهي منه في أقلّ من ربع ساعة قبل وصول رجال الأمن والشبيحة إلى المكان. الخال كان يحمل بيده لوحًا خشبيًّا لا يتجاوز عرضه نصف متر، وطوله متران.. حرّكه بيده فانفصلت طبقة كانت مثبتة على الأولى بمفصل في الوسط فبدا صليبًا صنع على عجل، لكنّه يفي بالغرض!

ربط بعض الشباب يدي «الخال» وساقيه إلى الصليب، وصاح أحدهم: «واحد واحد واحد.. الشعب السوري واحد». وانفجر المكان بالهتافات التي جعلت بعض السيارات تتجاوز إشارات المرور بسرعة، وأخرى تبطئ سيرها، وازدحم الناس يتفرجون بصمت، والشباب في غمرة حماسهم لم ينتبهوا إلى القوة التشبيحية القادمة من صوب جسر فكتوريا! كان الخال يصرخ ليفكوا قيده، وهو يلعن روح المقبور وروح الشاب الذي كان من المفروض أن يصوّر المظاهرة خلال دقائق ويهرب، لكنّه لم يأتِ!

تنبه الشباب حين علا صوت الرصاص، وانهمر من كلّ الجهات. هرع معظمهم إلى الشوارع الفرعية مبتعدين عن مبنى المحطة حيث سال الدّم ووقع بعضهم جرحى.. لم يكد حسام ينتهي من فكّ قيد

الخال، وسحبه بعيدًا، حتّى تبعنا محمّد وهو يجرّ الصليب، ويعرج، وقميصه ملطخ بالدّم! على بعد خطوات من مدخل إحدى البنايات سقط محمّد.. سحبناه بصعوبة لكنّه لم يتخلَّ عن الصليب، بقي متشبثًا به وهو ينزف!

حين هدأ الشارع، وابتعدت سيارات الأمن.. وضعنا محمّد في السيارة، وغادرنا بسرعة.

قبل أن نصل المستشفى الميداني، اتصلت زينة، وأخبرتنا وهي تبكي: «لقد اعتقلوا ماجدولين».

*****

في الحادية عشرة من ليل الحادي عشر من نيسان غادرنا «شاحنة الخضار» المركونة في زاوية من شارع السادات.. ركبنا سيارة حسام ليوصلني إلى البيت بعد يوم مرهق نقلنا فيه كمية من الدواء وأدوات طبية حصلنا عليها بمعجزة، وواريناها بين الخضار في عربة خشبية مركونة قرب «الشاحنة – المستشفى الميداني» الذي حرص الشباب على تغيير مكانه كلّ يوم بشكلٍ لا يدع مجالًا للشكّ فيه.

قبل أن نصل مدخل الحي رنّ هاتف حسام.. فهمت أنّ الطبيب الذي يعمل معنا اتّصل به يسأله إن كان يستطيع تهريب جندي جريح أصيب في الاشتباكات على طريق دوما في سيارته. خفق قلبي

بعنـف.. دومـا! قلت لحسـام: «سـأرافقك». قال بلهفة: «يـا حبيبة، الطريـق صعب عليكِ، الأفضـل أن تذهبي لترتاحي، غدًا سـنذهب إلى المحكمة لنرى إن كانوا سيطلقون سراح نور».

لـم أوافـق.. أقنعتـه أنّ وجـودي معه في هـذا التوقيت سيسـهّل مروره على الحواجز، ويبعد الشك عنه.

لـم يخطـر ببالـي أنّـي سـألمس يد صالـح صديـق ابني، وأشـدّ عليهـا.. وأتأمل الإنسـان الذي عـاش مع ابني زمنًا فـي بيت واحد، تقاسـما الطعام والحكايات والذاكرة والمحبة وكلّ شيء! همست: «يا نور»، وهمس: «يا أمّي».. كان فقيدنا واحدًا!

صالـح في المقعد الخلفي يئنُّ تحت الأكياس المكدّسـة فوقه.. وقلبـي يضرب بعنف، والسـيّارة تنهب الطريق بنـا في طريق الربوة. كنـت أحدّق فـي المرآة، أراقبـه، وأتأكد مـن عدم ظهور مـا يريب. في طريق ذهابنا خفت، وتوجسـت من إمكانيـة القبض علينا ونحن نحمل الدواء وأدوات الجراحة اللازمة لإخراج الرصاص من ساق الجندي المصاب. الطبيب كان مطمئنًّا وهادئًا. قال لي - وكأنّه لمح الخوف الكامـن في نظراتي-: «الطريق آمـن، ذهبت وعدت مرتين اليوم، مرّة مع سـيارة أغذيـة، ومرّة نقلت دواء لمستشـفى ميداني». ضحكت بصوت خافت، وقلت: «لست خائفة، لكن هذه المرّة معنا جريـح.. وأنـت أدرى.. لن نحلـم باعتقال أو محاكمة، سـيصفوننا

مباشـرة». قال بالهدوء نفسـه: «ألا تؤمنين أنّ العمر واحد، وسـاعة الأجل لن تتأخر أبدًا؟».

لـم أكن أعلـم أنّنا سـنحمل في السـيارة قطعة أخرى من روحي.. أغمضت عينيّ مع تلاشي أنين صالح الذي غفا هو الآخر.. وصوت أغنية سناء موسى في مسجل السيارة يدغدغ بقايا حلم متعب «يا ها العريـس اللي بلادك ما أريناها، يا بدلتك من جبل عجلون قطعناها، واتفصّلـت بحلـب، واهتزت الشـام... يا نجمة الصبح فوق الشـام عليـتِ.. الأجـواد أخذتِ.. والأنـذال خليتِ... . هـل غفوت حقًّا أم كانـت لحظـات من غياب الحـواس في حلم يقظة صـوّر لي أنّي أسـمع صوت نور بوضوح شـديد يقول: «كيفك أم نـور؟». قبل أن أجيب، اقتلعني من الحلم والنوم والمقعد صوتُ رشقات رصاص، وتوقـفٌ مفاجئ للسـيّارة جعل رأسـي يصطـدم بزجاج البـاب، ثمّ ارتـدّ ليرتطـم بالمقعـد الخلفي.. كنـت بحاجة لأكثر مـن دقيقة كي أسـتطيع اسـتيعاب الموقف. يدي اللزجة كانت تقبض بتشـنج على يد «حسـام» فوق المقود.. والدّم يسـيل من جبهتـه.. غاص صوتي في صدري، خرسـت تمامًا.. تلاشت أصوات الكون.. فقط صوت الجنـدي الواقف على الحاجز «الطيّار» كان يأمرنا بالنزول.. نظرتُ فـي المـرآة، كانـت الفوضى العارمة في الخلف تنحسـر عن جسـد صالح السـاكن، والطبيب يحتضنه وهو يبتسـم تلك الابتسـامة التي

تنبئ عن جسد سيبرد بعد لحظات. نظرات الجندي على الحاجز كانت تحمل لونًا غريبًا.. أضاء العتمة بسرعة وتلاشى.. شيء في أعماقي صرخ بقوة: «إنّه هو.. لا شكّ هو.. لقد أوقفه حاجز طيّار.. اعتقله جندي على حاجز طيّار، ورماه في غياهب الجبّ...

أضاءت العتمةَ أرواحٌ غادرتْ السيارة إلى أفق أرحب وأشدّ زرقة! لا لم يكن هناك عتمة.. لم يكن هناك أنوار تضيء الشارع.. كانت الزرقة شفافة، تخترقها ثلاثُ بقعٍ بيضاء... بيضاء...

31/ 12/ 2012

***

خارج النص الروائي

بعض شخصيات هذه الرواية استشهد فيما بعد..

والبعض الآخر اعتقل بعد انتهاء زمن الأحداث..

والبعض ممن دخلوا معركة دمشق إلى جانب الجيش الحر لم أعرف عنهم شيئًا

- معظم الناشطين من الشباب غادروا سوريا أو توقفوا عن العمل في الإغاثة نتيجة الملاحقة الأمنية وقصف المدن.
- سامية أصيبت بشظية هتكت عظم ساعدها فاضطرت للبقاء في المستشفى حتى نهاية حزيران 2012، لكنها عادت للعمل في الهلال الأحمر في أوائل أيلول بيد واحدة.
- الطفل حمزة «صاحب الدراجة الهوائية» استشهد أثناء القصف على مدينة أريحا في آخر أيام رمضان، وهو عائد من السوق حاملًا على دراجته أكياس العرقسوس والمعروك.
- ما زال حنظلة يرى ويكتب كلَّ شيء.

- ومـا زال الشـعب السـوري يرتقـي إلى السـماء حيـث حريته المطلقة.

- ومـا زالت الحجارة والشـجر والذكريات تتسـاقط تحت وقع القذائف والبراميل المتفجرة والرصاص الحارق.

- ما زال مصير نور مجهولًا.. وما زلت أنتظره.....

كتبـت في الرواية: «المشـاتل البعيدة أومأت لـي بتحية الخضار الذي لا تسـتطيع قـوة القمع اعتقاله مهما حاولـت»؛ لكنّهم أزالوها بجرافاتهم.. اقتلعوا مـزارع الصبّار في المزة في الوقت الذي كانت دباباتهم تقصف فيه البيوت.

- الخال - غسان سلطانة - توفي في تركيا بمرض خبيث، وظلّ يطالب بسورية حرّة حتّى آخر لحظة.

صدر للكاتبة

- جذور ميتة، مجموعة قصصية، الجائزة الأولى لمسابقة سعاد الصباح، 2001.
- جبل السماق «سوق الحدادين»، رواية، دار فصلت، حلب، 2004.
- نساء بلا هديل، مجموعة قصصية، دار رواية، الجائزة الأولى لموقع لها أون لاين، 2004.
- ذاكرة الرماد، رواية، دار الحوار، اللاذقية، 2005.
- جبل السماق «الخروج إلى التيه»، رواية، الجائزة الأولى لمسابقة المزرعة، 2006، صادرة عن دار العوام دمشق
- المعراج، رواية، دار العوام، 2007.
- عين الشمس، رواية، دار مسعى، 2010، وصلت للقائمة الطويلة للبوكر.
- غواية الماء، رواية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2011.

مدن اليمام

هذه رواية قمع بامتياز. موضوعها المقاومة السورية لحكم بشار الأسد، وتصل الرواية بين زمن القمع في عهد والده وفي عهد بشار نفسه الذي لم تختلف سياساته الدامية في قمع شعبه عن سياسة أبيه؛ فالقتل موجود والوحشية تتصاعد، والتعذيب الجهنمي للمظلومين في المعتقلات لا يختلف عن صور الوحشية الدامية الواقعة على أحرار شعب يحلمون بوطن لا طائفية فيه ولا شبيحة، والفشل في الحب هو النتيجة الحتمية لزمن قمعي لا مجال لليمام فيه، بكل ما يرمز إليه اليمام من عوالم الحب والحنان والرقة.

لكن وسط هذا الكابوس تبدو روح المقاومة التي لم تتوقف إلا بالخلاص من الطائفية والتعصب الديني والشبيحة، وعندئذ، قد يعود اليمام إلينا آتيًا واعدًا بعالم لا يشبه هذا العالم الذي تعيشه سوريا الشقيقة.

د. جابر عصفور

إبتسام إبراهيم تريسي، ولدت عام 1959 في مدينة أريحا في الشمال السوري. تخرجت في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة حلب عام 1986. عزلت من العمل في تدريس اللغة العربية، ورُفض تعيينها في وزارة التربية لمواقفها من النظام فتفرغت للكتابة الروائية.

حصلت على الجائزة الأولى لمسابقة سعاد الصباح عن مجموعتها القصصية (جذور ميتة)، ووصلت روايتها (عين الشمس) للقائمة الطويلة لجائزة البوكر.

مكتبة الدار العربية للكتاب